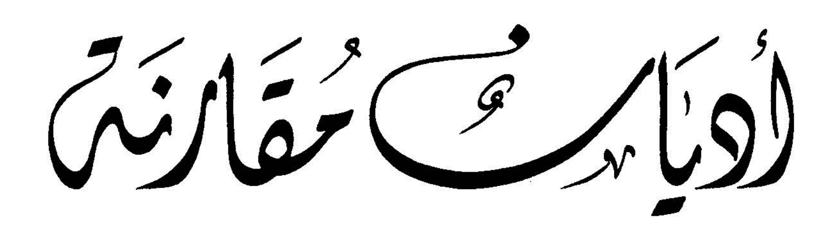
الدكتورة ليلى حسن سعد الدين

مركز اللغات - كلية الآداب
الجامعة الأردنية



وَلتجدنهم أحرص الناس على حياة

دار الفكر للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
١٩٨٥

دار الفكر للنشر والتوزيع
ص. ب ١٨٣٥٢٠ ـ تلفون: ٦٢١٩٣٨
ساحة الجامع الحسيني ـ عمّان ـ الأردن
١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة.

إلى الذين جعلوا أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين مهوى أفئدتهم.

إلى كل قائل: فلسطين جنتي ولأجلها حياتي وولدي

التقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فليس من العبث أن أجنح عن دراستي المقارنة المتخصصة إلى هذا النوع من الدراسة، وهي التي تتعلق من قريب أو بعيد بأغرب قضية وأقدس قضية، قضية وطننا فلسطين. فإني أعتقد ـ وقد يكون هذا مخالفاً للكثيرين ـ أن كل كلمة تقال أو تكتب في غير هذا الخصوص فهي كلمة باطلة، في قضية خاسرة رغم صحتها وثبوتها.

ودفعني هذا النوع من الدراسة نحو القرآن والتوراة والانجيل، أنهل منها ما يعينني على إجلاء ما استتر من قصة فلسطيننا مع الحياة والأيام، وليكون القرآن دائماً هو نهاية المطاف الذي أعيد إليه ما أجده في التوراة والانجيل، وبه تتم المقارنة وتتضح.

وأخذت أمضي مع التوراة التي ما كانت يوماً توراة موسى، ولكنها توراة سبي بابل من الكهان الذين أخذوا ينسجون من وحي نفوسهم، وبما يحتمل فيها توراة جديدة ابتعدت كثيراً عن توراة موسى التي ضيعوها وطمسوا معالمها بما حرفوه وزيفوه واختلقوه. وهي مع كل هذا التزييف والتحريف بقيت تلقي أضواء كثيرة على ما بنوا عليه أوهامهم وخيالاتهم وأحلامهم، وهذه تحيل العالم كله مملكة خيالية صهيونية على رأسها ملك من نسل داود غير الموجود.

وليس الغريب هنا هذه المملكة المزعومة، ولكن الغريب هي العاصمة التي ستكون لتلك المملكة المخفية، فالعاصمة كما يريدونها، واحدة في قلب أوروبا، وذلك يؤكد أن القدس وأن فلسطين التي يتباكون عليها، ليست إلا مكان تجمع لشتاتهم الملون المختلف الأشكال والأجناس، وليس هذا التجمع إلا بداية تشتت جديد لهم، فتوراتهم تحكي ذلك، فإن كل تجمع هو بداية للتشتت الذي كتبه الرب لهم.

ففلسطين إذاً هي مكان تجمعهم المؤذن بالتيه الجديد، وفلسطين لم تكن هي محط آمالهم، ومهوى أفئدتهم كما يزعمون، فقد وضع لهم حكماؤهم المشتتون في أنحاء المعمورة خيارات كثيرة لبلاد مختلفة، فقد عرضوا أرضا في اميركا، وأخرى في كندا وثالثة في افريقيا ورابعة في الارجنتين وكان هرتزل يقول: سنأخذ ما يُعطى لنا وما يختاره الرأي العام اليهودي. ولكن فلسطين كانت نهاية المطاف الذي رأوا فيه غنيمة يسهل افتراسها بما حاكه العالم الحاقد آنذاك على أمة الاسلام والعرب، وبما ألبسوها من أثواب الزيف والوهم الديني، لقد كذبت صهيون على العالم

كذبة لم يصدقها سواها، بل لم يتوهم تصديقها سواها.

فأرض فلسطين كانت ولا تزال مشروطة بشروط الايمان الحق، وهي الأرض التي بارك الله حولها منذ كانت، حيث هيئت لعملية المخاض الكبير في ولادة الهداية التي تستقبل رسالات السماء، ومسرى الأنبياء.

وآمنت اسرائيل بكل ارباب الأرض حتى العجل منها، ولكنها لم تؤمن برب السماء، فإن قلوبهم هي كالحجارة أو اشد قسوة، وإن قلوبهم غلف، ورقابهم صلبة، وطبائعهم معوجة، وهي لا تتقبل أدنى صلاح أو هدى.

وليست وقفتي في هذا الكتاب عند الوعد المكذوب أو الوهم الموعود، فقد أثبتُّ ذلك في كتابي (مثل الذين حملوا التوراة) ولكنني مضيت مع هذه الفئة الضالة المضللة ـ قوم اسرائيل ـ في مسيرتها الطويلة مع رسالة السماء إليهم من خلال نبيهم موسى، وهي الرسالة الممهدة لرسالات السماء كلها، وهي تنبع من أصل واحد، وتصدر عن رب واحد هو رب السموات والأرض؛ وليكون اختيار الله سبحانه وتعالى لمن يحمل أمانة السماء ويبلغها بأمانة. وإن ثمن هذا التبليغ ليتناسب مع ضخامة المهمة، ولكنه لن يكون ثمناً دون الروح والتضحية بها.

ولأجل التأكيد على هذا الثمن بدأت مع الخليقة منذ آدم مروراً بأنبياء الله الذين أرسلوا بدعوة التوحيد إلى أقوامهم، وجاهد أولئك الانبياء الجهاد كله، وصبروا الصبر الكبير حتى يبلغوا الدعوة التي كانت تجد دائما آذانا صماً وقلوباً عمياً، وكانوا ينتهون من حيث بدأوا، ولكن بعد أن يحيق بهذه الأقوام عذاب الله، فمن طوفان إلى صاعقة إلى رياح حارقة، إلى زلزال، وإلى ما سوى ذلك، مما ينهي صفحات تلك الأقــوام التي تمرغت في حمأة الكفر واستمرأت العصيان والشرك.

وتمضي البشرية مع تلك الأقوام حتى تصل إلى ابراهيم أو يصل اليها ابراهيم عليه السلام، وأرسل إلى قومه كما أرسل من سبقوه، ووجد من قومه الاقربين والأبعدين ما وجده سابقوه، وعانى ما عانى، حتى انتهى به الأمر إلى أن يحرقه غرور قومه في نار أحالها الله عليه برداً وسلاماً.

وكان ابراهيم في عصره علامة من علامات هذا المخاض للبشرية، فقد رزق ابراهيم بعد يأس بولدين، اسماعيل البكر من هاجر، وبعده بثلاثة عشر عاماً كان اسحق من سارة ابنة التسعين، ومن هذين الابنين كانت ولادة الكون الذي يستشرف الرسالات السماوية المكتوبة المحررة، وأصلها الأول الاسلام لله والخضوع الكامل له.

لقد بدأت النبوة بإسحق، وقد تلقاها عن أبيه إبراهيم، لتمضي في نسله صحيحة سليمة كما أرادها الله سبحانه وعلى هذا النسل أن يحميها ويدافع عنها ويبلغها كما تسلمها ويبذل في سبيلها الروح والحياة، فذلك هو شرط ديمومة هذه الدعوة السماوية في هذا النسل. ولم يحفظ اولئك أمانة السماء، ولم يحافظوا عليها، فإن تكوينهم النفسي لم يكن مؤهلاً للحفاظ على أمانة السماء.

وأرسل موسى إلى قوم اسرائيل، ومع كل خطوة معجزات ومعجزات حسية ومادية، فمنها

أكلوا، ومنها شربوا، وبها استظلوا، ومع الأخذ ودوام الأخذ انتفى من نفوسهم قدرة العطاء أو البذل، فباتوا لا يعرفون غير الأخذ، حتى استحال كل ما حولهم وكل ما في أيدي سواهم لهم، يتطلعون إليه ويسعون إلى الاستحواذ عليه وتملكه، لا يردهم راد، ولا يردعهم غير الضرب على أيديهم بقوة تبيدهم وتفنيهم عن آخرهم كما أصابهم في رحلة تيههم الاولى في سيناء.

ومضى بهم موسى، وهو يدربهم ويعلمهم ويهيب بهم الصبر والجلد والبذل في سبيل خالقهم وراحمهم، ولكنهم قابلوه بالنكوص والجبن والفرار والشرك. ولم تزدهم معجزات موسى غير الجشع، ولم تعمل في قلوبهم غير القسوة التي كتبها الله لهم. وباتوا يتربصون بالأنبياء والرسل، يحولون بينهم وبين أداء رسالتهم وتبليغها، فكان أن دمغتهم كتب السماء كلها، وكتبت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله ومن الناس، وكانت عليهم لعنة الله ولعنة الانبياء والرسل ولعنة الناس أجمعين.

ومضى الاختيار في الفئة القليلة التي آمنت بموسى، وبعيسى من بعده الايمان المطلق الذي لا تشوبه شائبة، وهو اختيار لا يقف عند فئة، ولا يتوقف عند قوم، فإن شرط توقفه هو إيمان أهله إلى حد البذل بالروح في سبيل هذا الايمان.

وكانت أمة محمد ﷺ، وكان أول ما قدمته في سبيل دينها الروح والحياة، لقد اعطت هذه الأمة وأعطت، ولم تطلب من الأخذ شيئاً، فهي تعطي لتنال جزاء الآخرة، وهي تعطي لتأخذ بالمقابل أضعاف ما أعطت من ثواب الله وجزائه في جنة عرضها السموات والأرض.

عند هذه الأمة وقف الاختيار، وفيها توقف الاصطفاء فكانت خير أمة أخرجت للناس، وما ذلك الاختيار، وما ذاك الاصطفاء إلا لأنها الأمة التي حمت دين الله وتحميه بالجهاد والاستشهاد، فكان الجهاد في هذه الأمة من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى ويكاد يكون معها فرضاً من فروض الله تعالى في هذا الدين. ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [1].

وإن فلاح هذه الأمة ماض بإذن الله تعالى بنعمة الجهاد مهما استنسر البغاث ومهما ادلهمت الخطوب و﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ [2].

صدق الله العظيم

والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

(٢) سورة المائدة: آية ٣٥.

التمهيد

تدرج البشرية مع فكرة التوحيد

بعد الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين.

فقد قال سبحانه: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ [1].

خلق الله سبحانه وتعالى الخليقة والخلق بالحب والحق، فكانت السموات والأرض وما بينهما، وكان الانسان الذي خلقه ربه فأحسن خلقه ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾ [2].

وإن في خلق الانسان شؤوناً وشؤوناً، وكان تكريمه الإلهي الذي رفعه فوق مستوى مخلوقاته جميعاً، فكان أول هذا التكريم سجود الملائكة كلهم أجمعين لهذا الانسان، غير إبليس، فلقد أبى واستكبر واحتج أمام ربه بأنه خير من هذا المخلوق، الذي خلق من الطين، بينما كان خلق إبليس من النار، فكان جزاء إبليس اللعنة إلى يوم الدين.

وكان التكريم بتسخير كل ما خلق الله سبحانه وتعالى لهذا الانسان ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [3].

وإن تكريم الانسان وتفضيله على الملائكة من الله سبحانه كان تمهيدا له وتهيئته لحمل الرسالة الكبرى التي خلق لأجلها ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ [4].

أمّا الرسالة التي هيّىء الانسان لها فهي لا تتحقق إلا بما أودع الله فيه من عقل وبصر وبصيرة. وبهذا العقل كان تمييزه، وكان تفضيله، وبه تتحقق الرسالة التي خلقت المخلوقات لأجلها، إنها الرسالة الأمانة التي لا يطيقها سواه، وهذه في مقياس العقل البشري أمانة

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٦.
(٢) سورة التين: آية ٤.
(٣) سورة الجاثية: آية ١٣.
(٤) سورة الإسراء: آية ٧٠.

التوحيد، ورفع راية لا إله إلا الله منذ خلق آدم وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ (٥).

والأمانة التي حملها الانسان هي كلمة التوحيد والاخلاص في العبادة، والتوجه إليه سبحانه في عبودية خالصة مطلقة، ووحدانية شاملة لا يشركه فيها سواه فهو سبحانه ﴿الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن لم كفوا أحد﴾ (٦).

وبهذه العبودية المطلقة يقهر الانسان كل ما من شأنه أن يعيق مسار هذه الأمانة نحو هدفها الأول الأصيل الواحد الأزلي المتجدد (لا إله إلا الله)، وهذا هو الأصل في الخلق، وبه النشوء والدوام.

ومن خلال عقل الانسان يكون ابتلاؤه، وبه تكون المكابدة والمجاهدة، بما جبل عليه من فضيلة العلم والمعرفة التي لا تعلوها فضيلة من الفضائل التي قسمها الله بين خلقه، وبالعقل يكون انتصار الانسان والإيمان على إبليس عدو التوحيد والموحدين.

وبمقدار مجاهدة عقل الانسان شيطانه الذي يقعد منه كل مقعد يكون تكريمه وتفضيله بالخلافة التي استخلفها على الأرض.

وبالعقل يقهر الانسان شهوات نفسه التي يزينها شيطانه، وينتصر على أعداء الأمانة السماوية الذين اتخذهم الشيطان له جنودا وأعواناً وأحزابا. أولئك ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ (٧).

ويقابل حزب الشيطان الحزبُ الآخر المنتصر بأمر الله، ذلك هو حزب الله الذي يجاهد في توحيد الله.

حزبان لا يفتآن يتصارعان منذ وجد الانسان، في معركة أزلية أبدية لا تنتهي إلا بوصول الخلق إلى منتهاه، وفي كل معركة يكون غالب ومغلوب، والغالب أبدا هو حزب الله ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (٨).

وانتصار الانسان لا يكون إلا بعد أن يبذل من عقله ونفسه وجوارحه الكثير في مصارعة الشيطان الذي يحول بين الانسان وربه، بما يزينه له من آثام، وما ينفثه في روعه من كفر وفجور، ولكن سلطانه لا يصيب إلا من ضل وغوى إذ ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (٩).

---

(٥) سورة الأحزاب: آية ٧٢.
(٦) سورة الاخلاص.
(٧) سورة المجادلة: آية ١٩.
(٨) سورة المجادلة: آية ٢٢.
(٩) سورة الحجر: آية ٤٢.

وبالإرادة والادراك والوعي ينتصر الانسان على نزواته وأهوائه وأطماعه وغرائزه، وبهذا يتمكن من حمل الأمانة الجبارة الهائلة التي يفوق حملها كل حمل، وأمامها يخسر الشيطان الرجيم الذي يمتحن به عباد الله، من يؤمن بالآخرة ممن يكفر بها ﴿وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ (١٠).

والخلق كل الخلق، ما خلقوا إلا ليعبدوا الله ويسبحوه ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (١١).

السموات والأرض تسبح الله، والرعد والبرق والمطر يسبح الله، والطير والشجر والجبال، كلها تسبح الله سبحانه تسبيحاً دائماً لا ينقطع ولا يفتر، وقبل هذا كله ملائكة تسبح الله تسبيح استسلام وطاعة وخضوع.

فمن أحق بهذا التسبيح، ومن أولى بتلك العبادة المطلقة ممن اصطفاه الله وكرمه واستخلفه على الأرض؟

وإن في هذا الاستخلاف تكريماً للعقل والارادة في الانسان، وإن تسبيح الانسان الله وعبادته له ليست كتسبيح الملائكة ربها، إنه تسبيح أقره العقل، بل هي عبادة انتصرت بها ارادة الانسان التي ميز بها عن سائر مخلوقات الله سبحانه، وبها عرف طريق الحق والخير والإيمان.

وبهذه الارادة، علا شأن الانسان فوق شأن الملائكة المكرمين حتى أقامة الله تعالى منهم مقام الأستاذ والمعلم، فعلمهم من أمر الله في شأنه، وشأن الكون معه، وشأنه مع الكون ما لم يكونوا يعلمون. فاستوجب منهم بفضل الله وإحسانه إليه التكريم والتعظيم، وأمرهم بالسجود له سجود تشريف واعتراف بفضله عليهم وعجزهم عن بلوغ درجته فيما وهبه الله من العلم الذي جعله مناط خلافته عنه في خلقه (١٢).

فالخلافة هي ذلك التكريم الهائل للانسان، وهي في أصلها الأول قد كانت لعمارة الأرض وسياسة الخلق وتنفيذ أوامر الله وأحكامه فيهم. وهذه الخلافة في الانسان بهذا المعنى هي رسالة الكملة من البشر ممثلة في الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء والحكماء وأهل الحل والعقد من الأمراء والولاة المقسطين.

وتلك الرسالة لا تنقطع آثارها من الأرض ما دام الانسان على ظهرها ؛ لأن الانسان روح

---

(١٠) سورة سبأ: آية ٢١.

(١١) سورة الإسراء: آية ٤٤.

(١٢) محمد الصادق عرجون: الموسوعة الثقافية في سماحة الاسلام: ص ١٦٨.

العالم وعماده المعنوي بمقتضى طبيعة إنسانيته لأنه وسط بين جوهرين: مادي حيواني مظلم، وجوهر رفيع منير يلحقه بالملائكة المقربين، فهو مجمع قوى العالم العلوي والأرضي بعقله ومعارفه وأخلاقه الفاضلة وبغرائزه الحيوانية [١٣].

من هنا جاءت قصة إسجاد الله تعالى ملائكته لآدم نموذج الانسان الكامل عقيب قصة خلافته عن الله في أرضه، تتمياً لإظهار فضيلة النوع الانساني في شخص منبعه الأول ومنشئه الأصيل.

وسجد الملائكة كلهم أجمعون، وأبى إبليس أن يسجد، وجاء إباؤه السجود لآدم جحوداً لحكمة الله تعالى في خلقه، فعميت بصيرته عن إدراك مناط التفضيل والخيرية، منحدراً إلى حمأة العنصرية المادية المكونة لهذه الأشباح النارية والطينية، وضالاً عن ادراك سر قوله تعالى للملائكته ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [١٤]. بعد أن أخبرهم بالنبأ العظيم ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [١٥].

ومناط التكريم الإنساني والعظمة التي لا يطالها سواه قوله سبحانه ﴿ونفخت فيه من روحي﴾، وهذا هو أعظم النعم على من هدى الله قلبه وأناره بنوره، فالنفخ من روح الله سبحانه أعظم شرف واعلاه للإنسان ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [١٦].

إبليس بتمرده وعصيانه ربه رمز لأحد طرفي الحياة، في شرها وكفرها وضلالها، وهو قائد متبعيه إلى جهنم وبئس المصير، وبإبائه السجود اتضح شر الحياة الذي جعله الله سبحانه امتحاناً وابتلاء لبني آدم من خلال انتصارهم على شيطانهم الذي يقعد لهم كل مقعد، ويقطع عليهم كل سبيل.

وانتصار الانسان على الشيطان هو طرف الحياة الثاني، إنه الخير الذي يحيا في الحياة ملازما لنقيضه، هما ضدان مجتمعان متلازمان فيمن اصطفاه الله سبحانه، وهما يصطرعان أبدا في صدر خليفة الله على الأرض، والذي يستحق هذه الخلافة بمقدار انتصار خيره على شره، وبمقدار مغالبة شيطانه ومحاربته لتبقى كلمة الله في صدره، هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

ضدان لا ينفصلان، ونقيضان متلازمان منذ خلق آدم، وكان من نسل آدم الخير والشر، فكان قابيل وكان هابيل، وقتل قابيل أخاه هابيل، وفي هذين اختطت الطريقان، طريق

---

(١٣) الموسوعة الثقافية في ساحة الاسلام: ص ١٥٨.
(١٤) سورة الحجر: آية ٢٩.
(١٥) سورة البقرة: آية ٣٠.
(١٦) سورة المؤمنون: آية ١٤.

الرحمان، وطريق الشيطان، إنهما طريقا الخير والشر، طريقا الحق والباطل، والايمان والضلال.

ذلك هو مقياس البشرية، وسنة الحياة، وقد بدأت هذه في طفولة بشرية احتاجت إلى الكثير حتى تمضي في طريقها المرسوم لها منذ الأزل. وما أكثر ما تحتاجه هذه من وسائل العيش وأسباب الحياة والنماء والتربية والتأديب والتهذيب، بما يحفر في كيانها من وسائل تقبل عقيدة السماء إلى الأرض، وبهذه خلق الله سبحانه وتعالى السموات والأرض، ليعبد من خلال عقيدة التوحيد التي بدأت بها الحياة، وبها تنتهي.

وإن من وسائل تعليم البشرية وسائل الإيضاح الحسية المجسدة التي أرسل بها معلمو البشرية إلى أقوامهم، وهي وسائل تعمل على تنمية عقولهم، وتوسيع مداركهم، فتكسبهم الخبرة والتجربة، وتقوي معرفتهم الأشياء، وتعينهم على استجلاء طريقهم السوي، واكتناه أسرار حياتهم التي خلقوا لأجلها ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ [١٧].

والبشرية في حال نشوئها مثل ذلك الطفل، يبدأ وليداً، ثم طفلاً ثم صبياً يافعاً ثم شاباً ناضجاً إلى أن يصبح رجلاً مكتملاً مستقلاً بذاته، بعد أن هيأه دربه الطويل وحياته الماضية المتدرجة إلى مثل ذلك الاستقلال، وذلك النضوج الكامل البناء القادر على تجديد دورة الحياة.

وكان لا بد لهذه البشرية من هداة ودعاة ومصلحين، تزكو بهم نفوسهم، وتطهر بمبادئهم قلوبهم، وتحصن عقولهم بما ينفعها ويجلو لهم بصيرتها. فكان الأنبياء والرسل الذين تميزوا عن اقوامهم بصفات وخلال أهلتهم لأن يكونوا قدوة لأقوامهم، وهم جزء من هذه الأقوام. وعصم الله سبحانه اولئك المرسلين مما انغمس فيه سواهم من رذائل عصورهم ودناياها.

لقد تميز الانبياء والرسل بصفات وشرائط، ما كانت لسواهم، وأول هذه الصفات هي الأمانة أو الصدق وتبليغ الرسالة للخلق، إذ لو لم يكونوا كذلك لكانت بعثتهم إلى الناس عبثاً، وذلك محال عليه سبحانه وتعالى.

وهذا يعني أن الانبياء عليهم صلوات الله وسلامه معصومون عن الكذب فيما يتعلق بأمر الشرائع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة.

ومما اتصف به انبياء الله سبحانه العصمة عن الوقوع في الذنوب قبل النبوة وبعدها، وذلك بلا شك مرتبط بكمال العقل والضبط والعدالة، وهذا من مستلزمات أداء الرسالة التي كلف بتبليغها.

ومع هذه الصفات النبوية فإنهم بشر من البشر، يأكلون ويشربون وينكحون ويمشون في

---

(١٧) سورة الذاريات: آية ٥٦.

الأسواق، وتعتلج في نفوسهم الشهوات الانسانية كلها، يجوعون فيشتهون الطعام، ويعطشون فيتوقون إلى الشراب، ويتعبون فيميلون إلى الراحة، ويؤذَوْن فيشعرون بألم الأذى كبقية الناس، وتتعرض قلوبهم لكل ما يتعرض له قلب الانسان من مشاعر الحب والكراهية والبغض والرحمة، ما دام أن شيئاً من ذلك لا يستوجب إثماً، وتتعرض أجسامهم للأمراض التي يتعرض لها البشر، ثم ينتهون كما ينتهي البشر [١٨].

وبعث الله سبحانه كل نبي إلى قومه، معلماً وهادياً وداعياً إلى الأصل الإلهي الواحد (لا اله الا الله)، وبهذا الأصل وحده تعنو جباه الجبابرة، وتذل أفئدة الطغاة، وتطيح رؤوس جبابرة البشر وطواغيتهم.

وأرسل مع كل نبي ما يعجز به قومه، مما يكون في عرف البشر أمراً خارقاً للعادة، ولكنه لا يخالف العقل والامكان [١٩] تلك هي المعجزات الحسية التي تثبت الإيمان في وقت يزلزل فيه المؤمنون، وهذه معجزات تحدث في وقتها وتنتهي ولا تتكرر [٢٠] ويجريها الله سبحانه وتعالى على أيدي أنبيائه، متدرجة تدرج البشرية في رقيها ونمائها.

والله سبحانه وتعالى لم يؤيد رسله بتلك المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم، يهدي بها المستعد للهداية، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين، فتقع عليهم العقوبة، وذلك لا يكون إلا بإظهارها، وذلك واجب لإتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها [٢١].

ولكن ما طبيعة تلك المعجزات في مقياس الكون ونواميس الخليقة؟

انها شيء لا يخالف العقل، ولكنه يخالف المألوف والمتواتر في المحسوس، ولا يمتنع عقلاً أن تقع المعجزة، وإنما الذي يمتنع عقلا أن تقع عبثاً لغير ضرورة مع إمكان الاستغناء عنها، إذا تبين أن إقناع المكابرين كان ممكنا بغيرها.

وهل يمكن أن تتغير نواميس الكون وقوانين الطبيعة كلها دفعة واحدة؟

نعم، يمكن. ولا فرق في ذلك بين تغييرها في فترة ما، وتغييرها في جميع هذه الآفاق والأكوان.

ولكن الذي يمكن هو وقوع التغيير عبثاً، مع إمكان اجتنابه والاستغناء عنه وهكذا ينبغي أن يكون البحث في حقائق المعجزات، لأن تغيير الحوادث كلها في قدرة العقل المطلق أهون

---

(١٨) د ـ محمد سعيد رمضان البوطي ـ كبرى اليقينيات الكونية: ص ١٩٤.

(١٩) كبرى اليقينيات الكونية: ص ٢٠٤.

(٢٠) الشيخ متولي شعراوي: معجزة القرآن الكريم: ص ٢٣٥ ـ دار العودة، بيروت.

(٢١) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي: ص ٢١١ ـ المكتب الإسلامي.

من قضية عقلية مجردة يستوي فيها حساب الكثير وحساب القليل. ولكن الشيء الذي لا يقع في العقل المطلق هو العبث الذي لا يساغ في العقل المطلق ولا في سائر العقول.

وأشار القرآن الكريم إلى الخوارق من باب الإعجاز أو من باب السحر، فردها كلها إلى السبب الأخير الذي ترد إليه جميع الأسباب وهو إرادة الخالق سبحانه (٢٢).

ولم تكن المعجزات لتعلن على أقوامها إلا بعد أن تضيق السبل على النبي أمام قومه، وبعد أن يستنفد كل الأسباب معهم. وهم يحاورون نبيهم ويجادلونه، ويضيقون عليه، ويأخذون منه كل مأخذ، وتكون بشريته هي أعظم اعتراضاتهم وشكهم بنبوته ورسالته، إذ كيف يمكن للنبي ان يكون بشراً؟ وكيف له أن يكون واحداً منهم؟ لا بد في عرفهم أن يكون ملكاً من الملائكة التي لا تعيش بينهم، ولا تأكل ولا تشرب.

وفوق هذا كله، فإن النبي لا يفضلهم في الجاه والمال، وذلك هو باب المقارنة في عرف الجهال الضالين الذين يرون في المال وجه فضل لصاحبه، وفي الجاه الدنيوي سبيل سلطان وسطوة.

وإلا فكيف وقف قوم نوح منه وجادلوه ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ (٢٣).

والله سبحانه وتعالى يرد عليهم عجبهم واستهجانهم بشريته فيقول جل جلاله ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ (٢٤).

ويصل شكهم بنبيهم أقصاه، وهو يفصل لهم بشريته بما تسيغه عقولهم ومداركهم ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك﴾ (٢٥).

ويطول الزمن بين نوح وبين قومه، فهو يغاديهم ويراوحهم بالنصح والعظة والهداية سراً وعلانية، وكلما ازداد نصحاً لهم ازدادوا إعراضاً وانكاراً وكفراً، مع كل ما عرضه لهم من أمثال في صنع الله تعالى.

زمن طويل مر على نوح مع قومه، إنه عمر نوح الذي بلغ ألفاً إلا خمسين عاماً، ومع هذا كله فلم يثمر شيئاً مع الأجيال الكثيرة المتعاقبة التي تخللت حياة نوح، دون أن يثمر إلا النفر القليل الذي يُعدّ على أصابع اليد، فنجوا معه في فلكه المشحون.

---

(٢٢) عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية: ص ١٨ - دار الهلال.
(٢٣) سورة هود: آية ٢٧.
(٢٤) سورة الأعراف: آية ٦٣.
(٢٥) سورة هود: آية ٣١.

وليس ذلك فحسب، فإن نوحاً لو بلغ من العمر ضعف عمره لما أنتج غير ما أنتج من النفر القليل المؤمن ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ (٢٦).

وما كان نوح عليه السلام ليبئس من هداية قومه لولا حكم الله المسبق فيهم، وهو سبحانه أعلم بعباده، وهو أعلم أين يضع هداه. عندها توجه نوح إلى ربه بكل ما في أعماقه من اليأس بصلاح قومه ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ (٢٧).

وعند هذه النقطة من اليأس والضيق تأتي المعجزة، بعد استنفاد الأسباب كلها، وهي فيما أرى الفرصة الأخيرة التي يعطاها القوم الذين كفروا.

وتأتي سفينة نوح المعجزة إشارة إلى نفاذ دعوة نوح على قومه، وهو الغرق بالطوفان حتى لا يدع منهم على الأرض دياراً.

وتمضي السخرية بنوح، ويبلغ العناد واللجاج بقومه أقصاه، ولكن العذاب لا بد نازل بهم، فهو قاب قوسين أو أدنى، ولن تنفع في واحد منهم شفاعة نوح، حتى وإن كان هذا ابنه، وذلك يومىء إلى الكفر الذي يفرق بين الأب وابنه، أو بين البنت وامها، أو بين الزوج وزوجه.

ويصنع نوح السفينة التي سينجو بها من آمن في غمرة هذا الطوفان المدمر المهلك المغرق الظالمين أجمعين. ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون. ويصنع الفلك، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه. قال: إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم. حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن. وما آمن معه إلا قليل. وقال: اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم. وهي تجري بهم في موج كالجبال. ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء. قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين. ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال: يا نوح

---

(٢٦) سورة هود: آية ٣٦.

(٢٧) سورة نوح آية ٢٦ ـ ٢٧.

إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين. قال: رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين. قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمعتهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ (٢٨).

وتفتح صفحة جديدة لقوم آخرين، ذلكم قوم عاد لقوله سبحانه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ (٢٩).

ولقد آتى الله قوم عاد بسطة في الجسم وبوأهم أرضاً تدر عليهم الخير الكثير، وبلغوا من العز والمجد ما وعدهم ربهم بالزيادة عليه إن هم أنابوا إلى الله وتابوا واستغفروا.

وأرسل الله سبحانه إليهم هودا نبياً، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام. ولج قوم هود وعاندوا وكابروا واتهموه بالسفاهة لأنه طلب إليهم ترك أصنامهم. وفي هذا تحقير لآبائهم الذين كانوا يعبدونها.

وكان أول لجاجهم وعنادهم ما كان لقوم نوح، فهم يعجبون من بشريته، ومن بعثهم بعد موتهم ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون. أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاما أنكم مخرجون﴾ (٣٠).

وجاءهم هود بمعجزة ربه، والمعجزة هي من صميم حياتهم ولكنها مخالفة لسننهم، وتلك الحياة فيما قص القرآن الكريم ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون.. واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾ (٣١).

وهذا الخير كله يعتمد على المطر، وبه يزداد الخير على الأرض، وذلك يعني أن انحباس المطر كما توعدهم هود هو المعجزة، وفوق هذا فإن عوامل أخرى تصاحب هذا الانحباس حتى يكون هلاكهم وفناؤهم عن آخرهم، فيكونون عبرة لمن بعدهم.

لقد تفاخر قوم هود بما أوتوا من قوة، نظراً لبسطة أجسامهم، ولكن هذه القوة الجسمانية لا تجدي ولا تدفع عنهم عذاباً، وكان العذاب في ريح سلطها عليهم الله سبحانه وتعالى سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر، إلا هوداً والقليل الذين آمنوا معه.

وقص القرآن الكريم ـ ولم يقصها كتاب سماوي غيره ـ قصة عاد فنقرأ قوله سبحانه

---

(٢٨) سورة هود: آية ٣٧ ـ ٤٨.

(٢٩) سورة الأعراف: آية ٦٩.

(٣٠) سورة المؤمنون: آية ٣٣.

(٣١) سورة الشعراء: آية ١٣٨.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون.. ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين.. قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن له بمؤمنين﴾ (٣٢).

ويئس عاد من صلاح قومه كما يئس نوح من قبله، وكان الهلاك لهم والفناء بعذاب الله ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾ (٣٣).

وفيهم قال سبحانه ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية﴾ (٣٤).

وطويت صفحة أخرى من صفحات الكفر وأسدل الستار على عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وفتحت صفحة أخرى.

إنهم قوم ثمود صالح ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ (٣٥). وصالح عليه السلام هو النبي المرسل إليهم، والاستنكار الذي قابله به قومه هو الاستنكار ذاته الذي قوبل به من سبقه؛ إذ كيف يؤمنون ببشر منهم أرسل إليهم ﴿فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر﴾ (٣٦).

لم يجد صالح عليه السلام من قومه الأذن الصاغية إلا قليلا منهم، وتمادوا في غيهم وضلالهم وعبادتهم أصنامهم.

ووعدهم صالح وتوعدهم، ولم يجد ذلك شيئاً، غروراً بما أوتوا في الأرض، وظنا أن ذلك بفضل قوتهم ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا. فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (٣٧).

واستحب قوم صالح العمى على الهدى، والضلالة على الإيمان ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ (٣٨).

ولم يبق غير المعجزة يأتيهم بها نبيهم، فتفرق بين كافرهم ومؤمنهم قبل أن يحل بهم عذاب

---

(٣٢) سورة هود: آية ٥٠ ـ ٥٢.
(٣٣) سورة فصلت: آية ١٦.
(٣٤) سورة الحاقة: آية ٧.
(٣٥) سورة الأعراف: آية ٧٤.
(٣٦) سورة القمر: آية ٢٤.
(٣٧) سورة الأعراف: آية ٧٤.
(٣٨) سورة فصلت: آية ١٧.

الله سبحانه، ولتكون لهم ابتلاء واختباراً ﴿ إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ (٣٩).

وكانت الناقة الحيوان المعروف لديهم، ولكنها ناقة الله، مما يشير إلى كونها على خلاف سنة النوق، فلا بدّ لهم من معجزة معروفة لديهم ومألوفة، ولكنها مخالفة لسنتهم وسننهم. إنها ناقة لم تولد لأنثى، ولها من رزق الله الذي آتاهم، حتى لتكاد تستأثر بالنصيب الأوفى من الرزق والمشرب.

وذلك مطلب يسير من الله سبحانه وتعالى إلى ثمود، وأيسر منه أن يوفوا به، ليدلوا على إمكانية هدايتهم، وهذا الوفاء المطلوب منهم هو حماية الناقة وتوفير مأكلها ومشربها، وذلك علامة بين خالقهم وبينهم، وانها لعلامة محسوسة لا تحتاج إلى كبير عناء، ولا تكلف مداركهم وعقولهم عنتاً، إنه تيسير وتسهيل إلى درب الهدى، تماماً كما ييسر للطفل كل وسيلة حتى يصل إلى ما يراد منه من تعليم وتهذيب، ومع كل هذه الوسائل الايضاحية إلى قوم صالح، إلا أنهم مضوا في غيهم وتمادوا في ضلالهم، ولم تلن قلوبهم لخطاب نبيهم إليهم باللين والرفق، وصموا وعموا ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٤٠).

وعقر قوم ثمود الناقة التي كانت سلامتها أقصى ما طلب إليهم، وذلك لا يكلفهم شيئاً، ولا يحملهم عناء ورهقاً مع ما أوتوا من رفاغة عيش وخصب أرض، وصموا آذانهم عن وعيد صالح لهم بانتظار العذاب النازل بهم قريباً. وكانت الصيحة أو الصاعقة أو الرجفة وإن فيهم قوله سبحانه ﴿ كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ (٤١).

وطويت صفحة كفر أخرى، وطيها قول ثمود، وأسدل الستار على فصل آخر من فصول الخليقة.

وتمضي البشرية منذ آدم إلى صالح مروراً بنوح وهود في طفولة عقلية، ولكنها طفولة

---

(٣٩) سورة القمر: آية ٢٧.
(٤٠) سورة الأحقاف: آية ٢٦.
(٤١) سورة القمر: آية ٢٣ - ٣١.

عنيدة متمردة، جحدت النور الذي جاء به أنبياؤها، فأبادها الله سبحانه، ليأتي بأقوام أخرى، ويعرض عليها ما عرض على سابقيها من الإيمان بالله الواحدّ الأحد لا شريك له، مع وسائل، وأسباب، يمتحنون بها وتمحص قلوبهم.

وإلى جانب هذا كله معجزات يأتي بها الأنبياء الذين ارسلهم الله هداة ورعاة ومؤدبين لخلقه، وكان هؤلاء الهداة من الصبر والحلم والعقل ما جعلهم قدوة لأقوامهم الذين ارسلوا من بينهم إليهم، وعصمهم الله سبحانه عن الشرك الأكبر الذي انغمس فيه أقوامهم، وهو تعدد آلهتهم الأرضية وتنوع أربابهم.

ولم يترك أنبياء الله وسيلة من وسائل الهداية والنصح والإرشاد والعظة إلا سلكوها مع أقوامهم دون أن ينفد صبرهم تبليغاً لرسالة الله، وتنفيذاً لما كلف به وحده دون سواه، حتى يكون انتهاء رسالته بأمر من الله سبحانه وتعالى إيذانا بأن حكم الله في هذه الاقوام قد نفذ، بما بلغوه من كفر وعناد، فاستحال عليهم الايمان والهدى.

وعند هذه النقطة من الكفر والعناد فيه، يكون عقاب الله الحسي الذي توعدهم به أنبياؤهم إذا هم رفضوا هدى خالقهم، إنه العقاب الحسي المزلزل الماحق الذي لا يبقي ولا يذر، غير النفر القليل المؤمن منهم.

ويحل عذاب الله بمن لج في الكفر، وبهذا العذاب تطوى صفحتهم بالإبادة، التي يتعظ بها من يليهم، من مؤمنين، ولكنها إنذار ووعيد لمن يكفر، حين يتجسد أمام عيونهم عذاب الله الصارم بالكافرين في حياتهم الدنيا، فالعذاب الماحق دنيوي ما داموا لا يؤمنون بالبعث الأخروي والحساب، وكان طوفان نوح ورياح هود وصاعقة صالح.

وينتهي طور من أطوار البشرية الطفولية، ويبدأ طور آخر، وفي هذا الطور ترتقي البشرية قليلا، ولكنه ترق يعود في أصله إلى ما سبقه، فهو حلقة في سلسلة الأصل الالهي الأول إلى الأرض، وهو حلقة يتصل بما بعدها بها.

كان عهد ابراهيم عليه السلام هو الطور الجديد، بل العهد الجديد نظراً للأمانة التي اضطلع بها ابراهيم. انه عهد جديد لم تعرف له سابقة في تاريخ الدين، وذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسالة النبوية، أمانة نفس حية تخاطب نفوساً حية باسم الإله الذي يتوجه إليه عباده في كل مكان، أمانة نفس تخاطب النفوس، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهياكل، ولا بسلطان من نظام الدولة أو نظام الكهانة، ولكنها نداء ضمير إلى ضمير.

وهذه هي الدعوة التي تستلزم وجود هداية شخصية، أو تستلزم وجود ابراهيم متصلا بمن بعده، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل على غير مثالها الفريد في تواريخ الأديان.

ولولا أن الشكوكيين باسم البحث والنقد يعملون عمل الآلات في شكهم وفي بحثهم ونقدهم لفهموا أن الشخصية الخرافية جائزة في نظام الكهانات أو نظام هياكل الدولة؛ لأنها نظم قائمة على موظفين دينيين يحل أحدهم محل الآخر بلا اختلاف.

لكن الدعوة النبوية على المثال الذي بدأ به الخليل ابراهيم هي عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقية، ولا عن التتابع الذي ينعقد بين الشخصيات من سلالة واحدة. وما من حلقة في هذه السلسلة الحية إلا وهي تتطلب الحلقة التي قبلها والتي بعدها على السواء.

كانت دعوة ابراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة، فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد، ولم يبدأ عقيدة الفداء، ولم يبدأ عقيدة البقاء، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية، فاصطبغت العقائد بصبغتها، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهود الكهانات والهياكل.

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره؛ فانقلبوا إلى عبادة الأصنام، وجهلوا سر الفداء وسر البقاء. ولكن البداءة قد بُدئت وسارت في طريقها، ولولا أنها بُدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذلك [٤٢].

إبراهيم عليه السلام هو بداية سلسلة نبوات العهد الجديد، ولكنه أرسل لما أرسل له سابقوه، وحدانية الخالق سبحانه لا شريك له، في وسط أقوام اتخذت الأصنام لها أرباباً وآلهة، وعلى رأسهم أبو إبراهيم رب عائلة ابراهيم، ويقابله من الجهة الأخرى نمرود الملك الذي بيده أقدار رعيته ومصائرها، وفي الوقت ذاته فهو رب هذه الرعية ومعبودها.

وحاجَّ ابراهيم أباه ثم هجره، ثم حاج ابراهيم نمرود في خالق السموات والأرض. وطال الحجاج والجدال الذي كان يزيد نمرود صدودا كلما انتصر عليه ابراهيم به. ولكن هذا لم يزد الضالين إلا ضلالا، ولا يزيد الظالمين إلا تبارا.

ولم يجد نمرود الخاسر غير النار يحرق بها ابراهيم، وهي النار ذاتها التي جعل الله سبحانه فيها معجزته، إنها النار التي تحرق في مقياس العقول والمدارك، ولكنها النار التي تستحيل إلى برد وسلام على ابراهيم في ميزان المعجزات. لقد أفقد الله سبحانه نار ابراهيم خاصية الإحراق وفاعليته، وذلك يخالف السنن ويخرق المألوف فأمر النارَ ربها سبحانه فقال ﴿يا نور كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [٤٣].

وكان البرد والسلام على ابراهيم، وإن في ذلك لقرعا للعقول التي تحجرت، وللقلوب التي عميت، وكأن البشرية، كانت تزداد عناداً وكفراً مع مجيء كل نبي، وما كانت لتؤمن بما

---

(٤٢) العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ـ دار الهلال.

(٤٣) سورة الأنبياء: آية ٦٩.

جاء به كل نبي لأنها كفرت بالنبي نفسه وانكرته وكذبته ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما ارسلتم به كافرون﴾ (٤٤).

وتزداد معجزات الله سبحانه في ابراهيم، ليزيد نبيه قوة وصلابة وإدراكاً يشمل بعض أسرار الكون من خلال قدرة الله، ليكون ذلك كله تهيئة له لحمل الرسالة التي لن تنقطع بموت ابراهيم، ولكنها رسالة ماضية في عقبه، ومكتوبة في صحفه التي قال فيها القرآن الكريم إنها صحف إبراهيم.

إذاً لا بد أن يكون لهذا النبي الرسول من المعجزات التي تحققت في نفسه ما يمهـد للإيمان بما سيجري الله على ايدي انبيائه من بعد ابراهيم من معجزات.

فليس من بد أن يأتي إبراهيم بما يؤكد للكافرين الركن الايماني الذي يستند على الايمان بالله، ذلك هو الايمان بالبعث بعد الموت، وبالحساب في ذلك اليوم.

وأنّى لابراهيم أن يفعل ذلك لولا أن كانت معجزة الإحياء من الله سبحانه وتعالى؟ وكيـف يمكن لابراهيم أن يوضح للبشر هذه المعجزة قبل أن يستوعبها هو نفسه ويتمثلها حتى يقنع سواه بما هو مقتنع به.

إن اقتناع ابراهيم لم يأت من فراغ، إنه يؤمن بأن الله سبحانه هو الذي يحيي ويميت، ولكن، كيف تتم هذه العملية التي لم تكن البشرية بمداركها قد بلغت كنهها؟ يريد ابراهيم أن يطمئن قلبه حتى يتحدث إلى قومه من منطلق الاطمئنان النفسي، واليقين القلبي، فإن من نسله من وصفهم ربهم في كتبه المنزلة بتحجر القلوب، وقسوتها، وصلابة الرقاب.

لقد استوعب ابراهيم موقف الاحياء كله، بل معجزة الحياة بعد الموت ﴿إذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى. قال: أولم تؤمن، قال: بلى. ولكن ليطمئن قلبي. قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ (٤٥).

وإن في هذه التهيئة العظيمة لإبراهيم ما ينبيء بجسامة الأمر الذي سيكلف به الأنبياء من بعده والرسل، وهم يكلفون بما يكلفون من خلال وسائل ايضاحهم التي تتدرج تدرج مدارك البشرية.

فهل آمنت البشرية بابراهيم مع ما آتاه الله سبحانه؟ وهل دفعتها معجزات ابراهيم الحسية

---

(٤٤) سورة فصلت: آية ١٤.

(٤٥) سورة البقرة: آية ٢٦.

المنظورة إلى الإيمان بالله الواحد، وبالبعث؟

لقد كفر أبو ابراهيم، وتبرأ ابراهيم من أبيه ﴿فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [٤٦].

ونقرأ في القرآن الكريم عما كان بين ابراهيم وقومه، ولم يؤمن به غير لوط وزوجه سارة ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكاً، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون. وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين. أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة. إن الله على كل شيء قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون. وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ [٤٧].

وهاجر ابراهيم مع زوجه سارة إلى فلسطين وافترق عنه لوط إلى سدوم وعمورة في دائرة الأردن، وهناك تبدأ رسالة لوط، ومهمته، فقد جاء إلى قوم تفننوا في اختراع الرذيلة، وانغمسوا في حمأة الرذيلة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، لقد كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء. وبذلك انحرفوا عن طبيعة الخلق، وسنة الموجودات.

ولم يجد لوط من قومه غير الكفر والإنكار والجحود والعصيان، وتمادوا في غيهم، ومضوا في رذيلتهم كل سبيل، وحتى كادوا يعتدون على رسل الله إلى لوط وقد جعلت منهم غرائزهم بهائم سائمة، بلا رابط، ولا قيد.

وكان مسطورا في علم الغيب ما حل بقوم لوط من عذاب بسبب صدهم عن النور والهداية، وكان عليهم رجز من السماء بما كانوا يفسقون.

وفي هذا كله يقول القرآن العزيز ﴿ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر؟ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. قال: رب انصرني على القوم المفسدين، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، قال: إنا مهلكو أهل هذه القرية،

---

(٤٦) سورة التوبة: آية ١١٤.

(٤٧) سورة العنكبوت: آية ١٦ - ٢٤.

إن أهلها كانوا ظالمين. قال: إن فيها لوطاً قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا: لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين. إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون. ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ (٤٨).

وكان رجز السماء على قوم لوط، وقلب أرضهم رأساً على عقب ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ (٤٩).

وطهرت الأرض من قوم آخرين، وإن علق بها شيء من فاحشتهم التي اخترعوها، ولكن الله سبحانه حاصرها في دينه الحق وجعل حكم فاحشتهم حكم الزنا وجعل صاحبها ملعوناً في الدنيا والآخرة، لما في هذه من فساد في التركيب النفسي والتركيب العضوي ومن انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً.

وأعود إلى إبراهيم عليه السلام، وهو أصل للأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين، لقد كان منه اسماعيل، ومن بعده بسنوات اسحق، ومنه يعقوب ويوسف وموسى وعيسى.

ومن نسل اسحق كان المؤمنون، وكثير منهم الكافرون وبهذا الفرع بُدئت النبوة، وباسماعيل ختمت، وهي للختام مسك وللمسك ختام.

وكان من فرع اسماعيل البكر محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، وكانت أمة الاسلام أمته خير أمة أخرجت للناس. وكان دينه خاتم الأديان، فهو دين الفطرة، ودين الحساب وكأن البشرية قد هيئت منذ وجدت لهذا الدين الدائم ولرسول الهدى إلى البشرية كافة.

فأمة الاسلام هي صفوة الخلق جميعا عبر تدرجهم العقلي والنفسي، وشريعة محمد ﷺ هي خلاصة شرائع السماء إلى الأرض، وبها استقرت البشرية على الأرض من خلال التدرج في نظم الحياة.

وإن شرائع آدم ونوح وإدريس من متقدمي الانبياء والرسل عليهم السلام، ليست كشرائع ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في نظام الحياة الاجتماعية والأحكام الفرعية العملية. وشرائع ابراهيم وموسى وعيسى من الأنبياء والرسل الأقربين في عصور التاريخ ليست كشريعة خاتم النبيين محمد ﷺ التي ختم الله بها الشرائع السماوية، تعظيماً لقدر الانسانية التي تعبد الله في جميع عصورها المستقبلة وأوطانها المتباعدة، تقديرا لما وصلت إليه البشرية من

---

(٤٨) سورة العنكبوت: آية ٢٨ ـ ٣٥.

(٤٩) سورة هود: آية ٨٢ ـ ٨٣.

سمو في التفكير يفتح أمامها آفاق التقدم الحضاري، وما بلغته من رشد العقل وإشراق القلب بنور المعرفة وضياء العلم. فجاءت الشريعة الخاتمة جامعة لجميع ما تحتاج إليه البشرية من نظم تكفل لها في مستقبلها الاستقرار في ظل ظليل من العدل والإحسان والتراحم والتعاون والتواسي بين أفراد المجتمع، لتشق طريقها نحو التقدم إلى ذروة ما تستطيعه الطاقة البشرية من الرقي والرفعة [٥٠]. ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ [٥١].

---

(٥٠) الموسوعة الثقافية: ص ٢٢٠.

(٥١) سورة آل عمران: آية ١٩.

إبراهيم أبو الأنبياء

قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي الأمي، والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (١).

كان ابراهيم عليه السلام على رأس مرحلة من مراحل تدرج البشرية في طريق المعرفة والإدراك بغية الإيمان بالخالق الواحد سبحانه لا إله الا هو إيمانا غيبيا لا يجادل فيه.

والأنبياء الذين سبقوا ابراهيم جاءوا بالأصل الإلهي الواحد الذي أرسلوا لأجله إلى أقوامهم. كما أن أقواماً آخرين عرفوا التوحيد دون نبوة أو رسالة، إنه التوحيد الذي يستره الكهان خلف أسوار معابدهم وكأنهم مالكو زمام ذلك الأمر وأوصياؤه.

ولكن هذا لا يعدو أن يكون بعض ما آمنوا به حين اعتبروا ملوكهم من الأرباب التي تتصرف بأرواح الناس في حياتهم وبعد مماتهم.

أضف إلى هذا أن التوحيد كان بعض المراسم التي يصدرها الملك، كما فعل أخناتون حين جهر بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله، فأصدر ذلك في مرسوم، ولم تلبث أن بطلت أيضاً بمراسيم.

وهذا التوحيد الذي كان من اختصاص الأحبار والحكماء هو أن للكون خالقاً فحسب، دون أن يزيدوا على ذلك شيئاً. مما ينفي عن الإله التصرف في الكون والناس والأمر والنهي والمرجع والمآب والحساب والثواب والعقاب.

التوحيد الذي جاء به إبراهيم هو رسالة لا تؤدى ولا يفرغ منها في عمر جيل أو عمر رجل، وإنما هي نبوة بعدها نبوات.

والتوحيد الذي جاء به إبراهيم هو التوحيد الذي يعبد الخالق سبحانه من خلاله عبادة

(١) سورة آل عمران: آية ٦٥ - ٦٧.

تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الانسان.

ونبوة إبراهيم في هذه المرحلة من البشرية كانت في ميزان العقل وضرورة الزمن وحكم التاريخ نبوة لا بد أن تتلوها نبوات، لأنها أمانة موروثة في أعقابه لا تنقطع في جيل. وهي أمانة ستلتقي عندها السماء مع الأرض في كتب محررة مكتوبة مصدرها الخالق سبحانه وسبيلها وحي الله.

ومن هذا المصدر الواحد للنبوة، وتوارثها في الأعقاب يقف أبراهيم أباً لهؤلاء الأنبياء من أعقابه، إنه أبو اسماعيل واسحق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم (٢).

وانطلق ذلك الركب العظيم من سلالة ابراهيم إلى الله، وكانت وصية ابراهيم إلى ذلك الركب العظيم لا تقبل المجادلة فيما يجب أن تكون عليه دعوته على مر الأزمان، منتقلة من جيل إلى جيل، ومن زمان إلى زمان عبر عهود طويلة عريضة من الإيمان بالخالق الواحد، حتى تصل إلى الأمين الصادق الذي يتسلمها ويؤديها كما يريد جده ابراهيم.

﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون... وقالوا: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا. قل: بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق. فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ (٣).

فما جاء به إبراهيم هو الدين الموحد، وهو أمانة السماء إلى الأرض. ولا يتولى الأمانة إلا أمين، يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا. واتخذ الله ابراهيم خليلا﴾ (٤).

وهذا الدين الموحد يعني في خصوصه أمرين:

الأول: معرفة الله تعالى بنعوت الكمال الثابتة لذاته العلية بالبراهين اليقينية وإخلاص

---

(٢) ابراهيم أبو الانبياء: ١٠.

(٣) سورة البقرة: آية ١٣٢ - ١٣٥ و١٣٧.

(٤) سورة النساء: آية ١٢٥.

العبادة له سبحانه إخلاصاً يؤدي إلى الاستسلام المطلق لأحكامه التعبدية، ويبعث على الخضوع لمشيئته سبحانه في كل ما أمر به من فضائل خلقية ترتقي بالانسان، وفيما نهى عنه من أصول الرذائل الاجتماعية وأركان المعاصي والمنكرات.

وهذا يقتضي الإيمان بمن يصطفيهم الله تعالى من الأنبياء والرسل لتبليغ وحيه ورسالاته وأحكام دينه الذي ارتضى لعباده، دون تفريق بينهم في التصديق بنبواتهم والإيمان برسالاتهم، وتفصيلا في حق من خصه الله بالذكر منهم في كتبه السماوية.

ذلك هو المعنى الخاص للدين الموحد الذي لا يقع فيه اختلاف بين شريعة وشريعة وملّة وملّة؛ لأنه دعوة جميع الأنبياء والمرسلين. وهذا هو المراد بالإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والرسل، لأنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه دينا ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [٥]. ﴿ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [٦].

الثاني: إقامة نظام إصلاحي يقوم على دعائم العدل والإحسان في تحديد علائق الناس أفراداً وجماعات بعضهم ببعض مع مراعاة ما تقتضيه الحياة الاجتماعية في عصر كل رسالة سماوية من منهج خاص في الإصلاح يتلاءم مع طبيعة البيئة وأحوال المجتمع.

هذا المعنى للدين الموحد هو الذي وصى به إبراهيم بنيه ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين﴾ [٧].

تلك هي وصية إبراهيم، بل هي تقرير الخالق سبحانه إلى أنبيائه ورسله من بعده، حتى تتم رسالات السماء على الأرض ويستقر دينه الذي ارتضاه لعباده.

وهذا يتضح من خلال سيرة إبراهيم عليه السلام، التي نستقيها من القرآن الكريم، لأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، رغم ما يتقول به المتقولون، ويثيره المتشككون ممن أنكروا كتب السماء، وكفروا بالرسل والأنبياء، فمنهم من أنكر وجود إبراهيم دون أن يستندوا في ذلك على أي أساس عقلي وعلمي غير أساس الإنكار والجحود.

بل إن هناك فريقاً أنكر علاقة ابراهيم بمكة والبيت الحرام، وذلك يعتمد فيما يعتمد على التوراة والاسرائيليات التي أغفلت تماما هذا الجانب من حياة ابراهيم واسماعيل، ظانين أنهم ينفون عن اسماعيل حقوق الابن البكر في ميراث النبوة الابراهيمي، وهو انتقال ارث النبوة

---

(٥) سورة آل عمران: آية ١٩.

(٦) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٧) سورة البقرة: آية ١٣٠ - ١٣١.

من فرع اسحق إلى فرع اسماعيل، واختتام رسالات السماء بمحمد ﷺ.

وأمضي مع قصة ابراهيم في القرآن الكريم ثم في التوراة للوصول من خلالها إلى نقطة الفداء والتركيز عليها، وهي التي بني عليها الفداء الذي يحمى به الدين، وترفع به راية التوحيد، من خلال التضحية بالروح والنفس والدم طواعية ورضى واستسلاماً في سبيل الدفاع عن العقيدة.

وفي سيرة ابراهيم عليه السلام تتأكد العقيدة الحقة التي تغلغلت في نفسه، واستولت على فكره، واستغرقت كل خطوات قلبه، وملكت عليه مشاعره ووجدانه، فهو يستهين بالنار يلقى فيها، ويتقبل كل عذاب دون أن يتراجع أو يتقهقر. وقد كانت ثورته على الأصنام كلامية وعملية، وكان دفاعه عن عقيدته قوياً دون أن يهاب سطوة ملك، أو تجمهر جماهير، وهو مع هذا كله كان رقيق القلب، يحاول أن يستغفر لأبيه مع علمه بضلاله [8].

ويقص القرآن الكريم هذه السيرة العطرة بما يتناسب مع مقام صاحبها خليل الرحمان عليه السلام. يقول سبحانه: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [9].

الآيات الكريمة تحدد من حياة ابراهيم موقفه من أبيه ومما كان يصنع لقومه من أصنام، وما يهمني هنا ليس التفصيل [10] الذي يحكي عن ابراهيم كل سيرته، ولكنه الجانب الذي رزق فيه بفرعي النبوة، باسماعيل ثم اسحق، وذلك قد هيء له بالهجرة من موطنه فدان أرام. والهجرة رفيق الأنبياء. وهجرتهم جميعاً كانت في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله.

لقد هاجر ابراهيم عن موطنه حين حطم أصنام أبيه وتبرأ منه، وكانت هجرته إلى الأردن، وهناك افترق عن ابن أخيه لوط ليتقاسما البرية نظراً لكثرة ماشيتهما وضيق الأرض بها كلها.

---

(٨) محمد جاد المولى: قصص القرآن: ص ٤٩ ـ ٥١.

(٩) سورة الشعراء: آية ٦٩ ـ ٨٩.

(١٠) وردت قصة ابراهيم عليه السلام مفصلة في كتابي (مثل الذين حملوا التوراة).

وعندما ضاقت سبل العيش بإبراهيم في الشام رحل إلى مصر بصحبة زوجه سارة. وكان ملك مصر آنذاك من العماليق الهكسوس، وكانت سارة ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وأغراه بجمالها، وزين له حسنها، وحبب إليه الاستحواذ عليها. فصارت هذه المقالة رغبة في نفسه، فدعا ابراهيم إليه وسأله عما يربطهما من سبب، وما يصل بينهما من قرابة. ففطن إبراهيم إلى مأربه، وعرف مقصده، وخاف الله إن أخبره أنها زوجته بيت له الشر، وعمل على الإيقاع به لتخلص له من دونه، وليستأثر بها من بعده. فقال ابراهيم له: هي أختي.

فهم الملك أنها ليست ذات بعل، فأمر أن يذهبوا بها إلى قصره ويسوقوها إلى مخدعه. ورجع إبراهيم إلى زوجته، فأخبرها بقصته، وطلب إليها أن تكون مصدقة لقوله، مؤكدة لخبره، ثم أسلمها لعين الله ترعاها وتحفظها.

أدخلت سارة إلى قصر الملك، وزينت بفاخر الثياب، وثمين الحلي، ولكنها لم تعبأ بهذا الزخرف البراق، ولم ينسها ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها.

ولما أقبل الملك عليها ورأى ما بها من لوعة وأسى، حاول أن يخفف من حزنها ويؤنس وحشتها. وأحس الملك اضطراباً في نفسه، ووجيبا في قلبه، فابتعد عنها حتى تمالك قواه، وأراد أن يعيد الكرة فعاد اضطرابه وخوفه. فتركها وآوى إلى فراشه واستسلم للنوم، ورأى في نومه رؤيا استبان بها الحق، وعرف أن لها زوجاً، وأحس بلزوم أن يعيدها له دون أن يمسها بسوء. فلما أفاق من نومه أطلق سراحها، ووهبها هاجر جارية لها كما وهبها بعض المال والماشية.

لقد كان تفريق ابراهيم عن زوجه محنة جديدة امتحن بها إبراهيم عليه السلام، ولكن الله الذي عصمه من حر النار في موطنه عصمه من وصمة العار في مصر. وترك ابراهيم وسارة وهاجر مصر إلى فلسطين أرض كنعان.

وإن في إهداء ملك مصر هاجر إلى سارة تدبيراً من الله سبحانه وحكمة لا تخفى على ذي عقل حين يتأملها ويتدبرها فقد كانت سارة عقيماً، كما أنها بلغت من الكبر عتيا، وكان يحزنها أن يتطلع زوجها إلى النسل دون أن تستطيع تحقيق ذلك له. فأشارت عليه ان يدخل بأمته هاجر، وتمنت أن تنجب هاجر له طفلا تقر به عين أبيه، وتنشرح له نفس سارة، فانصاع ابراهيم لرأيها ودخل بهاجر.

أنجبت هاجر غلاماً زكياً هو اسماعيل، فانتعشت له نفس إبراهيم، ولعل سارة قد شاركت إبراهيم سروره حيناً، ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت إلى قلبها. فأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام، ولا تحتمل رؤية هاجر.

وطلبت سارة من ابراهيم أن يبعد عنها الغلام وأمه، بحيث لا يصل صوتهما إلى سمعها، ولا تقع عليهما عينها.

أذعن ابراهيم لإرادتها، ولعل الله قد أوحى إليه أن يطيع أمرها إتماما لحكمته في خلقه، والله أعلم حيث يضع رسالته. وركب دابته واصطحب الغلام وأمه، وسار وطال به السير، حتى وقف عند مكان البيت الحرام، فأنزل هاجر وابنها في هذا المكان البلقع، وتركهما في تلك البقعة الجرداء، وترك لهما كما جاء في رواية البخاري جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء. ثم اتجه ابراهيم عائدا، فنادته هاجر: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي؛ فلم يلتفت لها ابراهيم خشية أن يتألم ويضعف لمرأى زوجه وابنه إنفاذاً لحكمة الله سبحانه فيهما. فسألته آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لن يضيعنا. وكان اسماعيل وأمه بذرة العمران الذي شمل تلك المنطقة.

ولم ينس ابراهيم ابنه، فكان يفد إليه لماما، ويزوره من حين إلى حين. فلما شب اسماعيل وأطاق السعي والعمل، رأى ابراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده، ورؤيا الأنبياء وحي مباشر. وارتحل حتى لقي ابنه، ليمضي فيه حكم الله.

وأمضي مع القرآن الكريم في تصوير ذلك الموقف الفدائي فيقول سبحانه ﴿فلما بلغ معه السعي قال: يا بني إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى. قال: يا أبت، افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين. سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين، وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ [١١].

فاسماعيل هو الذبيح وهو الفداء، من خلال ما قصه القرآن الكريم، وبه ينتقض اختلاق توراة كهان اسرائيل الذين جعلوا من اسحق ذبيح أبيه ابراهيم، ظناً منهم أن ذلك يحرم اسماعيل حقه في إرث أبيه ابراهيم الذي جعل الله سبحانه وتعالى فيه النبوة، ثم في ابنيه اسماعيل واسحق، فكانت بداية سلسلة النبوة في فرع اسحق، وكان ختامها بل مسك ختامها في فرع اسماعيل في شخص محمد بن عبد الله الذي بشرت به توراتهم فموهوه، وزيفوه وحرّفوه.

لقد كانت انطلاقة الفداء العظيمة متمثلة في اسماعيل وذلك ينبىء بالشجرة العظيمة، بل

---

(١١) سورة الصافات: آية ١٠٢ ـ ١١٣.

الدوحة الخضراء التي تنمو وتعظم من أصل تلك النواة التي زرعها ابراهيم واسماعيل بإرادة الله سبحانه، تلك هي شجرة الجهاد والفداء والتضحية بالنفس والروح والدم حتى تعلو كلمة الله، وحتى يحصن دين الله وتثبت دعائمه.

ويتأكد هذا الفداء من خلال الدور الذي أنيط به اسماعيل مع أبيه ابراهيم في إقامة القواعد من البيت، وبناء بيت الله الحرام، بل إن بناء البيت كان امتداداً وتكملة لما هيء له اسماعيل من التضحية بروحه عن طيب خاطر ورضى ما دام هذا أمر الله إلى أبيه ابراهيم، فإن بيت الله سيكون مصلى ومحج الأمة التي ستدين بدين ابراهيم واسماعيل، وهي أمة كان الجهاد من أعظم ما اكرمها الله به، وهو عنوان عزة الأمة ومجدها ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ (١٢).

إن ما أسسه إبراهيم عليه السلام هو ميراث من يحمي هذا الأساس بدمائه، وهو حق لمن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، حتى تمضي الدعوة الحنفية في طريقها المرسوم، وحتى يتأكد حكم الله سبحانه في الرسالة الإبراهيمية. وهي رسالة لا تحمى إلا بالجهاد والمجاهدة، والفداء والتضحية بالروح والدماء.

وعند هذه النقطة من حياة اسماعيل أقف وهي نقطة انطلاق متجددة أبد الدهر، ومنها أعود إلى ابراهيم عليه السلام وزوجته سارة والبشرى لهما باسحق.

فقد ولد اسحق لأبيه ابراهيم وأمه سارة بعد ولادة اسماعيل بثلاثة عشر عاماً. وقد بشرته الملائكة به حين جاءته الملائكة تعلمه أن قوم لوط هالكون.

يقول سبحانه في هذه البشرى بإسحق ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً. قال سلام. فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب. قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب. قالوا: أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط. إن ابراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء امر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ (١٣).

ولن أمضي مع اسحق عليه السلام، لأن القرآن قد جزم في أمره مع أبيه ابراهيم، وإن

---

(١٢) سورة محمد: آية ٣١.

(١٣) سورة هود: آية ٦٩ ـ ٧٦.

كان القرآن الكريم قد فصل جوانب كثيرة من حياة ابراهيم مع أخيه اسماعيل على خلاف ما جاء في التوراة التي أغفلت كل جانب يتعلق بحياة ابراهيم مع اسماعيل، بخاصة فيما يتعلق بالتمهيد والتأسيس للدين الخالد الباقي؛ فأغفلت رحلته الأولى إلى مكة مع هاجر واسماعيل، كما طمست قصة الفداء، وجعلت اسحق هو الذبيح إلى غير ذلك مما يدخل في نطاق التزييف والتحريف الذي داخل التوراة كما ذكر القرآن الكريم.

وليست التوراة هي وحدها التي أغفلت رحلة ابراهيم المكية، فإن المؤرخين الغربيين قد شايعوها في هذا، وقد وضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين، وإنكار دين، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون [١٤].

إن الغرابة كلها ـ كما يقول العقاد ـ هي طواف ابراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب، بل مع تجدد الأسباب، التي تدعوه إلى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع.

ولم يكن لابراهيم وطن عند بيت المقدس سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى. فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد عند بيت المقدس مدفنا لزوجه سارة فاشتراه من بعض الحيثيين.

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحبار إيل عليون، وكان ابراهيم يقدم العشر أحيانا إلى أولئك الأحبار.

وكان لا بد لمن يرعون ماشيتهم من مكان يسيمون فيه إبلهم وماشيتهم بعيداً عن المزاحمة والمنازعة، وهكذا كان ابراهيم يعمل في أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه في سفر التكوين، فلا يزال متجهاً إلى الجنوب.

وهناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحي إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب، حيث يستطيع أن يبتني لعبادة الله هيكلا غير الهياكل التي يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين. فقد بدا له أن إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون في كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره.

ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء.

فإن كان هذا الخاطر لم يخطر قط في نفس ابراهيم، فذلك هو العجيب الذي يستوقف النظر في سيرة ابراهيم، ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به إلى الجنوب ثم إلى الجنوب إذ لم

---

(١٤) العقاد ـ ابراهيم ابو الأنبياء، ص ١٩١.

يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود.

وواضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود أن اللهج ببيت المقدس إنما جاء متأخراً بعد عصر ابراهيم وعصر موسى بزمن طويل، وأنه جاء مع عصر المملكة الاسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود.

فبعد موسى بعدة قرون بقيت أورشليم في أيدي اليبوسيين، واستولى بنو بنيامين على جيرتها، ولكنهم لم يطردوا منها اليبوسيين.

ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها. وعاد اليبوسيون فجددوا بناءها وسكنوها إلى أيام الملك شاؤول. ثم استولى عليها داود فاتخذها عاصمة. وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور.

وبعد هذا جاء ملك من ذرية ابراهيم هو « يهواش » ملك اسرائيل، فهدم سور أورشليم... وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك ورجع إلى السامرة، ثم اضطجع « يهواش » مع آبائه ـ أي مات مرضيا عنه.

لم يكن لأورشليم إذاً هذا الشأن في حياة ابراهيم ولا في حياة موسى، ولم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بني اسرائيل حتى في عهد داود. أما الجنوب المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة إلى أيام أرميا وما بعدها. وكانت كلمة تيمان مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة، وهي تقابل كلمة يمن في اللغة العربية بجميع معانيها ومنها الإشارة إلى الجنوب، فقد جاء في سفر التثنية على لسان موسى: « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير » وفي سفر حبقوق « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران ». ويقول أرميا في مراثيه « ألا حكمة بعد في تيمان، هل بادت المشورة من الفهماء ».

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل: كيف يكون هذا الجنوب موصداً في وجه إبراهيم؛ وكيف يطوف الأقطار جميعاً ولا ينفتح له الباب الذي لا موصد عليه؟ إن كان أحد الطرفين مفتوحاً أمامه فليس هو طريق بيت المقدس بل طريق الحجاز.

وفي هذا الطريق سلك الأنبياء، وذكرت المصادر الاسرائيلية منهم من بلغ مدين، وذكرت منهم من لعله أقام وراءها من البلادِ العربية.. ولم تذكر المصادر الاسرائيلية صالحاً ولا هودا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء.

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية، وليس هو الذكر الذي توحيه البداهة، ويوحيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية.

ونقول إن السكوت موضع تساؤل، وهو في الحقيقة غني عن التساؤل، لأنه معلوم السبب والغاية، وحسبنا من التساؤل أن ينتهي بنا إلى سبب معلوم وغاية مرسومة.

إنما العجب من ذوي الدعوى باسم البحث العلمي أن ينتظروا الخبر ممن يقضي على دعواهم كلها إذا ردوه، ويثبت دعواهم كلها إذا نفوه.

ومن ذا الذي يكتم مسيرة إبراهيم إلى مكة إن لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها بإثبات ذلك المسير؟

ها هنا رواية عن نشأة الكعبة في الحجاز على عهد إبراهيم، فمن ينكرها فعليه أن يثق أولاً من أسباب إنكارها وعليه بعد ذلك أن يذكر ما هو أصح في التاريخ وأولى بالقبول.

ولو فرض أن إبراهيم لم يصل إلى الحجاز، لأن المصادر الاسرائيلية لم تذكر رحلته إلى الحجاز ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم.

ولو فرض أن هذا سبب كاف لنفي الرحلة من الوجهة العلمية، فهذه الكعبة قائمة تحتاج إلى بان يبنيها. فمن الذي بناها؟

إن روايات هؤلاء القوم ـ قوم مكة في الجاهلية ـ تذكر لنا أن مكة عمرت قديماً بأناس من اليمن، ثم أناس من النبط. وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات. فإن قام مقيم في مكة فسبيله أن يأتي إلى وسط الحجاز من الطرفين، وهما طرف اليمن في الجنوب وطرف النبط في الشمال.

لكن أهل اليمن ـ في اليمن ـ لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفي على شأنها بين الشعوب العربية. وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا إلى الكعبة نظرتهم إلى منافس خطر، فهموا بهدمها وتحويل الحجاج إلى معبد يقوم عند العرب مقامها.

ومن النظر العلمي أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد، وأن يلتفت إلى كل باب من هذه الأبواب، لأن الالتفات إليها واجب عليه، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد، يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية، ثم يهمله ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال.

أما الأمر الذي لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع فهو القول بأن إبراهيم لم يذهب إلى الحجاز لأن المصادر الاسرائيلية خلو من هذا الخبر، ثم يكتفي القائل بقوله، فلا يضع أمامنا بديلا منه أولى بالأخذ به.

إن إبراهيم صاحب دعوة دينية، وليس في المصادر الاسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئاً لنشر دعوته، وكل ما ورد عنه في هذا الكتاب أنه أقام مذبحاً في كل منزل من منازل

الطريق، ثم ترك البلاد جميعا في رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين ب« إيل عليون » قبل وفوده إلى كنعان.

فأقرب ما يرد على الخاطر أن إبراهيم قد ذهب إلى حيث يصنع شيئاً باقياً في سبيل دعوته، ولا مذهب له إذن إلى غير الحجاز. وهذه هي تتمة السيرة التي لا بد منها في حياة نبي ينتمي إليه سائر الأنبياء، وإلا كانت نسبة الدعوة إليه من أعجب الأمور.

وقد جاء في المأثورات جميعاً أن إبراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم في مدن فلسطين الجنوبية، وبقيت آثار البتراء (سلع) إلى اليوم، وفيها أنصاب من هذه الرجوم في أماكن العبادة، حفظوها تذكيراً لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقاباً للمذنبين.

ولم يذكر مصدر من المصادر أن إبراهيم كان يحمل معه حجراً من هذه الأحجار، ولكنه إذا تعمد أن يقيم مذبحاً باقياً على طريقته، فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة.

وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذي بني فيها لأن البك والبكة كانا يطلقان على البيت في اللغة السامية الأولى، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل. وربما كانت من مادة القربان في السبئية والحبشية لأنهم كانوا يطلقون المقربة على المحراب المقدس. وبطليموس الجغرافي قد ذكرها باسم مكربة Macaraba نقلا عن أهل اليمن. ولكن التصحيف هنا بعيد، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها إلا إذا اصبحت محجة لقصادها من المؤمنين بكعبتها.

وفي مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز اهمالـه عند البحث في أصل بنائها؛ فإنها قد بنيت مرات كما هو معلوم. وكان البناة في كل مرة يحافظون عليها، وقد تعذّر عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة، وخروجه منها تارة أخرى. ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء في أكثر الروايات.

هذه القرائن المتجمعة تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة ابراهيم إلى الحجاز، وأنها هي وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية.

وقد جاء الإسلام مثبتاً رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول، لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض. ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى ابراهيم وأنكر العرب أنهم أبناء ابراهيم. وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع [١٥].

---

(١٥) ابراهيم أبو الأنبياء: ص ١٩١ - ١٩٦.

وعودة إلى إبراهيم واسماعيل واسحق في التوراة، بعد أن وضحت الحلقة المفقودة في التوراة، والتي تعمدت التوراة إهمالها أو إغفالها حول الرحلة الابراهيمية المكية.

لقد أفاض سفر التكوين في سيرة ابراهيم عليه السلام، فقد ولد في أور الكلدانيين، وهو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعوبن فالج بن عابر بن شائح بن ارفكشاد بن سام ابن نوح. فقد ولد تارح أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطا.

« واتخذ ابرام وناحور لأنفسهما امرأتين. اسم امرأة أبرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران »(١٦). وكانت سارة بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء على لسان ابراهيم « وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست أبنة أمي فصارت لي زوجة »(١٧).

« وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة ابرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض حاران وأقاموا هناك »(١٨).

وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فاجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض »(١٩).

وخرج ابرام كما قال له الرب وأخذ معه « ساراي امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض ». وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب. ثم ارتحل ابرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب »(٢٠).

وحدث جوع في الأرض، فكان لا بد لابراهيم من الهجرة إلى أرض خصبة، وكانت مصر وجهته، فقد تميزت آنذاك بالاستقرار والازدهار والرخاء في ظل المملكة الموحدة القوية تحت حكم السلالة الثانية عشرة في عهد الفرعون « سنوسرت الثاني » (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق.م). وسنوسرت الثالث (١٨٧٢ - ١٨٤٣ ق.م). فقد تمكنت مصر في هذا الدور من

---

(١٦) تكوين ١١ : ٢٩.

(١٧) تكوين ٢٠ : ١٢.

(١٨) تكوين ١١ : ٢٩ - ٣٣.

(١٩) تكوين ١٢ : ١ - ٣.

(٢٠) تكوين ١٢ : ٥ - ٩.

بسط نفوذها السياسي على سورية، ولا سيما في البلاد الساحلية. كما فرضت سيطرتها على بلاد كنعان في أعقاب حملة قام بها سنوسرت الثالث حوالى سنة ١٨٥٠ ق. م.

وقد توطدت علاقات تجارية قوية بين مصر والأقطار المجاورة. فكانت مصر تجلب التوابل والبهار وما إلى ذلك من المواد العطرية والصمغية التي كانوا يستعملونها في معابدهم وفي التحنيط من جنوب جزيرة العرب.

كما كانت تجلب الذهب والتوابل من السودان، والنحاس الأحمر وحجر الزبرجد والفيروز من مناجم طور سيناء، والفضة من طوروس، وأخشاب الأرز من لبنان.

وكانت بلاد كنعان آنذاك حلقة وصل بين مصر وجميع هذه الأقطار. واحتلت مركزاً مهماً من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، وذلك باعتبارها ممراً دوليا على الطريق التجاري الرئيسي للعالم القديم.

لذلك فإن ذهاب ابراهيم الخليل إلى مصر كان أمراً طبيعياً نظراً للروابط المتينة، والصلات الوثيقة التي كانت تربط الكنعانيين بمصر. فقد كانت مصر تشكل الموئل الطبيعي الذي يتجه إليه الكنعانيون في حالات المحل والقحط للاكتيال منها [٢١].

« فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام وقال له: ما هذا الذي صنعت بي. لماذا لم تخبرني أنها امرأتك. لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي. والآن هوذا امرأتك. خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له » [٢٢].

وعاد ابرام من مصر إلى بيت إيل إلى المكان الذي كانت فيه خيمته بين بيت إيل

---

(٢١) د. أحمد سوسة: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ص٥٢٢، سنة ١٩٨١، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية ـ سلسلة دراسات ٢٤٣.

(٢٢) تكوين ١٢: ١ ـ ١٩.

وعاي »(٢٣).. ونقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في صرون وبنى هناك مذبحاً للرب »(٢٤).

ويشاء الرب ألا يحرم ابراهيم من الولد، فسارة لم تكن قد ولدت لأبرام، وكانت لها جارية مصر اسمها هاجر فقالت ساراي لأبرام هو ذا الرب قد امسكني عن الولادة. ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي. فاخذت ساراي امرأة ابرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له. فدخل على هاجر فحبلت. ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لأبرام ظلمي عليك. أنا دفعت جاريتي إلى حضنك. فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينها. يقضي الرب بيني وبينك. فقال أبرام لساراي هو ذا جاريتك في يدك. افعلي بها ما يحسن في عينيك فأذلتها ساراي فهربت من وجهها.

فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك.. فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي، لأنها قالت أها هنا أيضاً رأيت بعد رؤية. لذلك دعيت البئر بئر لَحَيْ رئي. ها هي بين قادش وبارد.

فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعا ابرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر اسماعيل. وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل لأبرام »(٢٥).

وكان لأبرام تسع وتسعون سنة حين بشر بإسحق وفرض عليه الختان سنة لمن معه ولمن بعده، وأصبح اسمه ابراهيم كما اصبح اسم زوجته سارة.

« وظهر الرب لإبراهيم عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار. ورفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم

---

(٢٣) تكوين ١٣ : ١.

(٢٤) تكوين ١٣ : ١٨.

(٢٥) تكوين ح ١٦.

ثم تجتازون لأنكم مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة. وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذا. اعجني واصنعي خبز ملة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصاً وجيداً، وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم. وإذا كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا» [٢٦]. وقالوا له: أين سارة امرأتك فقال ها هي في الخيمة. فقال إني ارجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام. وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلة، أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. هل يستحيل على الرب شيء. في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة، ويكون لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلة لم أضحك لأنها خافت فقال، لا بل ضحكت» [٢٧].

وافتقد الرب سارة كما قال، وفعل الرب لسارة كما تكلم. فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنا في شيخوخته في الوقت الذي تكلم الله عنه. ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود الذي ولدته له سارة اسحق. وختن ابراهيم ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. وكان ابراهيم ابن مئة سنة حين ولد له اسحق ابنه. وقالت سارة قد صنع إليّ الله ضحكاً. كل من يسمع يضحك لي وقالت من قال لابراهيم سارة ترضع بنين حتى ولدت ابنا في شيخوخته. فكبر الولد وفطم وصنع ابراهيم وليمة عظيمة يوم فطام اسحق.

ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لابراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق. فقبح الكلام جدا في عيني ابراهيم لسبب ابنه. فقال الله لابراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة، اسمع لقولها لأنه بإسحق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك» [٢٨].

وتأتي رحلة هاجر وابنها اسماعيل في صحبة ابراهيم، وهي الرحلة التي أهملتها التوراة. ولعل قول سارة ما يفسر سبب ذلك حيث قالت لابراهيم حين رأت اسماعيل صبياً يافعاً يمزح «اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق». وليس هذا

---

(٢٦) إن هذا يخالف ما جاء في القرآن الكريم فإن الملائكة لا تأكل ولا تتغذى ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ سورة هود: آية ٧٠.

(٢٧) تكوين ١٨: ١ - ١٥.

(٢٨) تكوين: ٢١: ١ - ١٣.

الارث غير إرث النبوة الذي عرضت له التوراة مراراً عرضاً مجازياً. وإن هذا الارث النبوي في اسماعيل هو الذي هيأ للأمة التي ذكرتها التوراة، فقد قال الله لابراهيم « وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك ».

ومكة مرتَحَلُ ابراهيم وهاجر واسماعيل هي منطلق الأمة التي بشر الله بها ابراهيم من ابنه اسماعيل ولكن التوراة لم تشأ لابراهيم ان يصل إلى مكة كما ذكر القرآن الكريم. وحرفت في وقائع رحلته وزيفتها، واختلقت له ولزوجه ولابنه اسماعيل رحلة أخرى وبئرا أخرى بعيداً كل البعد عما عرفه الواقع ويعرفه من هذه الرحلة المكية التي لم يعد من مجال للشك فيها أو الزيف. وقالت التوراة: « فبكر ابراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابلهُ ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام. قومي احملي الغلام. وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران واخذت له أمه زوجة من أرض مصر » (٢٩).

وأصل إلى النقطة التي مهدت للوصول إليها طويلا بسيرة إبراهيم، وشأني منها هنا هو نقطة الذبح او الفداء.

لقد جعلت التوراة اسحق هو الذبيح مع ما في روايتها من تناقض ينفى عنه الذبح أو التضحية، وأوضحها ما تذكره التوراة من أن الأمر كان إلى ابراهيم بذبح ابنه وحيده، وذلك يعني بوضوح أن اسماعيل هو الابن الوحيد آنذاك، فقد بشر ابراهيم باسحق بعد أن أصبح اسماعيل فتى يافعاً. فاسماعيل هو الابن الوحيد في أثناء واقعة الذبح، والقرآن الكريم قد ذكر ذلك، وأحاديث الرسول ﷺ تفصله وتؤكده.

والذبح أو التضحية والفداء إن هو إلا منطلق فكرة الجهاد وأصلها، مما يعبر عن الطاعة لله والخضوع له والانقياد والاستسلام المطلق، وذلك كله يتجسد في تقديم المسلم نفسه في سبيل الله طواعية واختيارا شهيداً حياً خالداً.

والتضحية بالنفس هي قمة أخلاق المسلم، مع ما يصدر عنها من أخلاق تتسع وتفيض

---

(٢٩) تكوين ٢١: ١٤.

حتى تشمل الانسانية كلها رحمة ومودة ومحبة للناس أجمعين. وذلك هو خلق الاسلام في مفهوم التضحية بالروح والنفس وبهذا فقط ترخص الحياة.

وذلك وحده يضيء جوانب الموقف كاملا دون ظلال، فقد امتحن ابراهيم بابنه الوحيد اسماعيل، وضحى به راضيا مختارا في سبيل الله، خضوعا له واستسلاماً وطاعة فحين يصل الأمر بالأب إلى التضحية بفلذة كبده فذلك يعني قمة الايمان.

كما أن في طاعة اسماعيل الابن الوحيد لأبيه معلماً مثالياً من معالم استرخاص المسلم كل شيء في سبيل البذل في سبيل الله، وإن في طاعة اسماعيل لأبيه طاعة لله، والذي جعل للمجاهد في سبيله والمضحي بروحه ودمه ثواباً وجزاء يفوق ما قدم المجاهد، فقد جعل له الحياة الخالدة ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾، وجعل له فيما جعل أعلى عليين في سمائه.

وكان من اسماعيل ذبيح آخر فيما بعد، هو عبد الله بن عبد المطلب، وبه أكدت حكمة البذل والفداء والتضحية بالنفس والنفيس وكان رسول الله ص بهذا ابن الذبيحين كما ورد في الحديث. وبه ﷺ فرض الجهاد، وقمته بذل النفس إعلاء لكلمة الله وإعزازا لدين الله. وكان فرض الجهاد ابتلاء واختباراً ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ (٣٠).

وليس أعظم من ابراهيم صابراً، حين ابتلاه ربه فكان نعم المبتلين، وكان أعظم المؤمنين ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ (٣١).

ولن أمضي في سيرة ابراهيم مع اسماعيل وإسحق. فقد انفصل الاثنان فرعين وأمتين، منذ رحل ابراهيم باسماعيل وبأمه من أرض كنعان إلى مكة.

وكانت فلسطين أرض كنعان مهد رسالات السماء من نسل اسحق بن ابراهيم، وبه بُدئت النبوة الخالدة، ولكنها البداية التي تنتظر خاتمتها. وكانت خاتمة النبوات في أرض مكة وفي نسل اسماعيل، الفرع الذي اخضر بعد يبس - كما تذكر التوراة نفسها -

وكان البيت الحرام منطلق الدعوة الخاتمة وقلبها النابض أبداً. لقد ختمت ما سبقها من دعوات، وانهت ما تقدمها من رسالات، وكانت رسالة محمد ﷺ إنسانية شاملة، وكان دينه الدين الذي لا دين سواه.

وهذا الدين الإسلام لا يستقر على الأرض كما أراده الله إلا ببذل الروح في سبيله، وكان

---

(٣٠) سورة محمد: آية ٣١.

(٣١) سورة النجم: آية ٣٧.

اسماعيل الباذل الاول لروحه، ومنه كان محمد ﷺ وهو قمة الجهاد وقدوة المجاهدين في سبيل الله و ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ (٣٢).

(٣٢) سورة التوبة: آية ٣٣.

موسى في القرآن الكريم

نبي من أنبياء الله ورسول من رسله آتاه الله الكتاب وجعله هدى لبني اسرائيل. وذلك يجزم بكون موسى من بني اسرائيل ومرسلاً إليهم خلافاً لما يعتقده بعض الدارسين من كون موسى مصرياً. فإن تاريخ الانبياء جميعاً والرسل صادر عن قوله سبحانه ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ [(١)].

فكل نبي وكل رسول قد أرسل من وسط قومه الذين يعرف عنهم ما يعرفه عن نفسه، ويقف على أمورهم مثلما يقف على امور نفسه، ولكنه تميز من بينهم بما هيأه الله عليه من عصمة وخلق وقوة نفسية هي عدته في دعوته، من خلال لسانه الذي هو لسان قومه، يخاطبهم فيفهمونه، ويحدثهم فيتلقون عنه مباشرة دون أن تتعثر أسباب الفهم بينهم، ودون أن يحتاجوا معه إلى من يترجم لنبيهم حالهم.

وكل ما جاء به النبي ميسر له بلسانه، وهو أبلغ وسائل التفاهم والتلاقي، وبه تكون الحجة للنبي عليهم حين يتقبلون أو يرفضون ما يلقى إليهم أن اعبدوا الله وحده لا شريك له. وبذلك كان أمر الله إلى جميع النبيين والمرسلين.

. وقد قصَّ القرآن الكريم حياة موسى عليه السلام كاملة ومن خلال هذه الحياة يتضح ما حرفته التوراة عن حياته، وما اختلقته بعد مماته.

لقد جعلوا من موسى قائداً مصرياً مستدلين عليه من اسمه الذي رأوه كذلك، وزادوا عليه حين نسبوا التوحيد الذي ارسل به إلى أخناتون، (١٣٧٩ - ١٣٦٢ ق. م)، وقالوا إنه خرج من مصر ليبشر بهذا الدين.

ومعروف أن التوحيد الموسوي هو توحيد ابراهيم عليه السلام، وبهذا التوحيد هاجر ابراهيم من بلاد الكلدان فرارا من الوثنية، ثم زار مصر في عهد سابق لعهد أخناتون.

ثم إن هناك كثيرين يعتقدون أن أخناتون قد أخذ توحيد الآلهة عن العبريين. فإن لفظة (أتون) أي قرص الشمس الذي اختاره معبودا له لكونه إلهاً منظورا مأخوذا من (أدون

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٤.

وأدوناي) بالعبرية أي سيد والله والإله غير المنظور.

وقد سمى نفسه أخناتون أي انعكاس قرص الشمس تيمنا به، وترك طيبة وعبادة أمون وبنى معبدا لأتون في تل العمارنة، ووضع أناشيد للشمس [٢].

فليس من شك أن هذا الأمر قد التبس على هذا الفريق، أو أنهم عرفوه فجحدوه وأنكروه، وزادوه تلبيساً حين جعلوا من موسى مبشراً بدين أخناتون، ومضوا في تلفيقاتهم فقالوا إن اليهودية والمسيحية قد اشتقتا من عبادة أخناتون للشمس.

واليهود أنفسهم هم بعض من لفق هذا كله، وقد عرف عنهم تحريفهم وتزييفهم كما وصفهم القرآن الكريم. ويرى المؤرخ اليهودي الشهير فلافيوس يوسفوس (القرن الأول الميلادي) أن موسى كان قائداً كبيراً بالجيش المصري خلال الحملة المصرية على الحبشة، وتزوج فيها من تربيس بنت ملك الحبشة. ونقل هذا عن مانيثون المؤرخ المصري الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد. وأيد فلافيوس يوسفوس في ذلك (فيلون) الفيلسوف اليهودي الاسكندري (٣٠٠ ق.م - ٤٠ م).

وقام من العلماء المحدثين سيجموند فرويد، ووضع كتابه (موسى والتوحيد) سنة ١٩٣٨ م، وقال فيه: إن موسى كان مصرياً وليس اسرائيلياً، وإن ديانة التوحيد التي جاء بها هي ديانة أخناتون نفسها، وهي مصرية، ومصدرها مصري، ولا علاقة لها ببني إسرائيل ودور بني اسرائيل وإن موسى لم يكن يهودياً وإنما كان مصرياً اراد كتبة التوراة أن يجعلوا منه يهودياً [٣].

وجميع هذه الآراء تنتقض إزاء كيفية إرسال الرسل جميعا والانبياء، وقد كانوا جميعا من أوساط أقوامهم الذين ارسلوا منهم وإليهم.

ولو لم يكن موسى إسرائيلياً فلم كان الإيحاء من الله سبحانه إلى أمه أن تلقيه في اليم إن هي خافت عليه، وممن تخاف عليه؟ من فرعون المصري، فهل يخشى على مصري من فرعون؟ فإن دعوة فرعون كانت قتل كل ذكر اسرائيلي يولد، وليس كل ذكر مصري.

فاذا كان اسمه هو موطن الاشتباه واللبس، فلم لا يكون هذا ايضا من تدبير الله سبحانه، ليكون له من اسمه منفذ وحماية له ولمن أرسل لحمايتهم وهم بنو إسرائيل.

وقد عالج القرآن الكريم سيرة موسى بما يضيء دقائقها وتفصيلاتها.

نقرأ بعض هذا في سورة القصص فيقول سبحانه ﴿إن فرعون علا في الأرض، وجعل

---

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ١٥٧ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

(٣) مفصل العرب واليهود في التاريخ: ص ٥٣٨.

أهلها شيعا يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم. إنه كان من المفسدين.. ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض، ونري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون﴾.

ويقول سبحانه ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. قالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك. لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾.

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون. وحرمنا عليه المراضع فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون. فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

وتقص سورة طه حياة موسى من زاوية أخرى فيقول سبحانه ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له. وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾.

﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله﴾.

﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾.

السورة الأولى قد عرضت لموسى من باب العبرة والعظة في مجال الحياة كلها، لتذكر بني إسرائيل بفضل الله عليهم باستنقاذهم من بلاء فرعون وعذابه لهم.

وجاءت السورة الثانية لتحكي قصة موسى الخاصة به ولتذكره بفضل الله سبحانه وتعالى عليه منذ ولادته، ولتقص المواقف كلها التي جمعت بين موسى وأمه وأخته في تتابع وتسارع ولهفة وخوف المطمئن بالله الواثق برحمته سبحانه.

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾

﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾.

﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾

﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾.

﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم﴾.

﴿فليلقه اليم بالساحل﴾.
﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾.
ففي هذا كله اعداد للأمر الذي سيكون وتمهيد له قبل أن يقع.. ولهذا كان هذا التمهل فيه والانتظار به إلى الحال الداعية إليه.
فأم موسى ستحتفظ بوليدها، وترضعه إلى أن تستشعر الخطر من فرعون وجنوده، ولكن حين يفجؤها الخطر ويحدق بها، تأخذ الأحداث اندفاعا سريعاً، حيث تسرع إلى التابوت المعد لإلقاء وليدها فيه. ومن ثم إلقاؤه. وهي لا تلقيه جزافاً دون أن ترفده بما ينجيه من الغرق، وإلا كان القاؤه قتلا له. ﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم﴾.
الأحداث تجري بسرعة الخائف المذعور، فهي تقذفه قذفاً بعيداً عن موطن الخطر. ولكن هناك من يخفف عنها ويطمئنها. ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾ ﴿إنا رادوه إليك﴾ وأملها بعودة ابنها هو وحده ما يطمئن قلبها.
وبعد هذا ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ وهذا أمر سيصدع له اليم ويخضع ويمتثل لأنه أمر إلهي. وألقي موسى على الساحل.
ويتبع هذا ما سيؤول إليه حال موسى؛ فإن فرعون سيأخذه. وفرعون عدو لله وعدو لموسى، وسيربى موسى في بلاط فرعون، ليكون في ذلك تهيئة كاملة لموسى في مهمته، ودعما له ليعرف مواطن ضعف فرعون فينفذ من خلالها حين يحين الحين، وليقف على نقاط قوته فيتقيها. وأنى لموسى أن ينتصر على فرعون إذا لم يواجهه بسلاحه نفسه.
وتأتي مرحلة موسى في بيت فرعون فيقول سبحانه:
﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾.
﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾.
﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك. لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾.
﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به﴾.
﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾.
﴿وقالت لأخته قصيه﴾
﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾.
﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾.
﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون﴾.

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

ففرعون عدو لله وعدو لموسى، وبهذا اللون من ألوان العداوة المتبادلة بين فرعون وجنوده وموسى ودعوته يعتدل ميزان الموقف الذي ستكون عليه المعركة المرتقبة بين الحق والباطل.

والحق ينتصر حين تهيأ أسبابه في النفوس، فالمحبة التي ألقاها الله سبحانه على موسى هي التي جعلت من امرأة فرعون مدافعاً عن الطفل، فقد تحركت في قلبها عواطف الأمومة له، وذلك بتدبير من الله سبحانه.

وقد حرم الله عليه المراضع؛ فلم يقبل ثدي واحدة منهن. والله هو الذي دل أخته عليه، وألقى في روعها أن تدلهم على أمه مرضعة له. وبهذا وحده كان تدبير الله لعودة الطفل إلى أمه. وقد طمأنها سبحانه منذ البداية ﴿لا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك﴾.

لقد تقابلت صورتان من حياة موسى في سورتي القصص وطه، وكل صورة منهما قد كملت الأخرى، فكان المشهد المتكامل لهذه الحياة منذ ولادتها إلى أن دخلت بلاط فرعون.

وتأتي بعد ذلك المرحلة التالية من حياة موسى، وهي إعانته الاسرائيلي (من شيعته) على المصري (من عدوه) ثم فراره إلى مدين وما حدث له هناك.

قال سبحانه ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً. وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان.. هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه. قال هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين. قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين.

فأصبح في المدينة خائفاً يترقب. فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه. قال له موسى إنك لغوي مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين.

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فخرج منها خائفاً يترقب. قال رب نجني من القوم الظالمين.

﴿ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي

حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتّي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك. وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾ (٤).

القرآن الكريم لم يذكر من الشيخ الذي زوجه احدى ابنتيه، وإن كان اكثر المفسرين يميلون إلى أنه شعيب نبي الله. ومهما يكن الأمر فليس من ضرورة نقف معها عند هذا الرجل ما دام القرآن قد سكت عنه.

ولكن نأتي إلى المرحلة التالية من حياة موسى، فقد تزوج ابنة الشيخ وقضى عنده الأجل وهو يخدمه دون أن يذكر القرآن الكريم أي الاجلين قضى موسى ﴿فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون. فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب. يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب. فذانك برهانان إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين. قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون. وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون. قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا. أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ (٥).

ويصل موسى وهارون إلى فرعون، وتبدأ المحاورة، ثم المجادلة وتشتد، فهما فريقان، الحق والباطل، الإيمان والكفر، والهداية والضلال. وقد صور هذا الموقف في سور كثيرة، وكل صورة منه تزيد الأخرى إيضاحاً ولا يكررها.

لقد طلب موسى من ربه أن يشد عضده بأخيه هارون؛ فهو أفصح منه لساناً، وكان له ذلك. ودخل الاثنان على فرعون وتحدثا إليه بصوت واحد في عموم الرسالة التي جاء لأجلها ﴿إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾ (٦).

---

(٤) سورة القصص: آية ١٤ - ٢٨.

(٥) سورة القصص: آية ٢٩ - ٣٥.

(٦) سورة طه: آية ٤٨.

ولكنهما ينتقلان من العموم إلى الخصوص حين بدأت رهبة الموقف تزايلهما ﴿ إنا رسولُ رب العالمين. أن أرسل معنا بني اسرائيل﴾ [٧].

ويزايل الخوف موسى فأخذ وحده يبلغ فرعون دعوته بقوة وصراحة جردته من عظمته فقال سبحانه: ﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق عليّ ألا أقول على الله إلا الحق فأرسل معي بني اسرائيل﴾.

ولم تمنع المباغتة والذهول فرعون من أن يقابل كلام موسى إليه بالمن والسخرية ﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾ [٨].

ويزداد موسى في التحدي، لأن قوة الله قد أنطقته فقال ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل﴾ [٩].

وتحرك فضول فرعون في نفسه فسأل موسى وحده دون أخيه هرون لما يعلم من حبسة لسانه وكأنه أراد أن يخجل موسى ﴿من ربكما يا موسى﴾؟ ويرد موسى ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

ويعاجله فرعون ﴿ما بال القرون الأولى﴾. ويرد موسى بذكاء من يعدل عن الجواب إلى علامات الله الواضحة على الأرض ﴿علمها عند ربي في كتاب. لا يضل ربي ولا ينسى. الذي جعل لكم الأرض مهداً، وسلك لكم فيها سبلاً. وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى.. كلوا وارعوا انعامكم، إن في ذلك لآيات لأولى النهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [١٠].

ويعود فرعون إلى الالتفاف حول موسى ﴿وما رب العالمين﴾ [١١] ويجيب موسى ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين﴾ [١٢].

ويتوجه فرعون إلى من حوله علهم يشاركونه دهشته وعجبه واستنكاره ﴿ألا تستمعون﴾ [١٣].

ويحاصرهم موسى بالحقيقة الواقعة متخطياً فرعون في الحديث ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ [١٤]. وهذا يعلن تحدي موسى لفرعون تحدياً وصفه فرعون من خلاله بالجنون

---

(٧) سورة الشعراء: آية ١٦ - ١٧.
(٨) سورة الشعراء: آية ١٩.
(٩) سورة الشعراء: آية ٢١.
(١٠) سورة طه: آية ٥٥.
(١١) سورة الشعراء: آية ٢٣.
(١٢) سورة الشعراء: آية ٢٤.
(١٣) سورة الشعراء: آية ٢٥.
(١٤) سورة الشعراء: آية ٢٦.

﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [١٥].

ولكن موسى يمضي في تأكيد جوابه الأول لهم عن ربه رب آبائهم الأولين مهملا حديث فرعون ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ [١٦].

وأدرك فرعون أن مخاطبة موسى لأتباعه هو تحريض لهم عليه، وهذا يستلزم الضرب على أيديهم قبل أن يفلت الزمام من بين يديه، فيتهدد موسى ويتوعده ليكون عبرة لأتباعه فيقول فرعون ﴿لئن اتخذت إلهـاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [١٧].

موسى ﴿أولو جئتك بشي مبين﴾ [١٨].

فرعون ﴿ فأت به إن كنت من الصادقين﴾ [١٩].

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ [٢٠].

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ [٢١].

ورأى فرعون أن هذا من سحر موسى، فطلب منه آية تشهد له إن كان من الصادقين ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ [٢٢].

وتبدأ الآيات المعجزات من موسى، وهي التي هيأه الله سبحانه وتعالى عليها قبل أن يذهب إلى فرعون.

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ [٢٣].

ولكن فرعون يكابر ويعاند فيقول للملأ من حوله:

﴿ إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؛﴾ [٢٤].

ويردد الأتباع جميعاً قول فرعون لهول ما رأوا ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾ [٢٥].

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليم﴾ [٢٦].

لا بد إذن من اجتماع موسى وسحرة فرعون، وكان اقتراح موسى أن يكون الاجتماع يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

وانصرف الفريقان وأخذ فرعون يعد العدة لذلك الموقف الرهيب المرتقب، وقد ترصد

---

(١٥) سورة الشعراء: آية ٢٧.
(١٦) سورة الشعراء: آية ٢٨.
(١٧) سورة الشعراء: آية ٢٩.
(١٨) سورة الشعراء: آية ٣٠.
(١٩) سورة الشعراء: آية ٣١.
(٢٠) سورة الشعراء: آية ٣٢.
(٢١) سورة الشعراء: آية ٣٣.
(٢٢) سورة الأعراف: آية ١٠٦.
(٢٣) سورة الأعراف: آية ١٠٧.
(٢٤) سورة الأعراف: آية ١١٠.
(٢٥) سورة الأعراف: آية ١١٠.
(٢٦) سورة الشعراء: آية ٣٦.

القرآن لفرعون يحصى عليه خطواته في هذا المقام ﴿فتولى فرعون فجمع كيده﴾ [٢٧]. وقال فرعون ﴿ائتوني بكل ساحر عليم﴾.

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ [٢٨].

ويعلن السحرة لفرعون أنهم يريدون أجراً أو مكافأة إذا كانوا هم الغالبين ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين﴾ [٢٩]. ﴿قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ [٣٠].

ويلتقي الفريقان في الوقت المعلوم ويحاول موسى للمرة الأخيرة أن يلفت السحرة إلى ما هم فيه من الضلال علهم ينثنون عما هم فيه حتى لا يسحتهم الله ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ [٣١].

وتداول السحرة فيما بينهم فيما قاله لهم موسى، وظنوا في هذا تذللا من موسى وضعفاً أمامهم ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً، وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ [٣٢].

وأصر السحرة على عنادهم ولا بد أن يبدأ أحدهم ويعلن بدء الصراع ﴿قالوا يا موسى إماً أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ [٣٣].

ويعيد السحرة قولهم لإرهاب موسى ﴿يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾ [٣٤].

ويرد موسى ﴿بل القوا﴾ [٣٥]. وكأن السحرة قد تشوقوا إلى نتيجة المعركة. وأمام إصرار موسى على أن يكونوا هم الملقين أولا ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ [٣٦]. ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ [٣٧].

وتأتي اللحظة الحاسمة بسكينة الله وأمنه على قلب موسى، وكان وحي الله إليه أمراً

---

(٢٧) سورة طه، آية ٦٠.
(٢٨) سورة الشعراء: آية ٣٩.
(٢٩) سورة الشعراء: آية ٤١.
(٣٠) سورة الشعراء: آية ٤٢.
(٣١) سورة طه: آية ٦١.
(٣٢) سورة طه: آية ٦٤.
(٣٣) سورة الأعراف: آية ١١٥.
(٣٤) سورة طه: آية ٦٥.
(٣٥) سورة طه: آية ٦٦.
(٣٦) سورة الشعراء: آية ٤٤.
(٣٧) سورة الأعراف: آية ١١٦.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ [٣٨]. ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [٣٩].

وبثقة المؤمن، وبيقين الواثق بالله سبحانه وتعالى يواجه موسى القوم ببطلان سحرهم مسبقاً ﴿ما جئتم به السحر. إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [٤٠].

﴿فألقى عصاه.. فاذا هي تلقف ما يأفكون﴾ [٤١].

وسرعان ما انجلت المعركة عن انتصار الحق وهزيمة الباطل ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ [٤٢].

﴿وألقي السحرة ساجدين. قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون﴾ [٤٣].

وحين يهتدي المرء فلا توقيت لهدايته، ولا راد لها، فقد كبر على فرعون أن يؤمن السحرة دون إذن منه ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمنّ أينا أشد عذابا وأبقى﴾ [٤٤].

وتفجر فرعون سعيراً وحمماً لما رأى من سحرته، وأخذ يهذي كالمحموم وهو يردد ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ [٤٥]. ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين﴾ [٤٦]. دون أن يؤثر ذلك على السحرة الذين قال بعضهم ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات. والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر. والله خير وأبقى﴾ [٤٧].

ونسمع آخرين يقولون ﴿قالوا لا ضير. إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾ [٤٨].

وغير هؤلاء ﴿قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون. وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما

---

(٣٨) سورة الأعراف: ١١٧.
(٣٩) سورة طه: آية ٦٨.
(٤٠) سورة يونس: آية ٨١.
(٤١) سورة الشعراء: آية ٤٥.
(٤٢) سورة الأعراف: آية ١١٨.
(٤٣) سورة الأعراف: آية ١٢٠.
(٤٤) سورة طه: آية ٧١.
(٤٥) سورة الأعراف: آية ١٢٤.
(٤٦) سورة الشعراء: آية ٤٩.
(٤٧) سورة طه: آية ٧٢.
(٤٨) سورة الشعراء: آية ٥٠.

جاءتنا. ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ (٤٩).

وينتهي الموقف الكبير بين موسى وفرعون، وينتصر الحق على الباطل. وما ذلك الموقف إلا امتداد لما بعده من مواقف دعوة موسى وآياته ومعجزاته. فلقد أرسل موسى إلى فرعون لأنه طغى، وحتى يخرج بني إسرائيل من مصر فيخلصهم من عذاب فرعون.

ولأجل هذه المهمة التي بدأ موسى تنفيذها، لا بد أن يكون اولئك الذين ارسل موسى إليهم عند مستوى هذه الثقة. فكان لموسى مع فرعون مواقف أيدته ونصرته، وهذه لم تزد فرعون إلا عنادا وإذلالا لبني إسرائيل، وهذه الآيات ليست إلا دروساً عملية أتى بها موسى ليزداد يقين قومه به، وإيمانهم برسالته، فيحملونها ويؤدونها كما ارادها الله تطبيقاً عملياً وسلوكياً في حياتهم مع نبيهم ومع انبياء الله من بعده.

لقد كانت معجزات موسى ابتلاء لفرعون ولبني اسرائيل. أما فرعون فقد أبي واستكبر فحق عليه العذاب وأما بنو إسرائيل، فقد زادتهم جحودا وضلالا وقسوة وعناداً، ولكـن الله سبحانه كان يغفر لهم في كل مرة يأثمون فيها ويكفرون بموسى وآياته، ولعل في هذا استدراجا لبني اسرائيل، ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ (٥٠).

ولعل في هذا أيضاً إشعارا لهم بأن ما سيلاقيه بنو إسرائيل من عذاب ربهم أكثر مما لاقى فرعون إذا هم عصوا ربهم ورسوله، وجحدوا معجزاته. والله سبحانه أعلم بما هم فيه من خلف للوعد ونقض للعهد، وصلابة رقاب وقساوة قلوب، فهم لم يرعووا عن ضلالهم وقد رأوا بأم أعينهم ما حل بفرعون بسبب كفره وضلاله، وكأن فيما حل بفرعون كان تحذيرا لبني اسرائيل من سوء عاقبتهم إن هم فعلوا بنبيهم ما فعله فرعون به.

لقد شاهد بنو إسرائيل في مصر عذاب الله إلى فرعون وقومه فقال سبحانه ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون. وقالوا: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لـــك ولنرسلنّ معك بني إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا

---

(٤٩) * سورة الأعراف: وقد اعتمدت في تحليل قصة فرعون كتاب عبدالكريم الخطيب: قصص القرآن.

(٥٠) سورة الحجر: آية ٣.

هم ينكثون. فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾[٥١].

آيات موسى إلى فرعون كثيرة واضحة كما جاء بها القرآن الكريم، غير أنه لم يردفها أحاديث مرفوعة إلى رسول الله ﷺ، وإن كان المفسرون قد أسهبوا في هذا وفصلوا، وبعضه مأخوذ عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق وغيرهم من أصحاب الأخبار.

لما أبى فرعون وقومه إلا التمادي على الكفر والإقامة على الشر والظلم دعا موسى ربه فقال: يا رب عِبدِك فرعون قد طغى في الأرض وبغى وعتا، وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك. ربّ خذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومي عظة، ولمن بعدهم من الأمم اعتباراً. فتابع الله عليهم الآيات المفصّلات بعضها في إثر بعض، فأخذهم بـالسنين، ونقص من الثمرات، ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء، أرسل من السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها في بعض. فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، من جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوت بني اسرائيل من الماء قطرة واحدة.

وفاض الماء على وجه أراضيهم وركد، فلم يقدروا على الحرث وسواه حتى جهدوا، ودام ذلك عليهم سبعة أيام فقالوا ﴿يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل﴾.

ودعا موسى ربه، فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني اسرائيل، وعادوا إلى أشر ما كانوا عليه فأنبت الله تعالى في تلك السنة من الكلأوالزرع والثمر ما لم ينبت قبل ذلك. فأعشبت بلادهم وأخصبت. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى. وما كان هذا الماء إلا نعمة لنا. وما يسرنا أنا لم نمطر. فأقاموا شهراً في عافية، ثم بعث الله عليهم الجراد، فأكل عامة زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم وزهرها حتى إنها كانت لتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير من الحديد، حتى تساقطت دورهم. وابتلي الجراد بالجوع فجعل لا يشبع، وكان لا يدخل بيوت بني إسرائيل، ولا يصيبهم من ذلك شيء. فعجبوا وضجوا وقالوا ﴿يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عنك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل﴾. فسأل موسى ربه فكشف الله عنهم الجراد.

ثم بعث عليهم القمل، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه، وكان يأكل احدهم الطعام فيمتلىء قملاً.. فأخذ القمل أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم.

---

(٥١) سورة الأعراف: آية ١٣٠ - ١٣٦.

ولزمت جلودهم كأنها الجدري عليها، ومنعتهم النوم والقرار، ولم يستطيعوا لها حيلة.

فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا: إنا نتوب ولا نعود. فادع لنا ربك بما عهد عندك يكشف عنا هذا العذاب. فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل. ثم نكثوا العهد وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا: ما كنا قط أحق أن نستعين أن موسى ساحر لنا إلا اليوم. فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بني إسرائيل. فما عسى أن يفعل اكثر مما فعل. وغرة فرعون لا نصدق به أبداً ولا نتبعه. فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرا في عافية.

فأرسل الله عليهم الضفادع، فدخلت عليهم في بيوتهم بغتة، وامتلأت منه أفنيتهم وأبنيتهم.. فلقوا منها أذى شديداً. فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا: أكشف عنا هذا البلاء فإنا نتوب هذه المرة ولا نعود. فأخذ على هذا عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا موسى ربه فكشف عنهم الضفادع.

ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم، فدعا عليهم موسى، فأرسل الله عليهم الدم. فسال عليهم النيل دماء وصارت مياههم كلها دماً، وما يسقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دماً احمر. فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا: إنا قد ابتلينا بهذا الدم؛ وليس لنا شراب غيره. فقال لهم: إنه قد سحركم موسى. فكان يجتمع الرجلان على الاناء الواحد القبطي والاسرائيلي، فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دما. وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه اضطر إلى مضـغ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها ملحاً أجاجا ومراً زعافاً.

فلما ضجروا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام. ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك.

قال أصحاب الأخبار (٥٢): لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه ورآهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادي والكبر دعا عليهم وأمن هرون عليهما السلام ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ (٥٣) فأجاب الله دعاءهما ﴿قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ (٥٤).

وطويت صفحة فرعون فقال فيه سبحانه ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ (٥٥).

---

(٥٢) الثعلبي: عروس المجالس.

(٥٣) سورة يونس: آية ٨٨.

(٥٤) سورة يونس: آية ٨٩.

(٥٥) سورة البقرة: آية ٥٠.

وتنتهي من حياة موسى مرحلة، ثم تبدأ مرحلة تالية، تلك هي مرحلة الخروج ببني اسرائيل من مصر مع نبيهم ورسولهم ومعلمهم ومرشدهم موسى عليه السلام، وهو من يأخذ بيدهم، يعلمهم ويهذبهم ويدربهم على حمل الأمانة الكبرى، بل الحفاظ عليها، انها الأمانة التي تحدى فرعون بها، ودافع عنها أمام ظلم فرعون وجبروته بما نفحه الله من قوة، وبما أيده من آيات معجزات. وكلها تهيئة عملية للدرس، بل الدروس التي سيتلقاها قومه عنه.

وقد تجسدت أمام عيون بني اسرائيل نتيجة الدروس، ووعوها وأحسوها في مصر، ورأوا بعيونهم وعقولهم وقلوبهم كيف يكون الدفاع عن العقيدة والاستهانة بالموت في سبيلها، من خلال مواقف موسى مع فرعون وسحرته.

وعلم بنو إسرائيل من خلال معلمهم ورسولهم أن الدفاع عن العقيدة لا يحتمل أكثر من أمرين، هما النصر بها ولها، أو الموت دونها، وذلك هو عنوان دعوة موسى، ومن بعده من النبيين والرسل. فلا استكانة للكفر، ولا خضوع للشرك، ولا تهاون ولا تفريط بشيء مما تدعو إليه السماء في رسالاتها إلى أصحابها من الأنبياء والرسل.

ولا بد لمن يحمل تلك الأمانة من الصبر والجلد والقوة النفسية والعزيمة ما يتناسب مع ضخامة مسؤوليتها، ومشقة تكاليفها. ومثل ذلك يحتاج من الرسول المعلم إلى الكثير من الصبر مما يفوق تصور البشر أحياناً، لأن من سيحمل الأمانة وينقلها إلى سواهم هم بنو إسرائيل.

ولكن أنى لمثل أولئك أن يتولوا مثل هذه الأمانة العظيمة؟ وهم من تعودوا على إذلال فرعون لهم، ونشأت نفوسهم في حمأة الضعـة والمذلة والهوان.

وأنى لموسى وسواه أن يغيروا من نفوس جبلت على الصغار وتمرست فيه، وتجرعت ألوانه، حتى بات جزءاً لا يتجزأ من كيانها وتركيبها ونفسيتها. حتى دفعوا بهذا كله في كتب السماء التوراة والانجيل والقرآن، فقال فيهم سبحانه ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا. وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (٥٦).

يقول سيد قطب في هذا العمل الخطير الذي جابه موسى أول ما جابهه «إن أول عمل عظيم يجابهه موسى هو عملية استصلاح بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزه بهم البحر. وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية، وتواجه

---

(٥٦) سورة آل عمران: آية ١١٢.

موسى عليه السلام بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل.

وسنرى متاعب موسى عليه السلام في المحاولة الضخمة التي يحاولها، وثقلة الجبلات التي أخلدت إلى الأرض طويلا، حتى ما تريد أن تنهض من الوحل الذي تمرغت فيه طويلا، وقد حسبته الأمر العادي الذي ليس غيره.

وسنرى من خلال متاعب موسى عليه السلام متاعب كل صاحب دعوة، يواجه نفوساً طال عليها الأمد، وهي تستمرىء حياة الذل تحت قهر الطاغوت، وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها، ثم طال عليها الأمد فبهتت صورتها وعادت شكلا لا روح فيه.

إن جهد صاحب الدعوة ـ في مثل هذه الحال ـ لهو جهد مضاعف، ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك، يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات، ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة»[٥٧].

ولعل ارتدادهم إلى جاهليتهم الأولى، كان أسرع مما يتوقع ممن هم في مثل حالهم، إذ إن تلك الارتدادة لم تكن إلى غير الشرك والكفر، بعد أن رأوا الآيات على قدرة الله سبحانه وتعالى قبل خروجهم من مصر، بل قبل ارتدادهم مباشرة حين غرق فرعون وقومه وهم ينظرون.

يقول سبحانه ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين. وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[٥٨].

فالآية الإلهية الأخيرة في فرعون وقومه كانت لا تزال ماثلة في أذهان بني إسرائيل وأمام عيونهم. فقد شق لهم موسى البحر وأغرق الله سبحانه فيه فرعون وقومه بسبب كفرهم وشركهم، وتلك كانت النتيجة المترتبة على عنادهم واصرارهم على الكفر، بل انها نتيجة كل من هو على اصرار وعناد على مر العصور والدهور، وإن في هذا لبلاغاً إلى بني إسرائيل.

---

(٥٧) سيد قطب: في ظلال القرآن: ج ٣، ص ٦٢.

(٥٨) سورة الأعراف: آية ١٣٨ ـ ١٤٠.

ومع هذه الآية المحسوسة التي شاهدها بنو إسرائيل ووعوها فإنهم كفروا، بل إن الكفر قد رافقهم منذ اللحظة التي خرجوا فيها مع موسى من مصر. فليس هناك غير فترة تجاوزهم البحر الذي شقه موسى بعصاه، ولعلهم الفترة التي ذهلوا فيها عن أنفسهم، فنسوا أنفسهم، ولكن ما إن تجاوزوا البحر حتى نسوا أو تناسوا ما كان في البحر من آية وعادوا إلى طبيعتهم الأصلية المنحرفة، أو عادت إليهم جبلتهم الملتوية.

لقد وقعت أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم، مستغرقين في طقوسهم الوثنية. فطلبوا من موسى بكل ما فيهم من صلابة رقاب وقساوة قلوب أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة.

ولو أنهم جعلوا لأنفسهم أصناماً دون أن يطلبوها من رسولهم موسى لكان هذا أقل غرابة، ولكن أن يطلبوا هم من موسى الذي يدعوهم إلى الإسلام والتوحيد صنع إله لهم فذلك أعظم الكفر وأقبح الشرك.

ومن خلال صبر الرسول موسى على طبيعتهم فقد بين لهم أن ما يفعله أولئك هو الباطل، وما هم فيه فهو باطل، وأن ما ينتظرهم هو الهلاك والدمار شأن كل قوم أشركوا ويشركون.

ولكنها تبقى صفحة من صفحات بني إسرائيل، وامتحاناً من الامتحانات الكثيرة التي ما نجحوا في واحد منها، ولا نخالهم ينجحون.

لقد عرفوا في موسى مخلصاً لهم، ومنقذاً من فرعون، ورأوا فيه من الصبر والجلد والقوة النفسية والجسدية ما يتناسب مع خطورة ما هو مكلف به، وشذوذ من أرسل إليهم، فكان لا بدّ له من عدة وعتاد إلهي، وذخيرة وزاد سماوي يمكنه من انتشال قومه من حمأة الوثنية وظلام الشرك، وزرع نفوسهم بالعزة بدلا من المذلة، وبالقوة بدلا من المسكنة، وبالرحمة والاستقامة في مكان القسوة والانحراف، لتتهيأ نفوسهم وقلوبهم وعقولهم لتقبل الإيمان والتوحيد حتى يكونوا أهلاً لأن يحموا هذه العقيدة الموحدة، ويقاتلوا ويقتلوا في سبيلها.

لقد قص القرآن الكريم هذه المرحلة الخطرة من حياة موسى فقال سبحانه وتعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر. فتم ميقات ربه أربعين ليلة. وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين. ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر إليك. قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني. فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً، وخر موسى صعقاً. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين. قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما

آتيتك وكن من الشاكرين. وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء. فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين. سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا. وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين. والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون. واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار. ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين.

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين. قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين. إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وكذلك نجزي المفترين. والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم. ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون.

واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا. إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ (٥٩).

لقد خلفت رحلة موسى إلى ربه قوماً كفروا وعبدوا العجل، بينما لم يمض على ترك موسى لهم إلا أيام معدودات. ونرى من خلال الآيات أن موسى قد ترك أخاه هرون خليفة له في قومه بعد أن وصاه وحذره من اتباع سبيل المفسدين. فهو على علم مسبق بدخائل قومه ونفسياتهم المنحرفة وطبائعهم الملتوية، ولكن على موسى أن يتلقى من الله المنهاج الكامل القويم الذي سيقرره على قومه، حتى يتضح أمامهم الطريق الحق. ومن خلاله يرسون قواعد التوحيد، في دروس عملية تطبيقية تهذيبية وتربوية، تستقيم بها نفوسهم، وتصلح بها ضمائرهم.

فالرسالة عظيمة خطيرة، ولا يقوم بها غير العظماء في دخائلهم ومكنوناتهم. وبنو إسرائيل كانوا على خلاف هذا في أعماقهم. فهم من هنا بحاجة إلى ما يطهر نفوسهم تطهيراً لا يترك

---

(٥٩) سورة الأعراف: آية ١٤٢ - ١٥٥.

من آثار الماضي شيئاً. ولكن آثار الماضي كانت كثيرة في نفوسهم حتى أضحت طبائعم نفسها، وعقلياتهم ذاتها.

وكانت مواعدة الله سبحانه لموسى ومقابلته. وفي هذه المقابلة كان على موسى أن يطلب من الله ما يقوي حجته أمام قومه؛ فليس مما يقنع أولئك آيات رأوها أو معجزات شاهدوها، بل لا يكاد يقنعهم كلمات يتلقاها موسى عن ربه، ويبلغها لهم، ثم يشفعها الله بمعجزاته إلى رسوله من خلال العصا.

فإن كل مفسد طاغ مضى، وإن كل قوم مفسدين قد طلبوا أول ما طلبوا من نبيهم ورسولهم أن يعرفوا الله معرفة حسية، بل أن يروه رؤية العين فيما حكى القرآن عن فرعون مثلا، أو عن قوم موسى.

وكان طلب موسى إلى ربه أن يراه، ليس لأنه يشك في وجوده سبحانه، ولكن لأن قومه سيطلبون إليه أن يروا الله جهرة، فكان على موسى أن يعرف مسبقاً الرد على طلبهم.

وكان ذلك ما حدث لهم، حيث جعلوا شرط إيمانهم الوحيد إلى موسى أن يروا الله جهرة ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ (٦٠) وكذلك ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾ (٦١) وكان الخطاب المباشر بين الله سبحانه وبين موسى، ولكن دون أن تتم الرؤية بالعين مباشرة.

وطلب موسى إلى ربه أن يراه ﴿رب أرني أنظر اليك﴾ ورؤيته سبحانه لا تتم إلا من خلال آياته فيما خلق فقال سبحانه ﴿انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني. فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ (٦٢).

ليس من بشر يطيق رؤية الله سبحانه، فإن رؤيته مستحيلة، وهذا الجبل قد تصدع لرؤيته سبحانه، فكيف يتسنى ذلك لبشر، وقد رأى موسى الجبل أمامه يسوى بالأرض دكا. لقد صعق وأغشي عليه. وكان طلب التوبة من الله أول ما فعله موسى بعد أن أفاق.

أما بنو إسرائيل فقد كانت الصاعقة هي عقابهم على طلبهم، لقد أحرقتهم الصاعقة وهم ينظرون إحراقهم بعيونهم، ثم أعاد الله سبحانه بعثهم وهم ينظرون كيف يبعثون.

أفليس ذلك كله دليلا لهم على وجود الله الخالق وقدرته وتصرفه في خلقه كيف يشاء؟، ومن ثم يكون ذلك كله ترسيخاً لدعوة وتثبيتاً لعقيدة انتدبوا لها!.

---

(٦٠) سورة البقرة: آية ٥٥.

(٦١) سورة النساء: آية ١٥٣.

(٦٢) سورة الاعراف: آية ١٤٣.

سيتلقى موسى إذاً كلمات ربه بقوة وإيمان وعزيمة لا تلين. ومن خلال ذلك كله يكون التبليغ والتعليم والتأديب والترويض لقومه. وبهذه القوة والعزيمة والإرادة تلقى موسى كلمات ربه (فخذها بقوة)، وبذلك الصبر والجلد والقوة والكفاح لا بد لتلك الكلمات أن تؤخذ، وأن يحافظ عليها، وأن تفدى بأرواح أصحابها، حتى يتمكنوا من إبقاء راية التوحيد مرفوعة أبداً في وجه شياطين البشر وطواغيتهم.

ففي لحظات المواعدة والمخاطبة بين موسى وربه كان قوم موسى قد عادوا إلى اعوجاج طبيعتهم؛ فقد شاء الله سبحانه أن يمتحنهم في غيبة رسولهم. فهم يعرفون أنه سيغيب عنهم ثلاثين ليلة.

كما أن موسى كان على عجل من أمره، ويريد أن يتلقى كلمات ربه في الليلة الثلاثين حتى يعود إلى قومه لما يعرف فيهم من فساد وزيغ، وخشية أن يفتنوا. ولكن الله سبحانه أتمها بعشر، وبهذه الزيادة تكشف فسادهم وزيغهم فقد فتنوا وزاغوا وأشركوا بالله سبحانه.

وكانت فتنتهم بعجل صنعه لهم السامري، وهو أول امتحان محرر يخفقون فيه، ويلي هذا امتحانات وابتلاءات، وهم يمضون معها من إخفاق إلى آخر، يزيفون، وينحرفون وفيهم يقول سبحانه وتعالى ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم اولاء على أثري، وعجلت إليك رب لترضى. قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري. فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً. أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي. قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي. أفلا يرون ألا يرجُع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى. قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري. قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي. قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به. فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا﴾ (٦٣).

وانتهى الابتلاء بإخفاق القوم، وكشف انحرافهم، والتواء طبعهم، وإصرارهم على

---

(٦٣) سورة طه: آية ٨٣ ـ ٩٧.

الشرك، ورأوا أن يكون لهم إله محسوس كما لسواهم من الوثنيين، بل إن بلادتهم قد فاقت كل معقول حين قالوا عن العجل إنه إله موسى الذي ذهب يبحث عنه ولم يعد. وحرق موسى عجلهم ونسفه في اليم، وطويت به صفحة من صفحات قوم موسى.

وفتحت صفحة أخرى هي نتيجة لما سبقها فعبادة العجل هي الكفر والشرك، وذلك يعني العقاب الذي لا مفر منه، والعقاب هنا حسي مرئي يردع المشركين من قوم موسى، ويعتبر به سواهم. والكفر يبيح دم صاحبه ويهدره، وذلك لن يكون إلا بأيديهم إمعانا في التعذيب بشركهم، وأوجع لهم، وهم يرون دماءهم بعيونهم، ﴿واذا قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ [٦٤].

ومع هذه التوبة فإن نفوس من بقي منهم سيمضي فيها غضب الله وسخطه، وذلة في الحياة الدنيا، وهي مذلة تحط بصاحبها، وهو منحط بها أبداً، وإن رفعته القوة والقهر إلى حين.

أما من بقي من قوم موسى بعد عقاب التقتيل فقد شاء لهم أن يذهبوا معه إلى الجبل ليستغفروا الله ويتوبوا إليه مما فعلوا ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا. فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي. أتهلكنا بما فعل السفهاء منا. إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ [٦٥].

ومضى موسى إلى الجبل بهذا الوفد الذي اصطفاه من قومه ولما كلم الله موسى وهم شهود يسمعون عاودت جماعة منهم جبلتهم العاصية المنحرفة، ولج بهم كفرهم إلى درجة لم يصدقوا معها أن الله هو من يكلم موسى. فطلبوا منه أن يروا الله جهرة.

ولعل موسى كان قد أعلمهم باستحالة رؤية الله من خلال طلبه إلى الله الرؤية، ولعلهم كذبوه بما حدث له، وأردوا في موقفهم على الجبل أن يضيقوا على موسى فيعود إلى طلب رؤية الله لهم حتى يتأكدوا من صدق ما حدثهم به، أو يزيدوا في تكذيبه وإعناته.

وكان العقاب السريع الحاسم أن أخذتهم صاعقة الله، وهم ينظر بعضهم إلى بعض، ثم بعثهم الله من بعد موتهم حتى يكونوا هم أنفسهم شهوداً على أنفسهم وعبرة لسواهم ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ [٦٦].

---

(٦٤) سورة البقرة: آية ٥٤.

(٦٥) سورة الأعراف: آية ١٥٥.

(٦٦) سورة البقرة: آية ٥٥ ـ ٥٦.

لقد كان ذلك حال الصفوة من قوم بني اسرائيل، فماذا يكون حال سواهم، وهم يمضون على الطريق الطويل عبر العصور والدهور ؟

ذلك يشير إلى إخفاق آخر وفشل متعمد بما جبلوا عليه من فساد وضلال، وربهم سبحانه أعلم به، ولكنهم أعطوا من الفرص الكثير، وهيئت لهم الأسباب كلها إلى الهداية، ولكن من يضلل الله فما له من هاد.

وتبدأ مرحلة تالية للقوم مع موسى، تلك هي مرحلة الطريق الطويل الذي يدربهم فيه موسى على السير، كما يدرب الطفل، وقد هيأ لهم من الوسائل والآيات ما يشتد به عودهم، وتستقيم به نفوسهم، وتصفو قلوبهم، وتطهر صدورهم مما يسكنها من لؤم وحقد وجشع ومذلة وخنوع، كله من مكونات ماضيهم، ومما لا يمكن أن ينفصل عنه حاضرهم أو مستقبلهم.

وموسى عليه السلام بما وهبه الله من صبر فذ ـ كثيراً ما نفَدَ ـ إزاء تعنتهم وتمردهم وجحودهم ماض في آياته الإلهية التي تفجرها عصاه، علّهـا تمحو ما سكن فيهم واستقر، ويحل محلها ما يهيئهم لحمل الرسالة وتبليغها، والمنافحة في سبيلها إلى درجة الموت.

والموت في سبيل العقيدة إحدى الحسنيين؛ فإما أن ينتصر أصحابها ويبلغوها كما يشاؤها الله، وإما أن يقضوا في سبيلها حتى يحملها من بعدهم الأمناء عليها، الرافعون رايتها، المرسون دعائمها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ونمضي مع مكابدة موسى مع قومه في الصحراء في تلك المرحلة الجديدة من مراحل الدعوة الموسوية وجهاده الأعظم معهم. ذلك هو جهاد النفوس التي طال أمد ذلها وهوانها، فلم يعد يصلح لها علاج، ولا يجدي معها دواء.

فبعد الابتلاء الأخير لهم، وأخذهم بالصاعقة، ثم إحيائهم من بعد موتهم ظللتهم رحمة الله سبحانه وتعالى ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.. قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [٦٧].

---

(٦٧) سورة البقرة: آية ٥٧، ٦٠ ـ ٦١.

إن رحمة الله بقوم موسى لا حدود لها رغم ازدياد فجورهم وعنادهم، إذ لم تترك فرصة تسعى إلى اصلاحهم او تقويم اعوجاجهم دون أن يستنفدها رسولهم، حتى يكون عقابهم في نهاية الأمر بمقدار ما أعطوا من هذه الفرص، ومن تلك الرحمات الإلهية، والآيات الموسوية.

وأول هذه الفرص تظليلهم بالغمام حتى يقيهم شواظ الصحراء، كما أن الله سبحانه وتعالى سخر لهم المنّ يجدونه على الأشجار حلوا كالعسل، وسخر لهم طائر السلوى وفيرا قريب المنال.. هذا ما هيأه الله سبحانه لهم، هي إقامة مريحة ميسرة، وجو رطيب ندي، وطعام هنيء في وسط صحراء تقذف باللهب. ومع ذلك كله لم يشكروا بل كفروا وظلموا أنفسهم، وما ظلموا سواها.

وإلى جانب هذا طلب القوم من موسى السقيا، فضرب بعصاه الحجر فتفجرت اثنتا عشرة عينا، لكل سبط عين يشربون منها. وشرط هذا كله من ربهم ألا يعثوا في الأرض مفسدين. وذلك شرط يسير عند ذوي العقول، ولكنه الشرط المستحيل تنفيذه عند ذوي الجبلة الفاسدة والقلوب القاسية.

وأكثر من ذلك ما طلبه قوم موسى منه؛ فمع هذه النعم جميعها فقد طلبوا إليه أن يوفر لهم البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، وذلك هو الجحود عينه والنكران ذاته، ممن جحدوا رزق السماء في تلك الصحراء التي هيئت لتكون مقبرة لهم لولا رحمة الله سبحانه.

ويبقى على موسى أن يواجه ذلك كله، وأن يضرب على أيديهم بما يتناسب مع عقوقهم، فكان أن أعاد إلى الأذهان فجأة ما كان لهم من تعذيب فرعون واضطهاده لهم، وعليهم أن يعودوا إلى مصر إذا هم أرادوا ما طلبوا من بقل مصر وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ [٦٨].

لقد رفض قوم موسى العزة، وجحدوا نعم السماء المباشرة من عند الله، ولكنها الطبيعة الفاسدة النتنة ريحها، والبنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي أخرجوا من أجلها من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء.

لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذل والهوان إلى حياة الحرية والكرامة، حتى يرفعوا راية العقيدة، ولكن لذلك كله الثمن. فإن للحرية ثمناً، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي نيطت بهم فدية، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا أن

---

(٦٨) سورة البقرة: آية ٦١.

ينهضوا بالتكاليف، ولا أن يدفعوا الفدية[٦٩]. وثمن هذا كله غير عسير، وهو أن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة الذليلة، وأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة.

لم يبق ابتلاء إلا وقد ابتلي به قوم موسى، وهو ماض في صبره وجلده ومكابدته في رحلتهم الصحراوية، وهو يسوق قومه سوقاً رفيقاً رحيماً حازماً، مع ما كان عليه موسى من حدة وشدة وغيرة على أمانته الكبرى، ومجاهدة لإعلائها.

والرحلة التي يسير فيها موسى، تمضي به، إلى حيث وعد الله المؤمنين بدعوته، إلى فلسطين الوعد والموعد، لمن يقاتل في سبيل الله ويقتل في سبيله. لقد وعدهم فلسطين إذا هم كانوا أقوياء في الدعوة، مؤمنين بها، مقاتلين الكفر والشرك مقاتلة لا هوادة فيها، وممهدين لها بأول رسالات السماء إلى الأرض، حتى يمضي فيها حكم الله الذي هيأه لأمته المحمدية خير أمة أخرجت للناس.

وماذا كان حالهم عندئذ؟ فالوعد مشروط بالايمان والخضوع والاستسلام لله الواحد الأحد الفرد الصمد، ولا يشركون به شيئاً.

لقد كان في فلسطين آنئذ العمالقة الذين يعبدون الأصنام، فكان الموعد فوق أرضها حتى يلتقي وجها البشرية، وجه الشرك ووجه الإيمان والتوحيد الذي يتزعمه أولئك القوم من بني إسرائيل.

فحتى يهزم الشرك فيها لا بد أن ينتصر الايمان والتوحيد أولا، وحتى تحطم الأصنام لا بد من غلبة العقيدة بأيدي أصحابها، وحتى يسحق القوم الجبارون الوثنيون فلا مناص من أن يكون الداخلون إليها أشد قوة وأعظم بأساً. وليس المطلوب في قوم موسى قوة الجسد التي كانت لأهل فلسطين، وليست القوة المادية، ولكنها قوة الإيمان والعقيدة، والقوة النفسية والثبات القلبي الذي لا يشوبه شيء من مذلة أو استكانة.

ومع كل ما نفخه موسى في قومه من قوة وصلابة وعزيمة وإرادة فإنه كان كالقابض بكفه على الماء، وكالنافخ في الرماد؛ فما أن علم قومه أن في فلسطين قوماً جبارين حتى انهارت هياكلهم الجوفاء المحشوة مذلة وهوانا وفزعاً وجبنا. واحتجوا على موسى فقالوا. إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون.

ولعل في شركهم ما ضخم أمام عيونهم جسوم أولئك، فنكصوا عن مجابهتهم. ولو كان فيهم شيء من إيمان لتهاوت أمامهم صروح الشرك، ولاندكت معاقل الكفر، ولما رأوا في

---

(٦٩) في ظلال القرآن: ج ١، ص ٩٣.

ضخامة الجسوم ما يخيف ويرعب، ولكن ذلك كان تأكيدا لموسى على إخفاقهم في حمل الأمانة، التي لن يكونوا الأمناء عليها، المبلغين لها، المقاتلين في سبيلها، أو الذين يبذلون أرواحهم رخيصة لأجلها. فالعقيدة لا يحميها إلا قوة الإيمان، وثبات اليقين، وشرط دخولهم كان التوكـل على اللـه ﴿فـإذا دخلتمـوه فـإنكـم غـالبـون وعلى اللـه فتـوكلـوا إن كنتم مؤمنين﴾ (٧٠).

وكان هذا نقطة الفصل بين عالمي الإيمان والكفر، واليقين والشك، وبين الفئة التي آمنت بموسى وهم قليل قليل، وبين الفئة التي كفرت، وهم كثير كثير. فإذا كان في مختاريهم وصفوتهم ذلك الشك بالله، فكيف بمن جادلوا موسى فأكثروا الجدال، ومن لجوا فتمادوا في لجاجهم وطغيانهم.

إنهم لن يدخلوا الأرض، فقد حرمت عليهم، أما من وصل إلى حدودها فهم الخُلْف الذي نشأ في التيه، لقد قضى الله سبحانه وتعالى على آبائهم أن يتيهوا في البرية أربعين سنة، حتى ينتهي ذلك الجيل الذي كفـر وأشرك، ويأتي بعده جيل لم ينشأ في مصر ولم يتمرس فيها على المذلة والضعة والهوان، فلعل خيراً يكون في هذا الجيل الجديد، فيحملون الأمانة، ويمضون إلى حيث حرم سابقوهم. ولكنه كان شر خلف لشر سلف، وما مضى فيمن سبقهم فقد مضى فيهم، وذلك حكم الله في هذا الخلف.

فما حكم دخول أي من أولئك القوم أرض فلسطـين؟ إنه بلا شك دخول الطارىء الغريب، الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له حال، إنه دخول الخائف القلق الذي حرم الله عليه نعمة الاستقراروالأمان، فهم مشتتون أبداً، والتيه هو عنوانهم في الأول والآخر.

ونلجأ إلى القرآن الكريم يحكي لنا ذلك، فهو الحق من لدن الحق سبحانه حيث يقول ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكـاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركـم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها

---

(٧٠) سورة المائدة: آية ٢٣.

محرمة عليهم. اربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ (٧١).

لقد كانت لموسى تلك اللحظة اليائسة التي كانت للأنبياء من قبله. فقد نفد كل صبر، ولم يعد أدنى أمل في تقبل نفوسهم الايمان والهداية، ووقف موسى عند قمة يأسه الذي تبرأ عنده من قومه ويئس من صلاحهم، واعلنها بين يدي ربه وصاح بها يائساً ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ (٧٢).

هكذا كان عقاب الله سبحانه وتعالى لبني اسرائيل، وهو عقاب مؤشر إلى المستقبل كله الذي يكون لمثل اولئك الضالين المفسدين على ظهر البسيطة. وربهم سبحانه أعلم بهم وبمن يأتي من أصلابهم (شر خلف لشر سلف). وكان عقاب التيه والتشتت كما أكدته كتب السماء، وبخاصة توراتهم التي حبرتها أيديهم، حتى باتوا يرون في هذا التيه نعمة من الله إلى بني إسرائيل، لتتمكن الأفعى التي ترمز إليهم من الالتفاف حول العالم كله الذي يسعون إلى تحطيمه وهدمه وإقامة مملكة مزعومة على أنقاضه.

وطويت آخر صفحات القوم مع موسى عليه السلام، وكان عنوانها، يأس موسى من قومه، وذلك اليأس الذي كان في علم الله سبحانه منذ ارسل موسى إلى بني اسرائيل، ولكنه سبحانه لم يفرض هذا اليأس على نبيه دون عمل وكد وجلد وصبر ومعاناة مع قومه، إنه نتيجة هذا كله، فقد تحجرت قلوب القوم عن أن تلين للهدى، وحجدوا نعم الله وخانوا موسى، وذلك حتى يكون لهم الجزاء الذي ينتظرهم وجزاء الله من جنس عملهم بما كفروا.

لقد ضيع قوم موسى جوهر دعوته، فطمسوها، وضيعوها وكتبت أيديهم ما يناسب جبلتهم الملتوية الفاسدة، ووصفهم القرآن الكريم بتحريف الكلم عن مواضعه. كما أكد عهد الله وميثاقه إليهم على يد موسى، فسجل عليهم هذاكله ليعلم المؤمنون برسالات السماء بالعهد السماوي الواحد، وبالميثاق المتجدد الذي أخذه الله على أنبيائه ورسله وخلقه.

وميثاق الله مع أنبيائه ورسله وخلقه عقدفيه شرط وجزاء. فقال سبحانه في شرط ميثاقه ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا. وقال الله: إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ (٧٣).

أما الجزاء فقال فيه سبحانه ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار. فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ (٧٤).

لقد نقض بنو إسرائيل العهد بينهم وبين ربهم، فحقت عليهم اللعنة، فأي خير يرجى بعد

---

(٧١) سورة المائدة: آية ٢٠ - ٢٦.
(٧٢) سورة المائدة: آية ٢٦.
(٧٣) سورة المائدة: آية ١٢.
(٧٤) سورة المائدة: آية ١٢.

ذلك ممن لعنهم ربهم؟ وذلك يخرجهم بلا شك من تلك الفئة التي إئتمنها ربها على دعوته السماوية إلى الأرض. وقال فيهم سبحانه ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ (٧٥).

تلك هي سمات يهود التي لا تفارقهم، لعنة تبدو على سيماهم، وتنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية، وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي سلوكياتهم الخالية من المشاعر الانسانية. ومهما حاول أولئك القوم التظاهر باللين عند الخوف والفزع، ومن النعومة في الملمس عند الكيد والوقيعة، فإن جفاف الملامح والسمات يشي بجفاف القلوب والأفئدة.

وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه، تحريف كتابهم أولا عن صورته التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مزورة على الله. وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث، ونسيان أوامر دينهم وشريعتهم وإهمالها، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم؛ لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على المنهج الالهي الطاهر القويم (٧٦).

وماذا بعد يأس موسى رسول الله من صلاح قومه؟ وماذا بعد إحلال اللعنة وضرب التيه والتشتت عليهم؟ لقد طردوا من رحمة الله حين وصل موسى بهم إلى النقطة التي قدرها الله في لوحه المحفوظ. وتقطعت صلتهم بموسى عندها، فقد خانوه في حياته، فهل تكون غير الخيانة بعد انتقاله إلى ربه؟

وتعود صفحة القوم لتنشر من جديد بأيدي رسل وأنبياء كثيرين، وفي كل مرة تتلون هذه الصفحة ألواناً تجمع في نهايتها خلاصة طبيعة بني اسرائيل الملتوية بما وصفت به من رذائل لا توجد إلا في نفوسهم. وهي في مجموعها بعيدة عن أية قوة نفسية، أو ثراء روحي، أو اعتداد بالكرامة العقدية، وهذه كلها عدة المنافح عن الدعوة والمقاتل في سبيلها.

وكل ما في نفوس القوم من رذائل تنفرهم عن أية دعوة سماوية أو إصلاحية، بل إنها تحملهم على التخلص من أصحابها رسل الله وأنبيائه الذين هم نواقيس خطر ونذر بالوعيد والعقاب بالنسبة لبني إسرائيل...

كما لم ينفع موسى فناء جيل العجل في الصحراء، بما جبلوا عليه من مذلة تنكص بهم عن حمل الأمانة وصونها، أو نشوء الجيل الجديد في التيه، رغم ما جاهده موسى كي ينفخ في

---

(٧٥) سورة المائدة: آية ١٣.

(٧٦) في ظلال القرآن: ج ٢، ص ٦٧٨.

هذا الجيل من المضاء والعزم والصلابة، حتى يقوى على الاستمرارية في دعوته. ومثل هذه الأجيال ما كانت جديرة بحمل دعوة السماء وأيأست موسى وهرون من كل بادرة إصلاح أو بارقة هدى.

ومات هرون قبل موسى في الطريق، فقد أمر موسى أن يذهب معه إلى جبل (هور) فذهبا وهناك مات هرون ودفنه موسى، ومن ثم عاد إلى بني اسرائيل وأخبرهم بموت هرون.

ويقول مفسرو القرآن إن بني اسرائيل قد شغبوا على موسى واتهموه بقتل هرون إلى أن أراهم الله هرون على سرير بين السماء والأرض ليس به أثر للقتل. وأما موسى فقد أمره الله أن يذهب إلى جبل (نبو)، وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، وهناك مات موسى ودفن على الفسجة (٧٧).

ولم يترك القوم موسى وهرون بعد موتهما، فقد جحدوهما حيين، واتهموهما شهيدين. حيث تذهب التوراة في موتهما مذهباً آخر، فقد اتهمت موسى وهرون بالخيانة، وجعلت موتهما جزاء خيانتهما.

بينما ترى فيه بعض المراجع الحديثة شهيداً اغتاله الكهنة الذين قاوموه، فهدموا كل ما نادى به من تعاليم دينية تقريباً. وهناك من يرى أن يشوع بن نون هو الذي اغتال موسى، حيث استصحبه إلى أعلى الجبل ثم عاد بدونه ليعلن أن الأمر بموت موسى قد تم تنفيذه وفقاً لأمر الرب (٧٨).

ويؤيد فرويد الرأي القائل باغتيال موسى على أيدي أتباعه، لأنه تربى في مدرسة أخناتون، ولا بد أن يكون قد استخدم العنف والقسوة على طريقة أخناتون في فرض شعائر دينية صارمة على أتباعه، ولعلها أكثر صرامة من تلك التي فرضها سيده على الشعب المصري. مما أدى إلى أن يلقى موسى المصير نفسه الذي لقيه اخناتون قبله. وهذا ـ كما يقول فرويد ـ مصير كل عظماء الرجال أصحاب المبدأ أو العقيدة.

ويضيف إلى أن الطبع المسالم الذي يتصف به المصريون بوجه عام ساعد على إبقاء اخناتون على قيد الحياة حتى مات حتف أنفه، ولكن الساميين ذوي الطباع الخشنة التي تقرب من الوحشية لم يصبروا على موسى فثاروا عليه وقتلوه (٧٩).

ومهما يكن من أمر إزاء جميع هذه الآراء، فإنها بلا شك قد صدرت عن أشخاص من بني اسرائيل، وكلها قد طبعت بطابعهم، وحملت الكثير من اعوجاج طبائعهم.

---

(٧٧) قصص القرآن للنجار ـ والفسجة هي الكثيب الأحمر.

(٧٨)، (٧٩) مفصل العرب واليهود في التاريخ: ص ٥٦٤.

وإن كنت أومن بأن الله سبحانه وتعالى قد حمى أنبياءه ورسله جميعاً، وحفظهم من أن تطالهم يد أقوامهم. لا يشذ من بين أولئك نبي أو رسول. فهذا ابراهيم عليه السلام قد نجاه الله من نار قومه فقال فيه سبحانه ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم﴾. وذلك هو عيسى عليه السلام وقد نجاه الله من شراسة اليهود وكفرهم فقال فيه سبحانه ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم. وإن الذي اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً﴾ (٨٠).

اختار الله موسى إلى جواره كما اختار الرسل والأنبياء جميعاً. فقد بلغ رسالته وانتهى دوره على الأرض مع قومه، بعد أن حرمت عليهم الأرض المقدسة تحريم عقاب أبدي، بل إن موسى لم يدخلها، ولو دخلها لكانت حجة لبني اسرائيل في امتلاك الأرض وفي الوعد. ولكن الوعد المشرقط بالايمان، وإن الأرض لله يرثها عباده الصالحون، وباتت تلك الأرض تنتظر المؤمنين من خلق الله سبحانه، وتترقب قوماً يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يعلون راية الله الواحد الأحد فوقها. وهذا ما بشرت به توراة موسى وإنجيل عيسى فقال سبحانه فيما كتب في توراتهم وانجيلهم ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (٨١).

---

(٨٠) سورة النساء: آية ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٨١) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

موسى في التوراة

لقد كرم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنبياءه ورسله، وجعل لهم من المكانة والمنزلة والقداسة ما لا يشك فيه مؤمن عاقل، حتى إن الاسلام جعل إيمان المؤمن كاملا إذا ما اكتملت في قلبه ويقينه أركان الايمان كلها بما فيها الايمان برسل الله سبحانه.

ولموسى عليه السلام في القرآن الكريم الصورة المقدسة التي تصحبه منذ ولادته إلى أن أرسله الله رسولا إلى فرعون وملئه.. إلى أن خرج بقومه بني اسرائيل من مصر ضارباً في التيه، من خلال نعم كثيرة، وآيات معجزة، تلين لها قلوب القساة، ولكن لم تلن لها قلوب قومه.

وأنزل الله على موسى ألواحه أو توراته، وفيها هدى ونور وتشريع، فاستخف بها قومه وحرفوها وضيعوها، وكتبت أيديهم سواها. فشوهوا صور الأنبياء والرسل في المقام الأول، بل ألصقوا بهم رذائل لا يكاد يسلم منها نبي أو رسول. ومضوا يزيفون ويختلقون ويؤلفون مما يستقيم مع أهوائهم ونفوسهم وقلوبهم المتحجرة، ناسبين هذا كله إلى الله سبحانه وتعالى.

كما أنهم جعلوا من الله شخصاً ذا هوى وميول وتعصب وحقد، وجعلوا منه ربا لهم وحدهم، وتوهموا بذلك أنهم الصفوة المختارة لهذا الرب، ومضت فيهم كذبة اختلقوها فصدقوها وباتوا يرددون بأنهم الشعب المختار.

ولم يكن اختيارهم انفسهم شعباً مختاراً إلاّ ليتناسب ذلك الاختيار مع ربهم الذي رسموه بايديهم وشكلته نفوسهم. فكان ذلك الاختيار انعكاسا لرذائلهم وموبقاتهم وفسوقهم وضلالهم، وقالوا في هذا كله انه من الرب الذي يعبدونه، وهو ليس بحال خالق السموات والأرض، ولعله رب الحرب وسفك الدماء والشر الذي لا يعبده سواهم، فإن شريعة ربهم الذي يعبدونه ليست شريعة السماء التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم.

من هنا كان تبرؤ موسى منهم، ولعنة الله عليهم، وأخذت اقلامهم تعمل في توراة موسى تحريفاً وتغييرا وتبديلا، وأخذت ترسم لموسى بخاصة صورة توراتية جديدة، ولكنها بعيدة عن قداسة الأنبياء، فجعلوا منه خائناً وزانياً وضالا.. وهي صورة جعلوها من بعده لسواه،

فنسبوا إلى داود وسليمان وعيسى ومحمد ما يبرىء الله ورسله منهم، ويلعنهم الله واللاعنون بها.

وأعود إلى توراة بني إسرائيل، وأتركها تتحدث عن موسى عليه السلام منذ ولد إلى أن اختاره الله إلى جواره.

لقد اشتد استعباد فرعون لبني اسرائيل وتسخيرهم في العمل، وأمر أن يقتل كل ذكر يولد لبني اسرائيل، قائلا « كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها ».

« وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابنا، ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أن أخذت له سفطاً من البردي وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به »(١).

« فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا. ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء »(٢).

وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنه ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك. فقال جعلك رئيسا وقاضيا علينا. أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري. فخاف موسى وقال حقا قد عرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر »(٣).

وهنا يلتقي موسى البنتين اللتين سقى لهما، ولكن التوراة تقول « وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن. فأتى الرعاة فطردوهن. فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن. فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن في المجيء

---

(١) خروج أصحاح ٢ : ١ - ٤.

(٢) خروج ٢ : ٥ - ٩.

(٣) خروج ٢ : ١١ - ١٥.

اليوم. فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، وإنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم. فقال لبناته وأين هو. لماذا تركتن الرجل. ادعونه ليأكل طعاماً. فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل فأعطى موسى صفورة ابنته.

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية، وجاء إلى جبل حوريب، وظهر له ملاك بلهيب نار من وسط عليقة. وإذا العليقة تتوقد بالنار. والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى، موسى. فقال ها أنذا. فقال لا تقترب إلى ها هنا. اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة.

ثم قال: أنا إله أبيك، إله ابراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب: إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إني علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبنا وعسلاً إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين.

والآن هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إليّ ورأيت أيضاً الضيقة التي يضايقهم بها المصريون. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني اسرائيل من مصر.

فموسى هو المنقذ والمخلص من ظلم فرعون، ليصعد قومه إلى أرض الكنعانيين العرب وبقية الأقوام الذين هناك. ولكن ذلك كله مشروط بشرط الأفضلية عن هذه الأقوام، وهي أفضلية الإيمان، فاكرم الناس أتقاهم.

ومناط هذا التفاضل بين بني اسرائيل وبين سواهم آنذاك هو اتباع موسى والعمل بدعوته والتزام أوامره التي كلف بها من الله سبحانه وتعالى، والمكابدة في سبيلها إلى درجة الموت.

« فقال موسى لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر. فقال إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك. حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل. فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فاذا قالوا لي ما اسمه. فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهْيه الذي أهْيه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهْيه أرسلني إليكم.

وتتجلى أمام موسى أولى علامات عناد قومه، وما سيجابهونه به من تكذيب، وهذه هي نقطة الخطورة في مهمته، حيث تكون المجابهة والصد من قومه في المقام الأول، قبل أن تكون من عدوه فرعون. وكأن معجزة موسى بالعصا هي لقومه أولا، حتى تكون لهم

تصديقاً إلى أن موسى مرسل من عند ربه، وأن ما يأتي به موسى هو الحق من لدن الحق.

وهنا يجيب موسى ربه فيقول « ولكن ما هم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي، بل يقولـون لم يظهر لك الرب. فقال له الرب ما هذه في يدك. فقال عصا. فقال اطرحها إلى الأرض فطرحها إلى الأرض فصارت حية. فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى: مد يدك وأمسك بذنبها. فمد يده وأمسك بها فصارت عصا في يده، لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب »(٤).

تلك هي الآية الاولى التي ستكون لموسى أمام قومه، وليكون في تصديق القوم لها تسهيل لايمان فرعون وملئه بها، وإن في ذلك لذكرى لأولى الألباب.

وتأتي الآية الثانية حيث قال له الرب « أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج. ثم قال له رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه.. وإذا هي قد عادت مثل جسده. فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من مـاء النهر وتسكب على اليابسة فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دماً على اليابسة »(٥).

ويأتي تردد موسى في ذهابه إلى فرعون وحيداً لأنه في لسانه عقدة كما ذكر القرآن الكريم. ويكون رد الرب عليه بأنه يعلم ذلك عن موسى لأنه هو الذي خلق موسى وخلق البشر وهو عليم بهم جميعاً.

« فقال له الرب من صنع للانسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب. فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به. فقال: استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل. فحمي غضب الرب على موسى وقال: أليس هرون اللادي أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك. فحينما يراك يفرح قلبه. فتكلمه وتضع الكلمات في فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه. وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً وتأخذ في يدك هذه العصا التي تصنع بها الآيات.

... وقال الرب لموسى عندها تذهب لترجع إلى مصر انظر العجائب التي جعلتها في يدك واصنعها قدام فرعون، ولكني أشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب. فتقول لفرعون هكذا يقول

---

(٤) خروج ٤: ١ ـ ٥.

(٥) خروج ٤.

الرب. اسرائيل ابني البكر. فقلت له أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه. ها أنا أقتل ابنك البكر. وقال الرب لهرون إذهب إلى البرية لاستقبال موسى. فذهب والتقاه في جبل الله وقبله. فأخبر موسى هرون بجميع كلام الرب الذي أرسله وبكل الآيات التي أوصاه بها. ثم مضى موسى وهرون وجمعا جميع شيوخ بني إسرائيل. فتكلم هرون بجميع الكلام الذي كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب. فآمن الشعب. ولما سمعوا أن الرب افتقد بني اسرائيل وأنه نظر مذلتهم خروا وسجدوا »(٦).

وكانت المقابلة والمجادلة بين موسى وهرون وبين فرعون، ودخل الاثنان « وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيدوا لي في البرية. فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل. لا أعرف الرب. واسرائيل لا أطلقه.

فقالا: إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بالوبأ أو بالسيف.

فقال لهما ملك مصر: لماذا يا موسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله. اذهبا إلى أثقالكما. هوذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم »(٧).

وكانت نتيجة المقابلة الأولى مع فرعون على غير ما تمنى قوم موسى، فقد ظنوا في موسى وهرون مخلصين لهم من شقاء العمل وذل السخرة، ولكن فرعون قد زاد لهم في العمل، مما أثار القوم على موسى وأخيه هرون ورأوا في موسى وهرون رسل سوء ونذر شر.

« فرأى مدبرو بني إسرائيل أنفسهم في بلية إذ قيل لهم لا تنقصوا من لبنكم أمر كل يوم بيومه، وصادفوا موسى وهرون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون. فقالوا لهما ينظر الرب إليكما ويقضي لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا. فرجع موسى إلى الرب وقال: يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب. لماذا أرسلتني. فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم بأسمك أساء إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك »(٨).

إن الصورة التوراتية لموسى صورة تعكس لوم موسى وتحديه لربه، ولعله تحدي النفوس الضعيفة، والقلوب المتخاذلة الذي أسقطه كتبة التوراة على موسى، انعكاساً لنفوس القوم الذين تتهاوى نفوسهم وتتطاير أفئدتهم أمام كل صرخة وصيحة.

---

(٦) خروج ٤.
(٧) خروج ٥.
(٨) خروج ٥.

ولكن الرب يعود ليقف مع موسى « فقال الرب لموسى الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون. فإنه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه.

ثم كلم الله موسى وقال له: أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء. وأما باسمي يَهْوَه فلم أعرف عندهم. وأيضاً أقمت عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها. وأنا أيضاً قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي. لذلك قل لبني إسرائيل أنا الرب. وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم. وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة. وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً فتعلمون أني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم واسحق ويعقوب وأعطيكم إياها ميراثا. أنا الرب. فكلم موسى هكذا بني اسرائيل ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية.

ثم كلم الرب موسى قائلا. ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بني إسرائيل من أرضه. فتكلم موسى أمام الرب قائلا: هوذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي، فكيف يسمعني فرعون وأنا أغلف الشفتين. فكلم الرب موسى وهرون وأوصى معهما إلى بني إسرائيل وإلى فرعون ملك مصر في اخراج إسرائيل من أرض مصر »[٩].

لقد بقي قوم موسى ازاء دعوة موسى غلف القلوب صم الأفئدة. ولم يجدهم نفعاً آيات نبيهم، بل ازدادوا جحوداً لها، وانكاراً لنبوة موسى الذي ارسل ليخصلهم من عبوديتهم ومذلتهم. وأخذ موسى يكرر على مسامعهم وعد الرب المختلق لآبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب، إلى درجة جعل معها هذا الوعد ميراثاً أبدياً لهم كما تذكر التوراة.

ورب موسى سبحانه وتعالى يعلم أن قوم اسرائيل لن يطيقوا تنفيذ شرطه، فقد كتب في لوحه المحفوظ اصرارهم على الضلالة والشقاوة، فتلك هي نتيجة رحلتهم الطويلة عبر الحياة بصحبة أنبيائهم ورسلهم. من هنا كان وعد الله المختلق بالأرض إذا هم نفذوا شرطه سبحانه وتعالى، بل لقد جعل الأرض ميراثاً لهم اذا هم وفوا بعهد الله. ولكنهم مكتوب عليهم ألا ينفذوا وألا يوفوا، وما كتبه الله لا يمحوه بشر، ومن يضلل الله فلا هادي له.

ولعل في توضيح هذا موقف معلم من تلميذ بليد شقي مطموس على عقله، وهو يعده بأن يعطيه مكافأة هي ثوب المعلم نفسه اذا هو نجح في الامتحان، مع يقين المعلم أن تلميذه لن ينجح. وهكذا يبقى الشرط معلقاً، والوعد غير منفذ، للعلم اليقين بحال الموعود. فنقول لو

---

(٩) خروج ٦.

نجح لنال كذا، فاستحال النوال باستحالة النجاح.

وهكذا كان الوعد المكذوب مع بني اسرائيل، فلو وفوا لنفذ الشرط، فاستحال الوفاء بالوعد لاستحالة التنفيذ. وقد وصفهم الله سبحانه فيما وصفهم بالغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود والوعود.

وما كان تحريف القوم لتوراة موسى وتغييرها وتبديلها إلا ليخفوا حرمان الرب لهم الأرض والوعد. فأخذت أقلام الكتبة تعمل فيها وتتناقص. وغيروا كل شيء وبدلوه بما يتناسب مع أهوائهم وطبائعهم، فجعلوا التوراة كلها تدور حول الوعد المكذوب من خلال أنبيائهم ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى، في الوقت الذي لم يتركوا لهؤلاء الانبياء شيئاً من قداسة أو حرمة. وبات الكتبة يدورون حول هؤلاء الأنبياء تدليساً وتزييفاً، مما كشف الحقيقة حول توراتهم وهذه لا تمت بصلة إلى توراة موسى، بل إن الأضواء والدراسات قد سلطت على تلك الفئة التي كتبتها، حتى باتت محور علم النفس كما يقول الدكتور أحمد سوسة[10]. وهذه الفئة هي من بقايا الجماعة التي خرجت من مصر قبل ثمانمائة عام، وهي كذلك فئة منبوذة مشردة قابعة في زاوية الأسر، ولا وطن لها ولا قوة ولا حول.

وأخذت هذه الفئة تدون هذا التاريخ الذي لمست بعض خيوطه الغامضة وهي غاطسة في خضم الأحلام التي كانت تساورها وتستأثر بتفكيرها؛ فتارة تحلم بالحصول على القوة التي تسندها وتارة أخرى بالجاه الذي يرفع من منزلتها، ثم بالوطن الذي تأوي إليه. فاتخذت من إلهها (يهوه) ومن شخصية النبي موسى قوة دينية تشبثت بها على الأعداء. كما اتخذت من ارجاع أصلها إلى ابراهيم الخليل وحفيده يعقوب عليهما السلام النسب الأصيل الذي يؤهلها للاختيار. ومن كنعان اتخذت عقيدة الوطن الموعود الذي يفيض لبنا وعسلاً. وعزت كل ذلك إلى الإله يهوه وإلى ابراهيم ويعقوب، وكلهم منهم براء.

وليس من شك في أن كل جماعة تكتب تاريخها كما تحب وتهوى، لا كما تريد الحقيقة المجردة من كل غرض. فهي تجتهد في إظهار أصلها مقترناً بأسمى الشخصيات من الأجداد التي تتمتع بماض عريق وشهرة واسعة. وهذا كثير في التاريخ، مما يفسر لنا كيفية شيوع التقليد الذي تؤكده الكتابات اليهودية قديما وحديثاً من أن إبراهيم الخليل غادر العراق ومعه اليهود إلى فلسطين. في حين أن اليهود ظهروا بعد ابراهيم الخليل بأكثر من ألف عام. وقد قبلت الأجيال ذلك من غير تمحيص للتسلسل الزمني وملاحظة العصور بحسب تواريخها.

ويرى فرويد أن كتبة التوراة أدخلوا الآباء الأولين في ديانتهم واعتبروهم من أسلافهم

---

(١٠) أحمد سوسة هو يهودي عراقي قد أسلم.

بغية إعطاء دليل على أن اليهود ليسوا غرباء على أرض كنعان، وأنهم لم يدخلوها بصفتهم غرباء.

وقد لجأوا إلى هذه الحيلة الماهرة وهي أن إلههم يهوه قد وعدهم بالأرض التي كان يحتلها أسلافهم.. أولئك الأسلاف الذين كانوا يعبدون يهوه أيضاً تحت اسم آخر.

وهذا يكشف حقيقة هامة يؤكدها فرويد، وهي أن اليهود لم يكن لهم حق تاريخي في دخول أرض كنعان، وإنما افتعلوا هذا الحق افتعالا مما يؤكد أن استقرارهم في أرض كنعان مؤقتا لن يغير من حقيقة كونهم غرباء طارئين عليها.

تلك هي الحوافز النفسية التي كانت تحوم حول تفكير هذه الزمرة الكهنوتية عندما جلست لتدون تاريخ جماعتها مستمدة من حوادث وشخصيات تاريخية، معينة القواعد التي بنت عليها ما عنّ لها من أهواء، وتخيلات للتنفيس عما كانت تشعر به من ضيق ويأس وعقد نفسية. فاتخذت من حادث خروج موسى وجماعته من مصر قبل ثمانمائة عام وهي من بقايا هذه الجماعة اتخذت قصة مطولة تهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الأهداف الثلاثة وهي: الحصول على قوة الإله والنبي، والتشبه برفعة الأصل، والتمتع بالوطن الطيب الموعود [11].

وصدوراً عن توراة اليوم نعود إلى صورة موسى وإلى ذلك الموقف بالتحديد بينه وبين فرعون، فعلى موسى أن يقدم أمام فرعون عجائبه حتى يصدق برب موسى، ولكن هرون هو من يقدم معجزة العصا كما تحكي توراتهم «وكلم الرب موسى وهرون قائلاً: إذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة تقول لهرون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون، فتصير ثعباناً. فدخل موسى وهرون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب. طرح هرون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده. فصارت ثعباناً. فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم، فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب.

ثم قال الرب لموسى: قلب فرعون غليظ قد أبى أن يطلق الشعب اذهب إلى فرعون في الصباح، إنه يخرج إلى الماء. وقف للقائه على حافة النهر، والعصا التي تحولت حيّة تأخذها في يدك. وتقول له الرب إله العبرانيين أرسلني إليك قائلاً أطلق شعبي ليعبدوني في البرية. وهوذا حتى الآن لم تسمع. هكذا يقول الرب بهذا تعرف أني أنا الرب. ها أنا أضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحول دماً. فيعاف المصريون أن يشربوا ماء من النهر.

---

(١١) مفصل ٥٤٩ - ٥٥٠.

ولما كملت سبعة أيام بعدما ضرب الرب النهر. قال الرب لموسى أدخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني. وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع، فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك. عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع. فمد هرون يده على مياه مصر، فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر. وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر.

فدعا فرعون موسى وهرون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عني وعن شعبي فأطلق الشعب ليذبحوا للرب».

وهكذا في كل مرة يأتي موسى فيها بآية يعده فرعون بإطلاق شعبه إن هو طلب إلى الرب رفع البلية عنهم.

وكان الدم والضفادع والبعوض والذبّان، وإهلاك مواشي مصر كلها، ثم كانت الرعود والبرد. فكان برد ونار متواصلة في وسط البرد. وأصاب ذلك كله أرض مصر ما عدا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل يسكنون.

« فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرب غير أن غنمكم وبقركم تبقى. أولادكم أيضاً تذهب معكم. فقال موسى أنت تعطي أيضاً في أيدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب إلهنا. فتذهب مواشينا أيضاً معنا. لا يبقى ظلف لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا، ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتي إلى هناك.

ولكن شدد الرب قلب فرعون، فلم يشأ أن يطلقهم. وقال له فرعون اذهب عني. احترز. لا تر وجهي أيضاً. إنك يوم ترى وجهي تموت. فقال موسى نعما قلت. أنا لا أعود أرى وجهك».

وكان ذلك ميقات الخروج الذي حدّده الرب لموسى وقومه، وأمر الرب موسى أن تطلب نساء قومه ورجالهم من المصريات حليهن وأمتعتهن. ولعل في ذلك إشارة إلى استباحة قوم اسرائيل أموال غيرهم وسرقتها.

قال الرب لموسى « تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين.

وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر. فيموت كل بكر في أرض مصر. من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى. وكل بكر بهيمة. ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً. ولكن جميع بني إسرائيل لا يسنّن كلب لسانه إليهم لا إلى الناسُ ولا إلى البهائم. لكي تعلموا

أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل فينزل إلي جميع عبيدك هؤلاء، ويسجدون إليّ قائلين أخرج أنت وجميع الشعب الذين في أثرك، وبعد ذلك أخرج. ثم خرج من لدن فرعون في حموِّ الغضب.

وقال الرب لموسى لا يسمع لكما فرعون لكي تكثر عجائبي في أرض مصر. وكان موسى وهرون يفعلان كل هذه العجائب أمام فرعون. ولكن شدد الرب قلب فرعون. فلم يطلق بني إسرائيل من أرضه».

وأهلك الله كل بكر في بيوت المصريين. وكان صراخ عظيم في مصر. ودعا فرعون موسى وهرون ليلاً وأمرهما أن يخرجوا بقومهما وغنمهم وبقرهم. وخرجوا بل هربوا بعد أن سلبوا المصريين أموالهم. وكان الخروج أو الهروب في شهر أبيب الذي بات عيداً هو عيد الفصح، حيث تخلصوا فيه من عبودية المصريين.

ومضى قوم موسى في الطريق، ولم يزدهم طول الرحلة غير العناد والجحود والعصيان. والله سبحانه في كل مرة يفيض على أولئك من المغفرة والرحمة ما لعلهم يرعوون أو يردعون، وهو مع علمه بحال كل قوم وما يصيرون إليه يمد لهم ويمهلهم، فهو لا يعجل لبشر العذاب إذ ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ [١٢].

فالله عز وجل يزين لكل أمة أعمالها قبل أن ترجع إلى ربها بما قدمت من خلال إدراكها وعقلها وإرادتها ﴿كذلك زينّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ [١٣]. فلكل أمة أجل، وقبل الأجل يتمتعون ويلهون، مع ما يصحب ذلك التمتع واللهو من خروج عن طاعة الله ولكن هؤلاء في النهاية هم ﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ [١٤].

أقوام كثيرة قبل قوم إسرائيل وصلت إلى ما وصلت إليه من عمران وبنيان وجنات ونعيم وزرع. ولكنها مضت وانتهت ولم تبق غير كلمات في بطون التاريخ تشهد على ظلم الانسان وجحوده وكفره.

وفي كل يوم نشهد ونسمع آيات الله التي تطوي الأرض، وتخسف الأقوام التي اتخذت من الشيطان قريناً، فساء ذلك قريناً، فهناك زلزال، وهناك فيضان، وهناك أعاصير، وحرائق، ودمار، وخراب يمضي بالآلاف والآلاف فيكونون للبشر كل البشر معتبراً، فيزداد بهم المؤمن ايمانا، ولا يزداد الظالم إلا خساراً.

---

(١٢) سورة يونس: آية ١١.

(١٣) سورة الأنعام: آية ١٠٨.

(١٤) سورة هود: آية ٤٨.

ومن قوم اسرائيل في سلسلة حلقات الأقوام البائدة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط؟ هم جميعا للأجيال دروس، وهم لقوم اسرائيل سابقون، ولا بد للكفر من أن يلحق الكفر، وإن لنا في الحياة لعبرة، وإن لنا في التاريخ لمعتبراً.

وارتحل موسى بقومه من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور. فساروا ثلاثة أيام في البرية، ولم يجدوا ماء... فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب، فصرخ إلى الرب. فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً. هناك وضع له فريضة وحكماً. وهناك امتحنه. فقال إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك وتصنع الحق في عينيه وتصغي إلى وصاياه وتحفظ جميع فرائضه، فمما وضعته على المصريين لا أضع عليك. ثم جاءوا إلى إيليم وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة، فنزلوا هناك عند الماء. ثم ارتحلوا من إيليم وأتى كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين إيليم وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر. فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهرون في البرية. وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع.

فقال الرب لموسى: ها أنا أمطر لكم خبزاً من السماء فيخرج الشعب ويلتقطون حاجة اليوم بيومها. لكي أمتحنهم أيسلكون في ناموسي أم لا.. فقال موسى وهرون لجميع بني اسرائيل. في المساء تعلمون أن الرب أخرجكم من أرض مصر. وفي الصباح ترون مجد الرب لاستماعه تذمركم على الرب. وأما نحن فماذا حتى تتذمروا علينا. وقال موسى ذلك بأن الرب يعطيكم في المساء لحماً لتأكلوا، وفي الصباح خبزاً لتشبعوا لاستماع الرب تذمركم الذي تتذمرون عليه وأما نحن فماذا. ليس علينا تذمركم بل على الرب.

فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو إسرائيل قالوا بعضهم لبعض من هو. لأنهم لم يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا. هذا هو الشيء الذي أمر به الرب، التقطوا منه كل واحد على حسب أكله.

ففعل بنو اسرائيل هكذا والتقطوا بين مكثر ومقلل. وقال لهم موسى لا يبق أحد منه إلى الصباح. لكنهم لم يسمعوا لموسى بل أبقى منه أناس إلى الصباح. فتولد فيه دود وأنتن. فسخط عليهم موسى. وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب أكله. وإذا حميت الشمس كان يذوب.

ثم كان في اليوم السادس أنهم التقطوا خبزاً مضاعفاً عمرين للواحد. فجاء كل رؤساء

الجماعة وأخبروا موسى فقال لهم هذا ما قال الرب. غدا عطلة سبت مقدس للرب. أخبزوا مـا تخبزون واطبخوا ما تطبخون. وكل ما فضل عندكم ضعوه ليحفظ إلى الغد. فوضعوه إلى الغد كما أمر موسى. فلم ينتن ولا صار فيه دود. فقال موسى كلوه اليوم لأن للرب اليوم سبتا. اليوم لا تجدونه في الحقل. ستة أيام تلتقطونه وأما اليوم السابع ففيه سبت لا يوجد فيه.

وحدث في اليوم السابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا فلم يجدوا. فقال الرب لموسى إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياي وشرائعي » (١٥).

وارتحل كل جماعة بني إسرائيل من برية سين. ونزلوا في رفيديم. ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب. فقال لهم موسى لماذا تخاصمونني. لماذا تجربون الرب. وعطش هناك الشعب إلى الماء. وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلا ماذا أفعل بهذا الشعب. بعد قليل يرجمونني. فقال الرب لموسى مرّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل. وعصاك التي ضربت بها النهر. خذها في يدك واذهب. ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل » (١٦).

ومضى موسى بقومه في الصحراء حيث وصل بهم إلى برية سيناء في الشهر الثالث لخروجهم من مصر. وصعد موسى إلى الله « فناداه الرب من الجبل قائلا هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل. أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين... فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب » (١٧).

وبلغ موسى الرسالة إلى قومه ،وقد أوهموا موسى أنهم سينفذون ما يطلب الرب منهم. وعليهم أن يتهيأوا لحضور اللقاء بين موسى وربه. ثم دعا الله موسى إلى رأس الجبل « فصعد موسى. وقال الرب له حذر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون... فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد الى جبل سيناء. لأنك أنت حذرتنا قائلا أقم حدوداً للجبل وقدسه » (١٨).

وتلقى موسى من ربه الكلمات، وهي الوصايا التي نزلت بها جميع رسالات السماء من توحيد ورحمة وعدل وحب وطاعة والدين، إلى غير ذلك، وبلغ موسى قومه هذا كله ثم دعاه الرب ليصعد إليه من جديد ليعطيه الكلمات مكتوبة على لوحي الحجارة والشريعة والوصية

---

(١٥) خروج ١٦.
(١٦) خروج ١٧.
(١٧) خروج ١٧ : ٣ ـ ٥.
(١٨) خروج ١٩ : ٢١ ـ ٢٣.

التي كتبها الرب لتعليمهم « فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا لنا ههنا حتى نرجع إليكم. وهوذا هرون وحور معكم. فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما. فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل. وحل مجد الرب على جبل سيناء. وغطاه السحاب ستة أيام. وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل... وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة » (١٩).

وفي هذه المرحلة من غياب موسى عند ربه فجر القوم وكفروا وانحرفت بهم طبائعهم الملتوية عن طريق الحق والهدى إذ « لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه » (٢٠).

ولعل كفر قوم موسى في هذه الفترة بالذات، فترة تلقي موسى توراة ربه، إعلان وتحد لموسى فيما هو مقدم عليه، من إرساء فرائض الله، وتبليغ شرائعه والعمل بها. فقد أعلنها قومه صراحة حين صنعوا العجل وألهوه وعبدوه.

بل إن التوراة تمضي فتكفر هرون فتشركه معها فيما صنعوا، حتى إنها جعلته الآمر في هذا الشرك فقال لهم « انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هرون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هرون بنى مذبحاً أمامه. ونادى هرون وقال غدا عيد للرب. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب » (٢١).

إخفاق رهيب في امتحان التوحيد، والنتيجة معلومة في كتاب الله، ولكن ليشهد على أولئك رسلهم وأنبياؤهم والأقوام التي تجيء من بعدهم، ليشهدوا على عدم أحقيتهم، وعدم كفاءتهم لحمل الرسالة السماوية الموحدة، وأكد الرسل والانبياء هذا الاخفاق في قوم موسى، فلعنهم الله ولعنهم الرسل والانبياء ولعنهم اللاعنون.

---

(١٩) خروج ٢٤ : ١٣ - ١٨.
(٢٠) خروج ٣٢.
(٢١) خروج ٣٢.

ولم ينفع القوم ما جاء به موسى من شرائع وأحكام، وكأن ما جاء به موسى هو لموسى وحده، وهذا وحده يعلن استحالة تمكن موسى من شحذ الارادة وتفجير القوة في أعماقهم مما يعطيهم الصبر والجلد على تبليغ ما يطلب إليهم، فالإرادة قد انتفت، والقلوب قاسية كالحجارة بل أشد قسوة، والرقاب غليظة. ومثل أولئك غير أمناء على حمل الأمانة التي لا تحمى إلا بالتضحية والفداء بالنفس والروح والدم. ولكنهم كانوا موطن الاتعاظ لمن حملوا رسالة السماء من بعدهم حتى تتمخض الأمم والشعوب من خلال الابتلاءات عن خير أمة تعبد الله وتضحي بأرواحها في سبيل الله.

لقد أعلم الله سبحانه وتعالى بموسى بحال قومه بعد أن تركهم إلى الجبل « اذهب انزل، لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم فأصيرك شعباً عظيماً »[22].

إن التأكيد الذي رافق موسى ومن بعده عيسى هو أن يجعل الله منهم شعباً عظيماً، شرطه الإيمان، وصفته الطاعة في منهاج الله، وهذا لا يتأتى إلا بإفناء من يحيدون عن هذا السبيل، فبعد غضب الله يكون الافناء، الذي ينتج عنه الشعب العظيم الإيمان بالله الواحد. وبالايمان وحده يقوى الشعب على حمل الرسالة، وبه تتحصن الأمة أمام مزالق الشيطان، وبه تبقى راية الله مرفوعة فوق رؤوس الطغاة والجبابرة، وبالايمان وحده ترخص الأرواح وتتضاءل الحياة.

ولقد كان عقاب الرب لقوم موسى أصحاب العجل أن يقتل بعضهم بعضاً، والقتل بأيديهم أقسى من قتل سواهم لهم، وذلك يحسم الكفر وينفيه ويقطع دابر الكفار، حتى تمضي شريعة الله على الأرض من خلال أمم وشعوب وأقوام، وتخلص الأمة التي تقدم أرواحها فداء هذه الشريعة الالهية.

وكان على موسى أن يمضي مع من يبقى من القوم بعد كل عذاب سماوي وعقاب إلهي في الصحراء، وكان التيه، وكان التحريم على قومه، وبه تحرم عليهم الأرض التي بارك الله حولها، وفيها نبتت أول بذور التوحيد. وقد ذكرت التوراة أن ملكي صادق ملك شاليم كان كاهنا لله العلي وهو الذي بارك أبرام الذي أرسل بالتوحيد أساساً لرسالات السماء المكتوبة إلى الأرض.

وأرض كنعان العربية قد تهيأت منذ الأزل للتواصل مع السماء، واستقبال الرسل والأنبياء بدءاً بابراهيم ومن بعده اسحق ويعقوب. وشرط أولئك جميعاً أن يسلموا لله وأن يعبدوه

---

(٢٢) خروج ٣٢.

وحده لا شريك له، فمن يؤمن بهذا كله فهو من نسل ابراهيم، ومن يكفر فإن الله بريء منه وابراهيم واسحق ويعقوب.. وموسى وعيسى.

وليكن بعد ذلك المضي إلى أرض كنعان التي كان الايمان والتوحيد شرط دخولها. لقد طلب الرب من موسى أن يرسل جواسيس إلى أرض كنعان ليبلغوا موسى صفة أهلها وأرضها وزرعها وثمرها وخيرها. وانتفض في أعماق الجواسيس الجبن المتأصل، والهلع المزمن لما رأوا من الأرض المعمورة بأهلها المعتدين بقدراتهم. فقالوا لموسى «قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً. وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب. والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل. والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن... وأما الرجال الذين صعدوا مع موسى فقالوا لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا. فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها في بني إسرائيل قائلين الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها هي أرض تأكل سكانها. وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة وقد رأينا هناك الجبابرة. بني عناق من الجبابرة. فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم» [٢٣].

لقد رافق التخاذل خطى قوم موسى، وكان الجبن ينتصب في أعماقهم مع كل خطوة يخطونها، وكان الصراخ والشكوى من هذه الدعوة إلى دخول الأرض. وبات ذلك شيئاً اقسى وأصعب من حالهم الذي كانوا عليه في مصر، بل إن عبوديتهم ومذلتهم هناك باتت مستغبة إلى جانب المهمة المقدسة التي أرسلوا لأجلها.

«فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة، وتذمر على موسى وعلى هرون جميع بني إسرائيل. وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر. فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر.

فسقط موسى وهرون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل.. وقال الرب لموسى حتى متى يهينني هذا الشعب، وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم. إني أضربهم بالوبأ وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم» [٢٤].

مرات كثيرة ومرات جرب الرب بني اسرائيل، وفي كل هذه المرات قد أخفقوا في

---

(٢٣) عدد ١٣.

(٢٤) عدد ١٤.

تجريبهم ولقد استنفدت الأسباب والوسائل، ومضى فيهم حكم الرب إذ لا فائدة ترجى منهم ولا خير يؤمل. وليس من عقاب غير استئصال شأفتهم. فلقد حرمت عليهم الأرض. وقضى الله فيهم أن يتيهوا في الصحراء أربعين سنة فينقضي جيل المعجزات التي قارعوها.

ولن يكون للجيل الذي يخلفهم تلك المعجزات السماوية بيد موسى، فرحلة موسى تنتهي بانتهاء ذلك الجيل الأول، ومهمته تنقضي بانقضائهم وفنائهم، وما جاء به من وصايا وشرائع هي لمن يلي أولئك ويخلفهم، حيث يصلون بها إلى مرحلة الادراك البشري، وذلك يعني تنفيذ الوصايا والعمل بها وفق ما يهدي إليه العقل والمدارك، بعيدا عن معجزات هي في أصلها لمن لم تقو عندهم الإرادة والإدراك والتمييز، أو من هم في مرحلة ما بعد الطفولة البشرية التي رافقتها التجارب الكثيرة والمعجزات الحسية والتوجيه السماوي المباشر بيد موسى وهرون.

أما حين يعطل الادراك والارادة فإن حكم الله هو النافذ، وحين يُصر القوم على كفرهم مع يقينهم بأنه هو الضلال المبين فإن العذاب على من كفر وتولى لقد كلم «الرب موسى وهرون قائلا حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي. قل لهم حي أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني. في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمروا علي. لن تدخلوا الأرض. فجثثكم أنتم تسقط في القفر. وبنوكم يكونون رعاة في القفر اربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر. أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علي. في هذا القفر يفنون وفيه يموتون» (٢٥).

فبعد أربعين سنة جاء جيل هو امتداد لما قبله، ولكنه لن يكون مؤيداً بمعجزات تأخذ بيده، كما كان لسابقه، فإن على هذا الجيل أن يكابد ويعاني ويصبر ويعمل. ولكن ماذا سيكون عليه هذا الجيل بعيدا عن موسى ومعجزات ربه؟ وهل سيرجى منه خير بعد ذلك؟ لن يكون إلا كمن سبقه من جيل العجل. لقد قال فيهم سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد ﴿فخلف من بعدهم خلْف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه. والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ (٢٦) وهو الجيل نفسه الذي قالت فيه توارتهم «إنهم جيل متقلب أولاد لا أمانة فيهم» (٢٧).

---

(٢٥) عدد ١٤.

(٢٦) سورة الأعراف: آية ١٦٩.

(٢٧) تثنية ٣٢.

هو الجيل الذي لا أمانة له، ولن يكون بالتالي كفؤاً لحمل الأمانة التي فني آباؤهم لأجلها عقاباً وعذاباً. ولكن يكونوا إلا أبناء عبدة العجل الذين جعلوا من موسى مغضوباً عليه من ربه. فقالت التوراة بلسان موسى «وعليّ أيضاً غضب الرب بسببكم قائلا وأنت أيضاً لا تدخل إلى هناك، يشوع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك»[٢٨].

وانتهى دور موسى مع القوم الضالين، ولم تغيرهم أدنى تغيير دعوة موسى وشريعته ووصاياه، ولم يؤثر فيهم هدى الله أيسر تأثير، فإن قلوبهم كالحجارة بل أشد قسوة، لقد تفجر الماء من الصخر أمام عيونهم، ولم تتفجر الهداية في أعماقهم.

ولعل موسى قد انتهى مع قومه بعد الصراع الطويل للشر والشرك في نفوسهم إلى النقطة التي بدأ منها معهم. ولم يجد منهم ما يجد المعلم من تلاميذه الذي طالت بينه وبينهم أيام بل سنوات الإلف والفضل والتهذيب والتعليم من شكر ووفاء.

وانتقل موسى إلى ربه انتقالة شوهتها توراة قومه، ولم ينس كتبة التوراة أن يؤكدوا الوعد المكذوب بلسان موسى وهو يتضرع إلى ربه عله يسمح له بدخول الأرض، ولكن غضب الرب لم يكن ليسع رسوله ونبيه كما شاءت توراة اسرائيل ونسمع موسى يتوسل إلى ربه «دعني أعبر وأرى الأرض الجيدة التي في عبر الأردن. هذا الجبل الجيد ولبنان. لكن الرب غضب عليّ بسببكم ولم يسمح لي بل قال لي الرب كفاك لا تعد تكلمني أيضاً في هذا الأمر. اصعد إلى رأس وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق. وانظر بعينيك لكن لا تعبر هذا الأردن»[٢٩].

ولكن رب إسرائيل يعود هو نفسه إلى تكليم موسى الذي خونته التوراة «وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلا اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل ملكاً. ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هرون أخوك في جبل هور وضم إلى قومه. لأنكما خنتماني في وسط بني اسرائيل. إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل. فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك التي أنا أعطيها لبني إسرائيل»[٣٠].

ويمضي موسى، بعد أن ترك قوماً قد تبرأ منهم أمام ربه حين أعلن يأسه من هدايتهم وصلاحهم. وغضب الله عليهم ولعنهم. وتعود البشرية إلى الانتظار من جديد لذلك الذي

---

(٢٨) تثنية ١.
(٢٩) تثنية ٣.
(٣٠) تثنية ٣٢.

بشرت به توراة موسى، إنه المخلص المسيح عيسى ابن مريم، ولكنها بشرت بخاتم الأنبياء رسول البشرية الهادي الأمين.

ولم يكن حظ المخلص بأوفر من حظ أخيه موسى الكليم مع قوم اسرائيل، وانتهى ابن مريم معهم إلى حيث بدأ، قوم غلاظ الرقاب، قساة القلوب، رفضوا الهداية وكتب عليهم الضلال، ولعنهم عيسى عليه السلام، لعنة أغلقت عليهم كل باب من أبواب حملة الأمانة وحماتها. اذ ليس يحملها ولا يحميها إلا من يسترخص الروح لأجلها. وكانت الأمة التي هي خلاصة المؤمنين، وصفوة المصطفين، وكان رسولها محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد كرمه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بنعمة الجهاد، وما كان هذا الفضل إلا عن العلم المتسبق المسطور في اللوح المحفوظ.

وكأن البشرية لم تخلق إلا لتنخل عن أمة الاسلام، وكأن الخلق لم يخلقوا إلا للتهيئة ولاستقبال سيد المرسلين. وكان الجهاد جهاد أمته، التي هي خير أمة أخرجت للناس، فكان اصطفاؤها هو الاصطفاء الحق، وكان اختيارها هو الاختيار الذي شاءه الله سبحانه وتعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [٣١] وكان الأمر الالهي الصريح إلى رسول الهدى في الجهاد فقال سبحانه ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ [٣٢].

(٣١) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

(٣٢) سورة التحريم: آية ٩.

لا خلقيات التوراة
في السلم والحـرب

لقد أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله الواحد، وليخلص بني إسرائيل من ظلمه ويخرجهم من مصر، حيث كانوا يهيأون للرسالة الكبرى، ولتكون فاتحة رسالات السماء المكتوبة إلى الأرض.

وكان لموسى عليه السلام من القوة النفسية والجسدية ما يعينه على حمل الأمانة الخطيرة، ويضطلع بالمهمة الشاقة التي أرسل لها، وهي قيادة قوم اسرائيل وترويضهم، وتخليصهم مما هم عليه من صفات مرذولة، وطبائع معوجة، لا يستطيع لها كبحاً إلا من كان مثل موسى في عصر موسى.

وإن تأييد الله سبحانه وتعالى لموسى ولقومه مما يستقيم مع طفولة البشرية، بما هي عليه من ضعف ادراك وفراغ روحي لا يملأه غير الايمان الصحيح بالله الواحد الاحد. ومما يتفق مع ما يحيط به من ظروف وملابسات، هي أحوج ما تكون إلى التأييد السماوي والأيد والقوة والجلد والصلابة التي تفجر الماء من الصخر، كما فجرتها معجزة موسى.

ولم يؤثر في قوم موسى معجزاته الكثيرة من خلال العصا، أو التي كانت من الله سبحانه وتعالى في الصحراء، بل إنهم لم يتزحزحوا عما كانوا عليه في مصر، وانتهى موسى إلى النقطة التي بدأ منها مع قومه. نقطة اليأس من صلاحهم وهدايتهم. حتى دعا ربه فقال ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ [1].

لقد اراد موسى أن ينقل قومه نفسيا وجسديا من حياة المذلة والخنوع إلى حياة العزة والقوة التي تهيئهم لحمل الأمانة والدفاع عنها والموت في سبيلها. والسبيل إلى هذا أن يقاتل قوم موسى بذور الشرك في نفوسهم وأن يقتلوا شيطانها، ولكنهم رعوا هذه البذور وراعوا شيطانها حتى باتوا حلفاء وأتباعاً، يأمرهم فيطيعون، ويطلب إليهم فينفذون.

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٥.

لقد خالفوا موسى وكفروا بربه حين أطاعوا شيطانهم، ولم ينجحوا في أي من امتحانات رسولهم إليهم، ولكن الإخفاق المتعمد، والفشل المدبر هو ما واجهوا به موسى ودعوة ربه.

ولعل موسى عليه السلام قد رأى نذر إخفاقهم وكفرهم منذ اللحظة التي وقف فيها أمام فرعون. ولكن الرسالة لا بد أن تبلغ، والمهمة التي كتبت عليه لا بد أن يؤديها كما رسمها الله، حتى يصل إلى منتهاها.

وتتوالى أمام موسى نذر الإخفاق الذريع لقوم دون أن يهن أو يكل في رحلة طويلة صعبة شاقة، يسوق فيها هياكل بلا أرواح، وأجساداً بلا عقول، حتى وصل بهم إلى مشارف الأرض الموحدة منذ الأزل، ونزلوا عند جبل حوريب الذي جسد نكوصهم وتخاذلهم وجبنهم الذي كانوا عليه في مصر، دون أن يتغير منه شيء.

وأخذوا يدورون حول الجبل ويدورون، تهرباً من المضي الى الأمام إلى حيث ينشرون دين التوحيد، وكأن اقدامهم قد شدت إلى ذلك الجبل، فلا يريدون الابتعاد عنه فقال لهم موسى:

« ثم كلمني الرب قائلا كفاكم دوران بهذا الجبل »[٢]. ثم إن « الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلاً: كفاكم قعود في هذا الجبل تحولوا وارتحلوا إلى جبل الأموريين. ثم ارتحلنا من حوريب وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف الذي رأيتم في طريق جبل الأموريين كما أمرنا الرب إلهنا. وجئنا إلى قادش برنيع. فقلت لكم قد جئتم إلى جبل الأموريين الذي أعطانا الرب إلهنا. انظر قد جعل الرب إلهك الأرض أمامك اصعد تملك كما كلمك الرب إله آبائك. لا تخف ولا ترتعب. فتقدمتم إلي جميعكم وقلتم دعنا نرسل رجالا قدامنا ليتجسسوا لنا الأرض ويردوا إلينا خبرا عن الطريق التي نصعد فيها والمدن التي نأتي إليها. فحسن الكلام لدي فأخذت منكم اثنى عشر رجلا. رجلا من كل سبط فانصرفوا وصعدوا إلى الجبل وأتوا إلى وادي أشكول وتجسسوه، وأخذوا في أيديهم من أثمار الأرض ونزلوا به إلينا وردوا لنا خبرا وقالوا. جيدة هي الأرض التي أعطانا الرب إلهنا.

لكنكم لم تشاءوا أن تصعدوا. وعصيتم الرب إلهكم. وتمرمرتم في خيامكم وقلتم الرب بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا. إلى أين نحن صاعدون. قد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين. شعب أعظم وأطول منا. مدن عظيمة محصنة إلى السماء. وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك. فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا منهم. الرب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم حسب كل ما فعل معكم في مصر أمام أعينكم.

---

(٢) تثنية ١ : ٣.

وفي البرية حيث رأيت كيف حملك الرب إلهك كما يحمل الانسان ابنه في كل الطريق التي سلكتموها حتى جئتم إلى هذا المكان. ولكن في هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلهكم السائر أمامكم في الطريق ليلتمس لكم مكاناً لنزولكم في نار ليلاً ليريكم الطريق الذي تسيرون فيها وفي سحاب نهاراً. وسمع الرب صوت كلامكم فسخط وأقسم قائلاً: لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لآبائكم. وعليّ أيضاً غضب الرب بسببكم قائلاً وأنت أيضاً لا تدخل إلى هناك.

وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة وبنوكم الذين لم يعرفوا اليوم الخير والشر فهم يدخلون إلى هناك ولهم أعطيها وهم يملكونها. وأما أنتم فتحولوا وارتحلوا إلى البرية على طريق بحر سوف.

فأجبتم وقلتم لقد أخطأنا إلى الرب. نحن نصعد ونحارب حسب كل ما أمرنا الرب إلهنا. وتنطقتم كل واحد بعدة حربه واستخففتم الصعود إلى الجبل. فقال الرب لي قل لهم لا تصعدوا ولا تحاربوا لأني لست في وسطكم لئلا تنكسروا أمام اعدائكم. فكلمتكم ولم تسمعوا بل عصيتم قول الرب وطغيتم وصعدتم إلى الجبل. فخرج الأموريون الساكنون في ذلك الجبل للقائكم وطردوكم كما يفعل النحل وكسروكم في سعير إلى حرمة. فرجعتم وبكيتم أمام الرب ولم يسمع الرب لصوتكم ولا أصغى إليكم. وقعدتم في قادش أياما كثيرة كالأيام التي قعدتم فيها »[٣].

ثم تحولنا وارتحلنا إلى البرية على طريق بحرسوف كما كلمني الرب ودرنا بجبل سعير أياما كثيرة. ثم كلمني الرب قائلا كفاكم دوران بهذا الجبل. تحولوا إلى الشمال.. الآن قوموا واعبروا وادي زارد. فعبرنا وادي زارد. والأيام التي سرنا فيها من قادش برنيع حتى عبرنا وادي زارد كانت ثمان وثلاثين سنة حتى فني كل الجيل رجال الحرب من وسط المحلة كما أقسَمَ الرب لهم. ويد الرب أيضاً كانت عليهم لإبادتهم من وسط المحلة حتى فنوا[٤].

إبادة كاملة لجيل كامل ذليل جبان، وإفناء لجيل الخنوع والجحود، إذ لعل هذا يخلف جيلا مغايراً ولكنه كان شر خلف لشر سلف.

وقد صور القرآن الكريم ذلك الموقف كاملا ولكن في خطوط عريضة تكشف الضوء عن فئة من الخلق لم يكن هناك منذ بدأ الخلق أشد جحودا وعقوقاً وكفراً منها. وهي الفئة الملعونة من الله ومن الرسل والأنبياء ومن اللاعنين. فقال سبحانه في محكم آياته ﴿وإذا قال

---

(٣) تثنية ١.

(٤) تثنية ٢.

موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون . أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم. أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [٥].

لقد حرمت الأرض على قوم موسى حيث لم يرجَ منهم الخير لنصرة دين الله ولأنهم فعلوا الشر في عيني الرب كما تقول التوراة، وقضي على الجيل الاول في البرية، وجاء الجيل الجديد بعد أربعين سنة قضوها مع موسى في منطقة قادش، وهي آخر نقطة نزلوها قرب جبل هو، في طرف أرض أدوم. وهناك مات هرون في السنة الأربعين لخروجهم من أرض مصر.

إن عدة الدخول إلى الأرض المقدسة هي عدة نفسية في المقام الأول، وليس عتاداً حربياً.

وإن هذه العدة هي التسلح بالجلد والمناعة والقوة والارادة والصبر، وذلك جميعه يصدر عن الايمان العميق المتغلغل في ثنايا النفوس، حتى يكونوا أهلا لحمل الرسالة، التي لا تحمى إلا بيد أصحابها، ولا تصان إلا ببذل دمائهم، ولا تعلى رايتها إلا باسترخاص الحياة.﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [٦].

فقوم موسى لم يكونوا ممن يشرون أنفسهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، فكان لهم العقاب تلو العقاب، وكان لهم فوق كل عقاب تحريم دخول الأرض، ثم التيه الأبدي الذي بات لهم معلماً.

ولم يشأ الله سبحانه لموسى أن يدخل الأرض، حتى يتأكد لدى قوم اسرائيل من بعده تحريم الدخول، فلو دخل موسى الأرض، لكان ذلك حجة لكل صهيوني في ملكية الأرض، ولكنها تبقى هي الأرض العربية الفلسطينية. وقد انتقل موسى إلى جوار ربه في شرق النهر

(٥) سورة المائدة: آية ٢٠ - ٢٦.

(٦) سورة التوبة: آية ١١١.

ودفن هناك، فإن تم بعد ذلك بأزمان طويلة شيء من الدخول، فإنما هو دخول الطارىء الغريب الذي لا بد أن ينتهي بعودة الحق الى أهل الحق.

وأعود إلى التاريخ الذي يرى رأياً آخر في عدم دخول موسى الأرض، فيقول: إن أرض كنعان كانت تشهد حرباً بين رعمسيس والحيثيين، حيث خاض رعمسيس حرباً ضد غريمه مواتاليس ملك الحيثيين في قادش (شمال فلسطين) وكاد الحيثيون أن ينتصروا فيها لولا صمود رعمسيس، ووصول الامدادات له مما انتهى بعقد صلح بين الطرفين وتوقيع ميثاق دفاع مشترك ضد أي غزو خارجي أو ثورة داخلية سنة ١٢٦٩ ق. م[٧].

ولعل الخطر يكمن في هذا الرأي التاريخي الذي يرى أن موسى قد اضطر إلى ذلك حين أحس بأنه لن ينجح في إكمال خطته، ولكن منطق التاريخ قد يتعارض مع منطق الدين؛ فإن الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم يستوفون آجالهم بعد استنفاد مهمتهم، وتبليغ رسالتهم، وإشهاد الله سبحانه على ذلك. فلو بقي من مهمة موسى شيء لما فرط فيه الشارع، و﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٨].

يقول المارشال اللورد مونتغمري بأن المهمة التي ألقيت على عاتق موسى كانت في غاية الصعوبة وهي قيادة قومه الذين كانوا شعباً من رعاة مصر إلى أرض كنعان. كما أنه ينكر أن بني اسرائيل قد تاهوا في الصحراء أربعين سنة، حيث يعتقد أن موسى كان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع أن يحقق الجزء الثاني من مهمته؛ لأنه كان ينطوي حتما على قتال كثير إلا إذا مات المتبرمون القدامى من قومه، وظهر مكانهم جيل جديد مطعم بروح القتال، ومدرب على الحرب.

ولقد أدرك موسى ـ كما يقول مونتغمري ـ أنه ليس بالامكان تحويل أناس مستعبدين إلى شعب مقاتل في أسابيع قليلة أو حتى في أشهر، وأنه لا بد من روح جديدة تبعث فيهم ـ وهو أمر يتطلب وقتاً لا يستهان به ـ وكان من العبث الإقدام على غزو أرض كنعان من غير خطة سليمة يمكن تنفيذها بسرعة والوصول إلى الهدف المنشود بغير انتكاسات. وكان اجتناب الانتكاسات أمراً هاماً، إذ إن الانتكاس في المعركة كان يؤدي في الغالب إلى فقدان الثقة بقيادة موسى.

لذلك قرر موسى ـ كما يذكر المؤرخ ـ إلغاء خطته الرامية إلى التقدم نحو أرض كنعان من الجنوب، وصمم أن يجعل قومه يتنقلون في الصحراء مدة من الزمن تكفي لتحويلهم إلى

---

(٧) مفصل: ٥٦٢.

(٨) سورة يونس: آية ٤٩.

قوة وطنية صلبة مدربة على القتال[٩].

لقد قلل روح المقاومة لدى قوم موسى ما جبلت عليه نفوسهم من خوف وجبن وضعف ومذلة، إذ كان عليهم أن يواجهوا أهل فلسطين الذين عرفوا بالصلابة والشجاعة في القتال في سبيل الحفاظ على أرضهم، وذلك حمل موسى على الاتجاه شرقاً إلى الأردن، حيث قاومه سكانها من الأدوميين والعموريين. فاضطر موسى ومن معه إلى سلوك طريق طويلة إلى خليج العقبة ثم إلى جهات معان ثم إلى مأدبا (ميدبا كما تذكر التوراة) مارين دائماً بتخوم الصحراء. وهناك توفي موسى بعد أن رسم لقومه سياسة غزو فلسطين التي تسلمها من بعده يشوع بن نون[١٠].

إن السياسة التي نسبها كتبة التوراة إلى موسى هي من صنع الكتبة أنفسهم، وهم يعبرون عن بني اسرائيل الذين كانوا في ذل المنفى والأسر. وهذه السياسة قد أباحت التقتيل والتذبيح والتحريق واستخدام كل وسائل التعذيب، ناسبين ذلك كله إلى الهم الخاص بهم، وهو ليس إله السموات والأرض، وإنما هو إله من صنع خيالهم المريض، وقلوبهم المتعطشة إلى سفك الدماء.

ويكاد نقض العهد أن يكون أحد عناوين هذه الفئة من قوم اسرائيل، وذلك يشير إلى أول عهد نقضوه مع الله سبحانه، فوجبت به اللعنة عليهم فقال سبحانه ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[١١].

وهذا رب اسرائيل يخاطب موسى فيقول «احفظ ما أنا موصيك اليوم.. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخاً في وسطك»[١٢].

ومن خلال نقض العهد تبرز سلوكيات قوم اسرائيل ولا أخلاقياته التوراتية التي تسري فيهم سريان النار في الهشيم، لأنها لا تحتاج إلى عناء التطبيق والتنفيذ، فطريق الشر والإثم أيسر على الانسان، حيث لا مكابدة ولا مجاهدة لشيطان النفس، لأنهم أنصار له.

نقرأ في التوراة التي تقول «فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب. لا تقل في قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلا: لأجل بري أدخلني الرب لأمتلك هذه الأرض. لأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك

---

(٩) مفصل ٥٦٣.

(١٠) السابق ٥٦٢.

(١١) سورة المائدة: آية ١٣.

(١٢) خروج ٣٤: ١١.

أرضهم بل لأَجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك. ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب. فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة »(١٣).

لقد نفذ قوم موسى وصاياه التوراتية المزعومة بحذافيرها، لأن تنفيذها ينفس عن مكبوتاتهم. وباتت هذه الوصايا خطة يلتزمون بها في حروبهم الغادرة، التي تقوم أول ما تقوم على المباغتة أو المفاجأة من خلال ما قص القرآن الكريم ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ (١٤).

لقد نفذ يشوع الوصايا المكتوبة في التوراة أرادها رجال حربهم، تنفيذاً ليس ملاكه الايمان والتوكل على الله، فجاءت مباغتتهم لأريحا مباغتة من هم من نسل عبدة العجل. لقد غزوها عام ١١٩٠ ق.م. وحاصرها حتى اقتحمها ودكها ودمرها وأحرقها وقتل جميع سكانها، ولم يسلم من أهلها غير راحاب الزانية وبيت أبيها « وسكنت في وسط إسرائيل إلى اليوم »(١٥). ولعل نساء إسرائيل اليوم هنَّ من نسل راحاب هذه التي دلت يشوع على عورات المدينة.

ولكن في خطة غزو أريحا ما يوحي بأن الغزاة كانوا بأعداد محدودة مسلحة، وعلى فترات، بل إن من المؤرخين من يشك في أمر الغزو، ويظن أن الدخول كان تسللا خلال زمن طويل (١٦).

وهذا نفسه يشير إلى معلم هام تشير إليه المؤرخة كنيون، وهو أن مملكة داود العبرانية سنة ١٠٠٠ ق.م لم تؤسس إلا بعد مرور مدة طويلة على غزو فلسطين، مما يدل على أن الغزو لم يكن بقوة كبيرة وإنما بعصابة صغيرة استولت على الأرض تدريجيا ثم جمعت تحت سيطرتها تدريجيا أيضاً القبائل الحليفة أي العبيرو الآخرين، وذلك على الأرجح بتأثير المعتقدات الدينية. لذلك يجب أن لا نفاجأ حين لا نجد سجلا أثرياً يدل على غزو ضخم عندما تم تدمير أريحا (١٧).

وهذا كله يؤكد ما نعتقده في أن تحريم الدخول إلى الأرض كان عاماً وأبدياً، وأي

---

(١٣) تثنية ٩.

(١٤) سورة المائدة: آية ٢٣.

(١٥) يشوع ٦.

(١٦) محمد أديب العامري: عروبة فلسطين في التاريخ ص: ١٢٠ - المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

(١٧) السابق: ص ١٢٠.

دخول لقوم اسرائيل بعد موت موسى في شرقي النهر هو دخول الطارىء الغريب المؤقت الذي لا بد سيصل إلى منتهاه حين تتكاتف أمة الاسلام لتحرير فلسطين بقيادة أبنائها مسترخصين الأرواح، وباذلين المهج لإعلاء كلمة الله فيها بعد أن نكستها يد الكفر والضلال ممن عبدوا العجل فخانوا الله ورسله وأنبياءه.

لا قانون خلقي يحكم حرب اسرائيل، ما دامت توراتهم المشرع، بما تحض عليه من إبادة وفتك واستعباد وخنوع واستيلاء على كل ما هو للبشر. فإذا «خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلا ومراكب قوم أكثر منك فلا تخف منهم، لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر...

حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك.

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً، الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم.

إذا حاصرت مدينة أياما كثيرة محارباً إياها لكي تأخذها فلا تتلف شجرها بوضع فأس عليه إنك منه تأكل. فلا تقطعه. وأما الشجر الذي تعرف أنه ليس شجراً يؤكل منه فإياه تتلف وتقطع وتبني حصناً في المدينة التي تعمل معك حرباً حتى تسقط»[١٨].

لقد نفذ يشوع سياسة التوراة الحربية في أريحا تنفيذاً لم يترك منه شيئاً، بل إنه أضاف إليه ما تراكم في نفوسهم على مر العصور من حقد وضلال وسفك للدماء.. وقال يشوع للشعب «اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكل من معها في البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما... فهتف الشعب وضربوا بالأبواق وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور من مكانه وصعد الشعب إلى المدينة.. وحرموا كل ما

---

(١٨) تثنية ٢٠.

في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها، وإخوتها وكل مالها؛ وأخرجا كل عشائرها، وتركاهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها» (١٩).

الصورة تتكرر منذ غزا يشوع وعصابته الأرض إلى أيامنا الحاضرة. نهب وسلب وتقتيل وتذبيح وتحريق، ظناً منهم أن ذلك يقضي على أهل الأرض ويفنيهم، ويشرد من يبقى منهم رعباً وفزعاً، ولكن الأرض رحم خصب بأبنائه الذين نذروا أنفسهم لله وللأرض.

وما فعله عبدة العجل بأريحا فعلوه بعاي «فقال الرب يشوع.. خذ معك جميع رجال الحرب وقم أصعد إلى عاي. انظر قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. فتفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم. اجعل كمينا للمدينة من ورائها. فقام يشوع وجميع رجال الحرب للصعود إلى عاي وانتخب يشوع ثلاثين ألف رجل جبابرة البأس وأرسلهم ليلا وأوصاهم قائلا: «انظروا أنتم تكتمون للمدينة من وراء المدينة. لا تبتعدوا من المدينة كثيراً وكونوا كلكم مستعدين. وأما أنا وجميع الشعب الذي معي فنقترب إلى المدينة ويكون حينما يخرجون للقائنا كما في الأول أننا نهرب قدامهم. فيخرجون وراءنا حتى نجذبهم عن المدينة. لأنهم يقولون إنهم هاربون أمامنا كما في الأول فنهرب قدامهم. وأنتم تقومون من المكمن وتملكون المدينة.. ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار كقول الرب تفعلون. انظروا قد أوصيتكم.

ودخلوا المدينة وأخذوها وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار. وضربوا رجال عاي. وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت. وأما ملك عاي فأمسكوه حياً وتقدموا به إلى يشوع. وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية، حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا أن جميع إسرائيل رجعوا إلى عاي وضربوها بحد السيف. حتى حرم جميع سكان عاي. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع. وأحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبديا خرابا إلى هذا اليوم. وملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء. وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم» (٢٠).

---

(١٩) يشوع ٦.

(٢٠) يشوع ٨.

في مثل هذه اللاأخلاقيات الحربية الاسرائيلية يصبح من العبث أن نذكر ألفاظ الانسانية والرحمة والعدل وسواها، لأنها لا توجد أصلاً في توراتهم التي هي منهاج حياتهم على مر الأيام والأزمان.

وتوجه يشوع وعصابته إلى اورشليم القدس، ولكنها قاومت الغازي طويلا ولم تستسلم، ويبدو أن يشوع كان يبدأ بالمدن الفلسطينية الضعيفة التحصين، فيدكها ويحرم سكانها. فقد ترك القدس حين استعصت عليه. وأخذ مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها وكل نفس بها ولم يبق شارداً وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا.

ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها. فضربها بحد السيف وكل نفس بها لم يبق شارداً، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا.

ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها، فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل فأخذها في اليوم الثاني وضربها بحد السيف، وكل نفس بها حسب ما فعل بلبنة. حينئذ صعد هورام ملك جازر لإعانة لخيش وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق له شارداً.

ثم اجتاز يشوع وكل اسرائيل معه من لخيش إلى عجلون، فنزلوا عليها وحاربوها وأخذوها في ذلك اليوم، وضربوها بحد السيف، وحرم كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيش.

ثم صعد يشوع وجميع اسرائيل معه من عجلون إلى حيرون وحاربوها وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها، وكل نفس بها، لم يبق شارداً حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها.

ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دبير وحاربها وأخذها مع ملكها وكل مدنها وضربوها بحد السيف وحرموا كل نفس بها. لم يبق شارداً. كما فعل بحيرون كذلك فعل بدبير وملكها كما فعل بلبنة وملكها»[٢١].

أما الطريقة التي اتبعها يشوع في اغتصاب الأراضي، فهي أن يقتلع أصحابها منها، وأن يطردهم من بيوتهم وأراضيهم بالحرب والضرب، تماماً كما نراهم فعلوا ويفعلون مع أهل فلسطين، ومع كل أرض يدخلونها، مسندين ذلك كله إلى رب الحرب الذي صنعته أيديهم «أنا اطردهم من أمام بني إسرائيل، إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكاً كما أمرتك»[٢٢].

---

(٢١) يشوع ١٠.

(٢٢) يشوع ١٣ : ٦.

وهكذا تمضي توراتهم في سرد قصص الهمجية التي صبوها على أرض فلسطين شبراً شبراً، وهذه ليست من قوانين الخالق سبحانه، وهي ليست من توراة موسى الأصلية في شيء.

أما القدس فكان لها شأن آخر في عملية غزو يشوع لفلسطين، فهي لم تستسلم له، وقاومت قروناً، حتى إن يشوع لم يستطع فتحها ومات قبل أن يتم له ذلك. وافتتحها داود عام ١٠٠٠ ق.م. «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار» (٢٣).

ومع ذلك لم تستسلم القدس، ولم يستطع بنو بنيامين طرد أهلها منها «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم إلى هذا اليوم» (٢٤).

ويتولى زعامة القبائل العبرية القضاة الذين استمر حكمهم ١٥٠ سنة، وعَرف عصرهم هذا بالانحلال الديني والخلقي والخلافات والمنازعات، وعزوا وضعهم المتردي إلى غضب الرب عليهم، وكانوا يعودون إلى الشرك بعد موت كل قاض «فحمي غضب الرب على إسرائيل وقال من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتي. فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنسانا من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته لكي أمتحن بهم اسرائيل أيحفظون طريق الرب ليسلكوا بها كما حفظها آباؤهم أم لا. فترك الرب أولئك الأمم ولم يطردوهم سريعاً ولم يدفعهم بيد يشوع» (٢٥).

ففلسطين هي ممر أولئك الاسرائيليين إلى حيث لا أرض تقرهم، ولا مكان يجمعهم، والفلسطينيون هم من سيتعلم الاسرائيليون على أيديهم القتال. وبالقتال فحسب تحمى العقيدة في للقلوب، والرب لم يحرمهم من أية فرصة قد تعيدهم إلى طريق الحق والإيمان مع علمه سبحانه وتعالى بفسادهم وانحرافهم وضلالهم وعدم الأمل في صلاحهم جيلا بعد جيل أجداداً وآباء وأحفاداً.

«فهؤلاء هم الأمم الذين تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل كل الذين لم يعرفوا جميع حروب كنعان، إنما لمعرفة أجيال بني إسرائيل لتعليمهم الحرب الذين لم يعرفوها قبل قط.

أقطاب الفلسطينيين الخمسة وجميع الكنعانيين والصيدونيين والحويين سكان جبل لبنان من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة كانوا لامتحان إسرائيل بهم لكي يعلم هل يسمعون وصايا الرب التي أوصى بها آباءهم عن يد موسى» (٢٦). فصعد أقطاب الفلسطينيين إلى إسرائيل.

---

(٢٣) القضاة ١ : ٨.
(٢٤) قضاة ١ : ٢١.
(٢٥) قضاة ٢ : ٢٠ - ٢٣.
(٢٦) قضاة ٣ : ١ - ٤.

فلما سمع بنو إسرائيل خافوا من الفلسطينيين وقال بنو إسرائيل لصموئيل لا تكف عن الصراخ من أجلنا إلى الرب إلهنا فيخلصنا من يد الفلسطينيين »[٢٧].

وليس غريباً ما نلاحظه من كيفية معاملة أهل الأرض الفلسطينية الحسنة لإسرائيل، رغم كل ما فعلوه ويفعلونه من وحشية وشراسة وفتك بهم. وهذه المعاملة لم تكن إلا من مصدر القوة التي تفرض على الغزاة لون حياتهم وسلوكهم وعبادتهم. « فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلتهم »[٢٨].

ولكن إسرائيل يبقى هو إسرائيل مهما تعددت النعم عليه والأفضال، فهم لم يتغيروا منذ خرجوا من مصر، وقد كان قادتهم المغامرون لا يفتأون يغذون روح العدوان والاغتصاب في نفوس أتباعهم بتعاليم صنعوها وأضفوا عليها طابعاً دينياً لتكون أعمق أثراً وأبعد فائدة كما توهموا.

وفي مقدمة هذه التعاليم التي لا تزال مستخدمة إلى وقتنا الحاضر في وطننا فلسطين هي طرد الأهل واغتصاب الأرض، حتى لا يبقى الأهل شوكة في أعينهم كما تذكر توراتهم، لأن « الذين يستبقون منهم يكونون أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم »[٢٩].

وقد جاء في استطلاع للرأي العام (عام ١٩٨٤) أجراه معهد بوري ونشرته صحيفة صهيونية أن نسبة ٥٣ بالمئة من المحتلين الصهاينة يرفضون التعايش مع جيران عرب في مبان ذات ملكية مشتركة، مما يدل على حتمية صراع البقاء بين الغزاة وبين أهل الأرض العرب.

ولا بد من توضيح ما اتبعه بنو إسرائيل في فلسطين من طرق الإبادة والفتك، وهذه هي ذاتها المتبعة اليوم ولا غرابة في ذلك ما دامت توراة رجال حربهم هي مصدر حياتهم على مر الزمان.

وقد كانت الجاسوسية ولا تزال هي أبرز ما يميز تاريخ إسرائيل، ويكاد يكون لها في كل شبر من أرض البشر إصبع يحرك الشر وعين تتجسس الأخبار وتتحسسها. وهذا بطبيعة الأمر بعض ما يثير الرعب في النفوس، حين تتكشف الأخبار كل يوم عن شرور اسرائيل وفساده وإفساده في كل مكان يحل فيه.

والإبادة هي عنوان آخر لربهم الذي يرسم لهم شراستهم ويحضهم عليها فيقول لهم « إن

---

(٢٧) صموئيل الاول ٧ : ٧ ـ ٨.

(٢٨) قضاة ٣ : ٥ ـ ٦.

(٢٩) عدد ٣٣ : ٥٥.

ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم » (٣٠).

وهذه الإبادة لا تستثني أحداً، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وكل نسمة في الأرض، بل إنهم عطلوا كل نسمة حياة، فقد « هدموا المدن وكان كل إسرائيلي يلقي حجره في كل حقلة جيدة حتى ملأوها وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة » (٣١).

حتى داود لم تسلم سيرته من عملية الإبادة الجماعية التي أوقعها بسكان الأرض، وهو يجازيهم جزاء سنمار مستخدما الكذب والخداع على ملك جت الفلسطيني، وذلك في حد ذاته ينفي عن اسرائيل تماما إمكان الصلاح والإصلاح، وهي تنسب إلى داود مساوىء قد تنزه عنها أنبياء الله. ولكن داود في عرف توارة اسرائيل هو ملك وليس نبياً جاء برسالة تؤكد رسالة موسى على الأرض، وتقويها، فلعل من هؤلاء الذين ارسل إليهم موسى وداود من يؤمن كما آمن موسى وداود، ذلك الايمان الذي ترخص به الروح، وتسهل به الصعاب في سبيل الإيمان والحق والخير. لقد « هرب داود من شاول واختبأ في أرض الفلسطينيين عند أخيش بن معول ملك جت. فقال داود لأخيش إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فليعطوني مكاناً في إحدى قرى الحقل فأسكن هناك. ولماذا يسكن عبدك في مدينة المملكة معك. فأعطاه أخيش في ذلك اليوم صقلغ. لذلك صارت صقلغ لملوك يهوذا إلى هذا اليوم (يوم كتابة التوراة في أثناء المنفى في بابل). وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر.

وصعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجرزيين والعمالقة، لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر. وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلا ولا امرأة وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً. ورجع وجاء إلى أخيش. فقال أخيش إذاً لم تغزو اليوم. فقال داود بلي.. على جنوبي يهوذا وجنوبي اليرحمئليين وجنوبي القينيين. فلم يستبق داود رجلا ولا امرأة حتى يأتي إلى جت إذ قال لئلا يخبروا عنا قائلين هكذا فعل داود. وهكذا عادته في كل أيام إقامته في بلاد الفلسطينيين. فصدق أخيش داود قائلا قد صار مكروها لدى شعبه إسرائيل فيكون لي عبداً إلى الأبد » (٣٢).

---

(٣٠) الخروج ٣.
(٣١) سفر الملوك الثاني ٣.
(٣٢) صموئيل الأول ٢٧.

ويلجأ بنو إسرائيل في توراتهم إلى عملية الاغتيالات الفردية حين تصطدم مصالحهم مع أولئك، كما حدث مع عجلون ملك موآب فقد «عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، فشدد الربُ عجلون ملك موآب على إسرائيل لأنهم عملوا الشر في عيني الرب. فجمع إليه بني عمون وعماليق وسار وضرب إسرائيل وامتلكوا مدينة النخل. فعبد بنو إسرائيل عجلون ملك موآب ثماني عشرة سنة. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب، فأقام لهم الرب مخلصاً إهودَ بن جيرا البنياميني رجلا أعسر. فأرسل بنو إسرائيل بيده هدية لعجلون ملك موآب. فعمل إهود لنفسه سيفاً ذا حدين طوله ذراع وتقلده تحت ثيابه على فخذه اليمنى. وقدم الهدية لعجلون ملك موآب. وكان عجلون رجلا سميناً. وكان لما انتهى من تقديم الهدية صرف القوم حاملي الهدية، وأما هو فرجع من عند المنحوتات التي لدى الجلجال وقال. لي كلام سر إليك أيها الملك. فقال: صه. وخرج من عنده جميع الواقفين لديه. فدخل إليه إهود وهو جالس في عليـة برود كانت له وحده. وقال إهود. عندي كلام الله إليك. فقام عند الكرسي. فمد إهود يده اليسرى وأخذ السيف عن فخذه اليمنى وضربه في بطنه. فدخل القائم أيضاً وراء النصل وطبق الشحم وراء النصل لأنه لم يجذب السيف من بطنه وخرج من الحتار. وخرج إهود من الرواق وأغلق أبواب العلية وراءه وأقفلها»[٣٣].

هكذا شأنهم دائما.. قتل وسفك وذبح واغتيال في الظلام، أما ظاهره فهم يلونونه ويزيفونه مما قد يخدع السذج غير العالمين بحقيقة قوم إسرائيل، ولكنه شرعهم ومنهاجهم ودستورهم الذي لم يتغير مع الأيام ما دام مسطورا في توراة رب حربهم.

وإن في تاريخ إسرائيل مع أهل الأرض ما ينبيء بالفواجع التي هيء لها إسرائيل؛ فبعد كل التحام لهم مع أهل الأرض وما يصبونه عليهم من ويلات كانت الدائرة تدور عليهم من أهل الأرض أنفسهم أو من سواهم من الشعوب التي أرسلها الله على اسرائيل عقاباً ونكالا. وكانوا يذوقون على يد هؤلاء الآلام والتعذيب والتقتيل والتشريد أضعافاً مضاعفة، مفسرين ذلك بأنه غضـب الرب نتيجة فعلهم الشر في عيني هذا الرب.

وتكاد تكون هذه سنة السماء إلى الأرض، قبل أن تصبح سنة التاريخ، وهي سنة باقية ما بقيت الحياة، ولعل في اشتداد جبروت إسرائيل ووحشيتها ما ينبيء بالأمل المرتقب على يد أهل الأرض الذين علموا إسرائيل الحرب والقتال والتاريخ لا يخطيء ولا ينسى.

ولقد اتبع بنو إسرائيل في هجومهم خططاً تعتمد على المباغتة والإغارة على القرى الآمنة، وإن أكثر ما يثير إسرائيل هو أن يعيش الآخرون في طمأنينة وسلام، حتى إن أحد

---

(٣٣) قضاة ٣: ١٣ - ٣٢.

بروتوكولاتهم تدعو إلى هذه الإثارة والبلبلة بين الشعوب التي تشعر بالأمان، حتى تبقى الحروب مشتعلة أبداً بينها، وإن حياة اسرائيل لا تكون إلا بموت الآخرين، بل إن حياة الشعوب جميعها، وانتصار الحق والخير والعدالة لا يكون إلا بفناء أنصار الشيطان وعباده.

إن التركيبة الطبيعية في أي شعب من الشعوب تقتضي أن يسعى هذا الشعب إلى الاصلاح دائماً وإلى التزام طريق الخير ما دام الأمر مهيأ له ومعداً، ولكن بني إسرائيل في مثل ما جبلوا عليه من انحراف كانوا أبعد الخلق عن طريق الخير رغم علمهم به، ومع وضوحه لهم.

ولقد كانت الرسالة إليهم تدعوهم إلى حملها والتفاني في تبليغها والموت في سبيلها، ونشرها في الأرض التي تعلوها الأصنام والأوثان، وليس من شك في أن النفس البشرية في فطرتها وخلقها تتقبل دائماً النور الذي يتسرب إليها من ثنايا الظلام، فيما لو أخلص الداعون إليها إخلاصاً يصل إلى حد التضحية بالروح، وبذل المهج، ولكن بني إسرائيل ما كانت ليكون لهم تلك النفوس التي تنزع إلى الفداء، وإلى التضحية، ولم تساعدهم طبائعهم الملتوية وقلوبهم القاسية إلا إلى تنفيذ ما يدعوهم إليه شيطان توراتهم من إبادة كل شعب يركنون في أرضهم إلى الدعة والاستقرار.

وإن التوراة تصف الحياة الآمنة المستقرة لأهل فلسطين، والسلام والعدل الذي كان يربط بين أرض فلسطين وسواها من البلاد، مما يدل على القوة والمنعة التي كانت تتمتع بها فلسطين، وهي في قوتها تصدر عما كان لها من حضارة إلى درجة أتاحت لها المسالمة المنيعة مع ما حولها.

« وفي تلك الأيام ـ بعد موت شمشون ـ لم يكن ملك في إسرائيل. وفي تلك الأيام كان سبط الدانيين يطلب له ملكاً للسكنى. لأنه إلى ذلك اليوم لم يقع له نصيب في وسط أسباط إسرائيل. فأرسل بنو دان من عشيرتهم خمسة رجال منهم. رجالا بني بأس. لتجسس الأرض وفحصها. وقالوا لهم اذهبوا افحصوا الأرض.

فذهب الخمسة الرجال وجاءوا إلى لايش ورأوا الشعب الذي فيها ساكنين لطمأنينة كعادة الصيدونيين مستريحين مطمئنين. وليس في الأرض مؤذ.. وجاءوا إلى إخوتهم فقال لهم إخوتهم ما أنتم. فقالوا قوموا نصعد إليهم لأننا رأينا الأرض وهوذا هي جيدة جدا وأنتم ساكنون. لا تتكاسلوا عن الذهاب لتدخلوا وتملكوا الأرض. عند مجيئكم يأتون إلى شعب مطمئن والأرض واسعة الطرفين.

فارتحل من هناك من عشيرة الدانيين من صرعة. ومن اشتأول ست مئة رجل متسلحين بعدة الحرب. وصعدوا وحلوا في قرية يعاريم في يهوذا. وعبروا من هناك إلى جبل أفرايم

وجاءوا إلى بيت منيحا. فأجاب الخمسة الرجال الذين ذهبوا لتجسس أرض لايش وقالوا لإخوتهم أتعلمون أن في هذه البيوت أفودا وترافيم وتمثالا منحوتاً وتمثالاً مسبوكاً. فالآن إعلموا ما تفعلون. فمالوا إلى هناك وجاءوا إلى بيت الغلام اللاوي بيت ميخا وسلموا عليه. والست مئة الرجل المتسلحون بعدتهم للحرب واقفون عند مدخل الباب هؤلاء من بني دان. فصعد الخمسة الرجال الذين ذهبوا لتجسس الأرض ودخلوا إلى هناك وأخذوا التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك. والكاهن واقف عند مدخل الباب مع الست مئة الرجل المتسلحين بعدة الحرب. وهناك دخلوا بيت ميخا وأخذوا التمثال المنحوت والأفود والترافيم والتمثال المسبوك. فقال لهم الكاهن. ماذا تفعلون. فقالوا له اخرس. ضع يدك على فمك واذهب معنا وكن لنا أبا وكاهناً أهو خير لك أن تكون كاهناً لبيت رجل واحد أم أن تكون كاهنا لسبط ولعشيرة في إسرائيل. فطاب قلب الكاهن وأخذ الأفود والتراخيم والتمثال المنحوت ودخل في وسط الشعب. ثم انصرفوا وذهبوا ووضعوا الأطفال والماشية والثقل قدامهم. ولما ابتعدوا عن بيت ميخا اجتمع الرجال الذين في البيوت التي عند بيت ميخا وأدركوا بني دان وصاحوا إلى بني دان فالتفتوا وقالوا لميخا مالك صرخت. فقال آلهتي التي عملت قد أخذتموها مع الكاهن وذهبتم فماذا لي بعد (٣٤).

وأما هم فأخذوا ما صنع ميخا والكاهن الذي كان له. وجاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن وضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار. ولم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون.

نجحت الغارة على لايش وسقطت بيد إسرائيل. وكانت المباغتة والغدر والخداع أول أسباب السقوط، بالاضافة إلى السبب الجغرافي، وهو كثرة التنوع في تضاريس بلاد الشام، وقيام الفواصل الجبلية والحواجز الطبيعية فيها. مما شكل صعوبة في وحدة أهلها قومياً في معظم تاريخهم، فتشكلت فيها دويلات صغيرة قائمة على نظام دولة المدينة والقرى. فكان ذلك عائقاً دون اتحادهم اتحاداً مانعاً لأي غزو خارجي. ولعل في كثرة هذه الدويلات رغم قوتها سببا لانتصار غدر إسرائيل. وذلك يشير إلى عدة النصر المستقبلي على هذا العدو الغريب وهي الوحدة الشاملة بين أقطار الأمة الإسلامية.

ورغم مذابح اسرائيل الكثيرة في أرض فلسطين فإن من بقي منهم لم يكن ليترك أرضه، وإنما كانوا يستجمعون القوى من جديد ويهبون ضد غزاة أرضهم إلى درجة أفقدوهم معها أمنهم وهدوءهم لما رأوا فيهم من تعصب مذموم وحقد وانتقام.

---

(٣٤) قضاة ١٨.

ولقد عاش قوم اسرائيل في فلسطين فترة طارئة لا تتجاوز القرنين والنصف بين كرٍّ وفرٍّ « وظلوا محاطين في المناطق التي تفرقوا فيها بممالك أكثر قوة وأرقى مدنية وحضارة » (٣٥).

وفي تلك الفترة من الزمن خضعوا للفلسطينيين والكنعانيين، وتحول قسم منهم إلى مرتزقة مستعبدة لأصحاب الأرض « فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ملك أرام ثماني سنين » (٣٦).

لقد زاد بنو إسرائيل على الكفر كفراً، وفي كل أرض كان لهم رب يعبدونه، فقد عبدوا الحجر والخشب والملوك، مما كان ينسيهم أصلا المهمة التي جاءوا لأجلها، وهي رفع راية التوحيد، والقضاء على الأوثان. ومع كل كفر كان لهم عقاب بيد البشر فقد « باعهم يهوه بيد يابين ملك كنعان الذي ضايق بني اسرائيل بشدة عشرين سنة » (٣٧). كما دفعهم يهوه بيد مديان سبع سنين « فعمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال والمغاير.. وذل إسرائيل جدا من قبل المديانيين » (٣٨).

وباعهم يهوه بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون فحطموا ورضخوا بني إسرائيل ثماني عشرة سنة » (٣٩).

« ودفعهم يهوذا ليد الفلسطينيين أربعين سنة » (٤٠). و « خرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين. فقال شيوخ إسرائيل: لنأخذ لأنفسنا تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا ».

وقال الفلسطينيون بعضهم لبعض « تشددوا وكونوا رجالا أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم. فكونوا رجالا وحاربوا. فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جداً. وسقط من إسرائيل ثلاثون الف راجل وأخذ تابوت الله » (٤١).

ولم تنقذ اسرائيل وعود الرب وصموئيل النبي بالخلاص قال « غدا ارسل إليك رجلا من بني بنيامين فامسحه رئيساً لشعبي إسرائيل. فيتخلص شعبي من يد الفلسطينيين » (٤٢).

بل إن هذا المخلص قد قتل مع أولاده الثلاثة « وتجمع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل.

---

(٣٥) دار جورجي كنعان: سقوط الامبراطورية الاسرائيلية ص ٦٢ ـ ط ١٠، سنة ١٩٨٠، بيروت.
(٣٦) القضاة ٣.
(٣٧) القضاة ٤.
(٣٨) القضاة ٦.
(٣٩) القضاة ١٠.
(٤٠) القضاة ١٣.
(٤١) صموئيل الأول ٤.
(٤٢) صموئيل الأول ١٥.

ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة. وصعدوا ونزلوا في مخماس شرقي بيت آونَ. ولما رأى رجال اسرائيل أنهم في ضنك لأن الشعب تضايق، اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار.. وكان شاول بعد في الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه » [٤٣].

وفي جولة ثانية بين إسرائيل والفلسطينيين « هرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيين، وسقطوا قتلى في جبل جلبوع ومات شاول المخلص وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميعهم رجاله في ذلك اليوم. ولما رأى رجال إسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها » [٤٤].

ولقد تفنن كتبة التوراة في تعليل أسباب اندحار اسرائيل أمام الفلسطينيين، وهذه في معظمها أسباب عزوها إلى فعلهم المنكر وانغماسهم في الحرام. بذلك أوهموا أنفسهم بأنهم ما انهزموا نتيجة جبنهم وعدم إيمانهم، وإن كان الكفر هو أول أسباب انهزامهم واندحارهم وتشتت أمرهم. وقد عاشوا في فلسطين مطاردين حيث أفقدهم أهلها أمن العيش، لما كان يتكشف عنه وجههم وفعلهم من حقد مزمن في أنفسهم، مما لا يمكن أن يكونوا معه قادرين على الاستقرار في فلسطين أو إنشاء دولة أو مملكة تحسب في حساب التاريخ. ولكنهم بقوا أغرابا غزاة ومرتزقة، تحت سيطرة الفلسطينيين، حتى إن قسما منهم كانوا يحاربون في صفوف الفلسطينيين، مما يدل على فقدانهم الهوية التي يتمتع بها سائر البشر.

إن هذا التخلخل في طبيعة بني إسرائيل قد جعل منهم مجتمعا مغلقاً يتنفس المفاسد والرذائل، ومثل ذلك الهواء الموبوء يصيب بلا شك من حولهم، فيعملون على إزاحتهم وطردهم والتخلص من شرهم. فهم بلاء على أهل الأرض التي يقيمون عليها، إذ سرعان ما ينقلبون عليهم بعد ان يتآمروا عليهم مع عدوهم، لقد باتوا بؤر فساد وجنود الشيطان بعنصريتهم العمياء التي غرسها عزرا الكاهن في صدورهم. وقد عكف هذا على تجميع أسفار التوراة وكتابتها من جديد منتهزاً فرصة تطور العقيدة الدينية بما يتفق وفلسفته العنصرية المتطرفة، التي تقوم على تعميق فكرة الاستعلاء العنصري في صدور اليهود، مما يدفعهم إلى الانطواء والعزلة الاجتماعية ترفعا عن مخالطة سواهم، لأنهم شعب ربهم المختار، وأقول ربهم لأنهم هم الذين صنعوه بأيديهم وجعلوا منه بشراً من البشر.

---

(٤٣) صموئيل الأول ١٣ : ٥ - ٧.

(٤٤) صموئيل الأول ٣١.

وقد شدد عليهم الانعزال، بل فرضها عليهم موهماً إياهم أنها أمر الرب إليهم « فاعترفوا الآن للرب إله ابائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة »[٤٥].

ولم تكن استجابة إسرائيل لعزرا لأنه أمر الرب إليهم، فلو كان هذا وحده لما استمعوا إليه، ولما نفذوه، ولكنه أمر الملك الفارسي كما خوفهم به عزرا. ومثل أولئك القوم لا يستقيم أمرهم ولو للحظة إلا حين يضرب على أيديهم بيد من حديد. فقد جاء في مرسوم الملك ارتحشثتا « وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا أم آجلا بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس »[٤٦].

وعمق عزرا مبدأ العنصرية حتى جعلها عقيدة دينية مقدسة، حتى إنه بنى التوراة كلها على هذه العقيدة بدءاً بابراهيم ومرورا بأبنائه جميعاً في تأكيدهم على اتخاذ زوجات من أهلهم، وليس من أهل الأرض، من كنعانيين وفلسطينيين. رغم سماحة المعاملة والأخلاق المضيافة الكريمة التي قابلهم بها أهل الأرض. فهذا أبيمالك ملك جرار الفلسطيني يقول لابراهيم « هوذا أرضي قدامك. اسكن في ما حسن في عينيك »[٤٧].

وهذا عفرون الحثي يقول له: « الحقل وهبتك إياه والمغارَة التي فيه لك وهبتها »[٤٨].

ولقي اسحق بن ابراهيم من حفاوة الفلسطينيين وتكريمهم ما لقيه أبوه ابراهيم عليهما السلام. فقد أوصى أبيمالك الشعب فقال « الذي يَمَس هذا الرجل وامرأته موتا يموت »[٤٩].

ولكن بني اسرائيل لا يتورعون عن الغدر بمن يسالمهم ويعطيهم الأمان، وأي أمان أكثر من أمان المصاهرة بين بني البشر. فقد أحب شكيم بن حمور ابنة يعقوب وأراد اتخاذها زوجة فطلبها من أهلها، واشترط اخوتها عليها وعلى قومه الاختتان مقابل موافقتهم تزويجه اختهم، واختتن القوم جميعا.

وأتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتها وكلما أهلها بوجوب إكرام قوم اسرائيل وإحلالهم بينهم على الرحب والسعة، مغفلين انحراف طبائعهم، ورذائل نفوسهم وقالا « هؤلاء القَوم مسالمون لنا فليسكنوا الأرض ويتجروا فيها، وهو ذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم.

---

(٤٥) عزرا ١٠ : ١١.
(٤٦) عزرا ٧.
(٤٧) تكوين ٢٠ : ١٥.
(٤٨) تكوين ٢٣ : ١١.
(٤٩) تكوين ١١.

نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا. غير أنه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا لنصير شعباً واحداً »[٥٠].

« ولكن قوم اسرائيل باغتوا المدينة وأعملوا فيها سيوفهم وقتلوا كل ذكر وقتلوا حمور وشكيم ابنه بحد السيف، ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة.. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت »[٥١].

إن هذه الانعزالية التي حفرها عزرا في نفوسهم قد خلقت فيهم اعتقادا مؤداه عدم الانسجام مع أي شعب ولو عاشوا بينه آلاف السنين، ذلك لأن الرب هو ربهم، وانه اختارهم له شعباً.

ومثل هذه العقيدة قد تكون سليمة في حساب ربهم هم، ذلك الرب الذي صنعوه بأيديهم، واتخذ له أشكالا عدة، أولها ذلك العجل الذهب الذي صنعوه فعبدوه وخاروا له مثل خواره، ولأجل ذلك الرب جعل الله سبحانه وتعالى منهم أمة القردة والخنازير فقال فيهم سبحانه ﴿قـل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾[٥٢].

لقد جمدت توراة السبى البابلي قوم اسرائيل عند نقطة رسمها لهم عزرا ومسبيو بابل. فقد شعر الأحبار والكهنة بأن عليهم تهيئة المنفيين نفسياً قبل الرحيل عن بابل إلى أرض فلسطين التي جعلوا من الاستيلاء عليها حقاً دينياً. فخططوا بدقة كي يبقوا على اليهود كتلة واحدة غير مندمجة مع سواها. نافخين في صدورهم وهم التفوق والامتياز والاختيار، مما يبيح لهم الاستيلاء على حقوق البشر أجمعين، وهم في نظرهم دون قوم اسرائيل مرتبة.

وصدورا عن هذا كله كان ما أصاب توراة موسى من تحريف وتزييف ونسخ ومسخ. حتى إنهم جعلوا من كلمات موسى العشر أو وصايا الله له حقاً موقوفاً على قوم اسرائيل فحسب.

تقول توراتهم « لا تسرقوا ولا تكذبوا ولا تغدروا أحدكم بصاحبه.. ولا تغصب قريبك، لا تبغض أخاك في قلبك. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك »[٥٣].

وتقول: « لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك ولا

---

(٥٠) تكوين ٢٤.

(٥١) تكوين ٣٤.

(٥٢) سورة المائدة: آية ٦٠.

(٥٣) لاويين ١٩: ١٣ - ١٨.

عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك »[٥٤] .

وأما الويل كله فحين تصب التوراة في قلوبهم حقدها المدمر على من يعيشون معهم، وينزلون بينهم « وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيداً وإماء . وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون. ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف »[٥٥] .

وهذا بطبيعة الأمر لا يحتاج إلى تعليق أو تعقيب أو ربط بما يحدث في أرضنا فلسطين وأهلنا فيها. ولكنها صورة للأصل الواحد الذي تفنن في رسم صور التعذيب والوحشية مع أهل الأرض، ولكن الصورة المقابلة التي لم يستطع التحريف طمسها هي استبسال أهل الأرض في مقاومة الغازي الضال المضل.

لقد جهد ولاة أمر القوم في تخدير نفوسهم، وفي حقن قلوبهم بشتى ألوان الحقد وسمومه، علهم ينفسون بها عن مكبوت أمرهم، ومخبوء رذائلهم ومذلتهم وقهرهم في منفاهم، فكان إجرامهم يصدر من هذه العقد جميعها، وهو إجرام لم يكن من الشجاعة والاقدام في شيء. فإن أهل الأرض ما لبثوا أن كشفوا جبنهم وهلعهم وفزعهم حين اللقاء وحين الكر والفر، حتى إن قلوب قوم إسرائيل كانت تذوب مثل الماء أمام الفلسطينيين. وتجسد التواء طبعهم وغلاظة رقابهم، حتى باتوا لعبة بيد الأقوام الأخرى من كنعانيين وفلسطينيين وأشوريين وبابليين، يسيمونهم سوء العذاب، ويذيقونهم مر التشرد والسبي والضياع.

ولعل تمردهم في بداية أمرهم وحتى غزوهم فلسطين كان بفعل المعجزات التي كانت تتوالى على رسلهم وأنبيائهم، ولكنهم، ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام مضطهديهم ومعذبيهم، وتجسدت لهم مذلتهم واستكانتهم التي هي جزء من تكوينهم، حتى باتوا يستمرئونه ويطلبونه، ولم تعد لهم طاقة على القتال الذي تحتمه عليهم أمانة تبليغ الرسالة بل حملها بأمانة. ولم تعد معجزات الله وآياته إليهم لتؤثر في قوم كتب الله عليهم الذلة والمسكنة واللعنة. لقد بدأوا أذلاء في مصر، وانتهوا رغم زيف واقعهم أذلاء في

---

(٥٤) خروج: ٢٠ : ١٦ .

(٥٥) لاويين ٢٥ : ٣٩ - ٤٦ .

فلسطين، وبين البداية والنهاية تاريخ لاحساب له إلا في تاريخ خنوع القوم ومذلتهم وغضبة الله عليهم والرسل والنبيين.

« فمن اليوم الذي خرج فيه آباؤكم من أرض مصر إلى هذا اليوم أرسلت إليكم كل عبيدي الأنبياء مبكراً كل يوم ومرسلا. فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنهم بل صلبوا رقابهم. أساءوا أكثر من آبائهم، فتكلمهم بكل هذه الكلمات ولا يسمعون لك، وتدعوهم ولا يجيبونك فتقول لهم: هذه هي الأمة التي لم تسمع بصوت الرب إلهنا ولم تقبل تأديباً. باد الحق وقطع عن أفواههم »[٥٦].

وسلط الله على اسرائيل الأشوريين، فغزوا فلسطين (٧٣٠ ق.م - ٦٤٥ ق.م) وكان التسليط عذاباً ونكالا للقوم في حياتهم الدنيا حيث لا تقبل فيهم شفاعة شافع حتى وإن كان موسى وصموئيل، هكذا يقول رب توراتهم « وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. أطرحهم من أمامي فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك إلى أين نخرج أنك تقول لهم. هكذا قال الرب. الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي. وأوكل عليهم أربعة انواع يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للسحب، وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك، وأدفعهم للقلق في كل ممالك الأرض »[٥٧]. « فأطردكم من هذه الأرض إلى أرض لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم فتعبدون هناك آلهة أخرى نهارا وليلا حيث لا أعطيكم نعمة »[٥٨].

وتسقط السامرة بغزو الأشوريين، ولكن ليبدأ غزو آخر هو الغزو البابلي بقيادة نبوخذنصر الملك الكلداني حيث تمردت عليه يهوذا، فحاصر القدس سنة ٥٨٦ ق.م. وحرق الهيكل وخرب معالم المدينة وسبى زعماء المملكة وقسماً من سكانها إلى بابل.

لقد سقطت السامرة ويهوذا المملكتان الصغيرتان المحدودتان اللتان لا يكاد التاريخ يحسب لهما حساباً في الزمن وفي هذا يقول هـ. حـ. ويلز « يصبح تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا تاريخ دولتين صغيرتين واقعتين بين شقي رحى. أحدهما في الشمال وهي سورية ثم أشور ثم بابل. والآخر في الجنوب وهو مصر. وكانت قصتهم فواجع لا تنتهي إلا بفواجع. قصة ملوك بربريين يحكمون شعباً بربرياً »[٥٩].

« إن حياة اسرائيل في فلسطين لم تكن سهلة هادئة، ولكنها - كما يقول ويلز - قصة

---

(٥٦) إرميا ٧: ٢٥ - ٢٨.

(٥٧) إرميا ١٥.

(٥٨) إرميا ١٦.

(٥٩) عروبة فلسطين ص ١٥٤.

حروب وصراع واغتصاب وقتل بين الإخوة الحاكمين والناس، ليستولي بعضهم على عروش بعض، استمرت ثلاثة قرون. إنها بصراحة قصة حياة بربرية.. ولمدة ثلاثة قرون ظلت حياة العبرانيين أشبه بحياة رجل يصر على أن يعيش وسط طريق مزدحم فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار »[٦٠].

لقد قضي على مملكتي اسرائيل ويهوذا الهزيلتين. وكان عدد الملوك الذين حكموا في كل منهما عشرين ملكاً. وقد دام حكم السامرة ٢٠٩ سنوات وذلك بين سنة ٩٣١ ق.م. و٧٢٤ ق.م، ودام حكم يهوذا ٣٤٥ سنة وذلك بين سنتي ٩٣١ و٥٨٦ ق.م.

وبعد تخريب نبوخذ نصر بيت المقدس وسبي بني يهوذا إلى بابل ورث الأدوميون ديار يهوذا الجنوبية من الخليل إلى بئر السبع فشرقاً إلى وادي عربة، حيث يتصل بتخوم أدوم. وكان الأدوميون عرباً، ومواطنهم على حدود الصحراء الشرقية في جنوبي فلسطين[٦١].

لقد كانت جماعة السبي البابلي تمثل بقايا جماعة موسى، ثم اختلط مع هؤلاء من اعتنق اليهودية من مختلف الأجناس فتسموا يهودا نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة، وما زالت هذه التسمية تلحقهم في جميع أنحاء العالم.

وقد سمح كورش الأخميني الفارسي الذي فتح بابل (٥٣٩ ق.م - ٥٣٨ ق.م) ضمن ما فتح من سورية وفلسطين لمن أراد من أسرى نبوخذ نصر بالرجوع إلى فلسطين، وأعاد إليهم كنوز الهيكل التي سلبها نبوخذ نصر، وأمر بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقة بيت الملك، فعاد فريق منهم.

ويرجح المؤرخون أن الفريق الذي عاد هم المتعصبون لإعادة بناء الهيكل، لأن الدلائل تشير إلى أن هناك عدداً غير قليل قد أصاب النجاح في بابل، وأثرى فآثر البقاء هناك، وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير.

وقد عارضت الأقوام المجاورة كالحوريين والحثيين والعمونيين والأدوميين إعادة بناء الهيكل، وهددوا بالعصيان، فأصدر «سمريدس» خلف قمبيز الثاني (٥٢٢ ق.م) أمرا بتوقيف عملية البناء، ولكن دارا الأول أتاح لهم ذلك وأتموا بناء الهيكل في عهده عام ٥١٥ ق.م.

ونال اليهود زمن الفرس بعض الامتيازات حتى حل العهد الاغريقي (٣٣٢ ق.م - ٦٤ ق.م) فتقلقل وضعهم بين الفريقين اليونانيين الحاكمين في مصر (البطالسة) والسلوقيين

---

(٦٠) عروبة فلسطين ص ١٥٥.

(٦١) مفصل ٦٠٧.

الحاكمين في سورية. ولكنهم لاقوا أسوأ الحالات في عهد الملك السلوقي انطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤ ق.م)؛ فقد دمر هذا الملك الهيكل ونهب خزائنه وأجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية [٦٢].

وهنا أخذ الصراع يشتد بين اليهودية والاغريقية، حتى اندلعت ثورة المكابيين، ودبر يهوذا المكابي حملة استطاع فيها أن يحتل المدينة سنة ١٦٥ ق.م، ويقيم فيها حكماً ذاتياً متسماً هذه المرة بالحرية الدينية التي حرموها في عهد انطيوخس.

وتعاقب الحكام والرؤساء اليهود في القدس في محاولة للحكم اتصفت كالعادة بالتفسخ والتدابر والاقتتال، كما اتصفت بالانصراف عن عبادة يهوه. ولم يدم هذا الحكم إلا نحو مائة سنة، حيث دخل بومبي القائد الروماني اورشليم سنة ٦٤ ق.م.

ولم يكن حال اليهود في العهد الروماني أحسن من سابقه؛ ففي عام ٧٠ م دخل تيطوس الروماني ابن الامبراطور فسبسيان أورشليم، وأوقع باليهود مذبحة مريعة، وخرب المدينة، وأحرق هيكلها، وذبح كهنته، وأزيل الهيكل من الوجود تماما، بحيث لم يعد يهتدي الناس إلى موضعه، وسيق الباقون عبيداً إلى روما، وذكر المسعودي أن عدد القتلى من اليهود والمسيحيين بلغ ثلاثة آلاف ألف [٦٣].

لقد قضي تماما على الكيان الذاتي الديني لليهود في فلسطين، ومن ضمن ذلك التنظيمات الإدارية الدينية المتمثلة بالسنهدرين، فساد الهدوء حوالى نصف قرن، ثم اشتعلت نيران ثورة جديدة بقيادة (باركوخبا) أحد زعماء اليهود، فاعتصمت جماعة في المواقع الجبلية الحصينة، وأخذوا يقاتلون حرب عصابات، وظلوا معتصمين بمواقعهم ثلاث سنوات (١٣٢ - ١٣٥ م)، حتى جرد الرومان عليهم حملة اجتاحت مواقعهم، وازالت قلاعهم وأحرقت قراهم.

وحول هادريان أورشليم إلى مستعمرة رومانية، وحرم على اليهود سكناها وبدل اسمها إلى (إيليا كبتولينا)، وأقيم محل الهيكل معبد للإله جوبيتر. وقدر عدد الذين قتلوا في هذه المعارك ٥٨٠ ألفاً، عدا من هلك جوعاً ومرضاً وحرقاً. وهذه هي الضربة الأخيرة لليهود في فلسطين، فلم يعد لهم أي كيان فيها طوال العصور التالية.

وذلك آخر مطاف يهود في فلسطين التي انتظرت وانتظرت من يرفع فيها توحيد الله سبحانه وتعالى. وذلك لم يكن بأيدي محرفي التوراة، فقد صنعوا توراة موسى، فضاعت معها

---

(٦٢) مفصل ٦١٦.

(٦٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١١٠.

شرائعه وفرائضه وأحكامه، وذلك يعني انتقاض حملهم الأمانة وتبليغها، والحفاظ عليها إلى درجة التضحية بالروح. فقد آثروا تضييعها على أن يضيعوا نفوسهم، ورأوا ان ينقضوها تحريفاً وتزييفا حتى لا يجهدوا ويجاهدوا في تطبيقها والعمل بها.

فكيف يكون حكم الله فيهم، وقد أخفقوا في أن يكونوا حملة الأمانة، لقد طبع الله عليهم اللعنة والغضب والمذلة فقال فيهم سبحانه ﴿لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾ (٦٤).

وتكتمل أطوار الأمم، وينتهون إلى حيث بدأوا، وتلك سنة الحياة، ولن تجد لسنتها تبديلا. ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ (٦٥).

ولقد مضت في قوم إسرائيل سنة الله سبحانه وتعالى، وإن الأمم لتمر في أطوار حياتها كلها، وتلك هي طور الشباب، وطور الكهولة وطور الهرم.

فيشمل الطور الأول نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها واستعدادها للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ إلى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك بما كان لها من استعداد، وما لديها من أسباب.

ويشمل الطور الثالث: ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود أو باندراسها من عالم السيادة والاستقلال.

وما من أمة إلا يجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار (٦٦).

ونترك السيد قطب يحلل هذه الأطوار من خلال ما يحل ببعض القرى، ومن خلالها ندرك سر قوة الأمة التي حملت راية التوحيد، فكانت خير امة أخرجت للناس.

لقد حق حكم الله في الهلاك على جميع القرى، وقدر عليها. ولكن الهلاك لم يقدر على أمة محمد، فلم يرسله الله سبحانه وتعالى بالخوارق المادية، كما أرسلت إلى الأمم السابقة. وما

---

(٦٤) سورة المائدة: ٧٨ - ٧٩.

(٦٥) سورة الإسراء: آية ٥٨.

(٦٦) ابن باديس: مجالس التذكير ص ١٦٢ - الطبعة الاولى.

كانت تلك الخوارق المادية إلا تخويفا للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا هي كذبت بعد مجيئها [٦٧].

وليس أكثر من قوم إسرائيل خوارق مادية وآيات حسية ومعجزات إنفلق لها الصخر، ولكنهم بقوا قساة القلوب بل أشد قسوة من الحجر.

فكان حكم الله المقدر أن يرث الدين كله تلك الأمة الهادية المهدية ممن أوتوا الكتاب فكفروا به ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدهْ قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ [٦٨].

---

(٦٧) في ظلال القرآن ٥ : ٣٤.

(٦٨) سورة الأنعام: آية ٨٩ - ٩٠.

خلقيات القتال
في الإسلام

يكاد الجهاد يكون جزءاً من كل ركن من أركان الإيمان، لما فيه من جهاد النفس الأكبر نوازغ شيطانها مجاهدة، يتهيأ المسلم من خلالها للجهاد الأصغر لأعداء الاسلام والحق والخير.

ولعل في ارتباط الجهادين هذا الارتباط الوثيق ما يشير إلى سبب الاختيار والاصطفاء لهذه الأمة المسلمة، وقد كرمها الله سبحانه وتعالى من بين سائر الأمم بنعمة الجهاد. وبهذا وحده تحمي الدين، وترفع راية التوحيد أبداً، وبه وحده ترخص الأرواح، وتبذل المهج والنفوس طواعية واختيارا.

وأول هذه الأركان الإيمانية الإسلامية هو الايمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، خالق السموات والأرض وما بينهما، وذلك أصل دعوات الأنبياء والرسل إلى الأرض. وهذا لا يتأتى إلا بالمجاهدة والمكابدة التي كان على الأنبياء أن يفجروها في أعماق أممهم وفي قلوبهم، حتى يقهروا بها شيطان الشرك والأوثان.

ولقد بلغ جهاد الأنبياء شياطين أقوامهم وأوثانهم مبلغاً عظيماً، مع ما صحب ذلك من صبر على سفه الأقوام وضلالهم وشركهم. فأهين الأنبياء وعذبوا من قبل أقوامهم؛ وكانت السخرية بهم أدنى مراتب ما عانوه منهم.

وكلما اشتدت مقاومة الأقوام لدعوة التوحيد كان على الأنبياء أن يضاعفوا البذل والقوة في وجه تيار الضلال بكل وسيلة من الوسائل التي هيأها الله سبحانه وتعالى لهم. وأعظم وسائلهم حين يبلغ الأمر منتهاه هي معجزات الله سبحانه وتعالى، وهي معجزات خالفت سننهم وقلبت مقاييسهم وما ألفته عقولهم.

ولا يكون الدفاع عن دعوة التوحيد، بل لا يكون الموت في سبيلها إلا من خلال الايمان المطلق بها إيمانا لا يعدلــه حيــاة ولا ولد ولا مال ولا جاه. وهذا اللون من الدفاع هو أشرف السبل إلى حياة خالدة باقية، يكرم فيها المقاتلون في سبيل الله، ويخلد فيها الذين

يقضون في سبيل الدفاع عن دين الله، وعن الحق الذي أوجبه الله سبحانه للصحالين من عباده.

وحتى تهيأ العقول والمدارك لتلك الحياة الخالدة التي أعدت للمتقين المجاهدين كان لا بد من ضرب الأمثلة الحسية المجسدة على الحياة الآخرة من خلال القرآن الكريم، الذي كان كتابا للبشرية كافة. ومضى الرسول - ﷺ - يبلغ هذا كله أمته التي اختارها الله واصطفاها خير أمة أخرجت للناس فقص عليهم قصة عزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه أمام أعين القوم. فقال فيه سبحانه ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام. فأنظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّهْ وانظر إلى حمارك. ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً. فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ (١).

وكان التجسيد الحي لليوم الآخر والبعث قرعاً للعقول والأفهام التي ما فتئت تنكر البعث والحياة بعد الموتة الأولى. ولقد كان العجب كله من هذا البعث فقال سبحانه ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب. أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيدٌ﴾ (٢).

وضرب القرآن المثل بأهل الكهف فقال فيهم سبحانه وتعالى ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً. إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً. ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً. نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا. وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً. وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال. وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً. وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. لو اطلعت عليهم

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٩.

(٢) سورة ق: آية ٢ و ٣.

لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً. وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق فيه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً. إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخـذن عليهم مسجدا. سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم. ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب. ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً. ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً. قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ [٣].

وإن لفي هذه الأمثلة الحية من البعث والحياة الآخرة ما يؤثر في نفوس القوم، إلى درجة تضحى معها هذه النفوس رخيصة هينة في سبيل الوصول إلى ما أعد الله من خلود ونعيم لأهل دينه، المدافعين عنه والمقاتلين في سبيله. وقد بات المسلمون بين يدي رسول الله ﷺ قوة طيعة في سبيل الله، وهو يبشرها بالجنة إذ «ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار».

وبكل ما أوتي أصحاب رسول الله ﷺ من قوة الإيمان اندفعوا يقاتلون فيقتلون، فكان منهم السابقون وكان منهم اللاحقون فقال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ [٤].

وبهذا الحب العظيم للشهادة في سبيل الله كان انتصار رسول الله ﷺ وأصحابه وأمته. وما ذلك الحب العظيم وذلك العشق للشهادة إلا نتيجة للتهيئة الأزلية التي خلق الكون لأجلها. وهيأ الله سبحانه وتعالى مخلوقاته جميعا لاستقبال خاتمة الرسالات وخاتم الأنبياء وامة الإسلام، ليكون الرسول شهيداً على أمته، ولتكون أمته شاهدة على الناس: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ [٥].

---

(٣) سورة الكهف: آية ٩ - ٢٦.

(٤) سورة الأحزاب آية ٢٣.

(٥) سورة الحج: آية ٧٨.

فأمة الله هي أمة الاسلام؛ وإن المسلم لا يكون كامل الإيمان ما لم ينهج نهج الله في دستور هذه الأمة، التي وصفها ربها فقال فيها سبحانه وتعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (٦).

وهذه الأمة لا تحفظ عليها دينها، ولا يعلي في العالمين شأنها غير قوة أهلها وإيمان قلوبهم وتسلحهم بعزة دين الله وكرامته. وقد كان أصحاب رسول الله - ﷺ - قدوة الأمة في القتال مع ضيق سبله عليهم. وفي هذا قال رسول الهدى - ﷺ - «والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا» (٧).

إنه دستور أخلاقي كامل للجهاد، في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ عملاً وقولاً، وهو قبل ذلك كله خلق ورحمة ومحبة وتيسير وصفح إلا فيما يغضب الله سبحانه. وذلك هو القول الحق وإن تقول المتقولون وتشدق المتشدقون أعداء الاسلام.

لقد كانت أولى مكائد الكائدين أن الإسلام لم ينتشر إلا بقوة السيف، وفسروا الجهاد بأنه تقتيل وتذبح وإفناء للبشر وسحق لروح البشرية، وليس ذلك إلا صدورا عما قرأه أولئك في توراة سبي بابل الذين راحوا ينفسون عن ذلهم واضطهادهم وتشريدهم بما صبوه على أهل أرض فلسطين من حقد ونقمة ودمار.

فأسقط أعداء الإسلام ما وقر في قلوبهم من حقد التوراة على الإسلام في حصنه الحصين ودرعه المتين، وأخذوا يروجون حول الجهاد أقاويل قد ردت إلى صدورهم، إذ رأوا السرعة الهائلة التي انتشر بها الإسلام في أنحاء المعمورة في مدة لا تزيد على القرن، بقوة إيمان الفئة القليلة المؤمنة بيسير عتادها الذي تقوضت به أعظم دولتين في ذلك الوقت الفرس والرومان.

بل إن عصرنا العاصر ليشهد على انتشار الاسلام في كثير من دول آسيا، تلك التي لم تصل إليها جيوش الفتح الإسلامي. وكان انتشار الاسلام فيها بواسطة التجار الذين وصلوها وتبادلوا معها كل ما يمكن تبادله. وتركوا فيها الاسلام وهو أعظم آثارهم هناك، بيسره وسهولته وملاءمته سبل حياتهم الخاصة والعامة عملا وسلوكاً وخلقاً، وليس مجرد نظريات مجردة عن التطبيق، بعيدة عن روح الحياة ومنطق العصر.

---

(٦) سورة آل عمران آية ١١٠.

(٧) صحيح البخاري ٤: ٢١ باب الجهاد.

فالجهاد هو دفاع عن العقيدة ورد للظلم ودفع للكفر والفسوق والعصيان. ومن منطلق إيمان المسلمين بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالقرآن كتاباً يقول عز من قائل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾ [٨].

وكان ميزان الجهاد هما الحسنيان: وإنهما النصر أو الشهادة. فلا وسط، ولا مهادنة ولا مزايدة على ما شرع الله؛ فإما النصر المؤكد الذي لا مساومة فيه، وإما الشهادة التي أرخصت المهج والأرواح طلباً للثواب الموعود، حيث الجنة في أعلى مراتبها، وحيث يمين العرش موقف الشهيد تكريماً وتعظيماً، وذلك كله قد حبب إلى المسلمين القتال والاستشهاد حتى إن المسلم ليرمي اللقمة من يده، لا يأكلها حتى لا تعيقه عن دخول الجنة، فيمضي إلى المعركة غير هياب ولا وجل ويلقي بنفسه في أتون القتال يقاتل ويقاتل إلى أن يقتل، ويفوز بالشهادة التي جعلها الله سبحانه عنوانا ودليلا على محبة العبد لخالقه، والعمل على رضاه. (فالجهاد في حقيقته هو الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان، والعمل الصالح. ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان) [٩].

وسمى رسول الله ﷺ الجهاد ذروة سنام الإسلام؛ لأنه القوة الحيوية المتجددة التي يتجدد من خلالها مجد الإسلام وعزته وكرامة أهله، ومن خلاله تتأكد قوة المسلمين الفاعلة التي تتناسب طرداً مع الجهاد.

ولقد أثبت لنا التاريخ أن الأمة الإسلامية ما ارتفعت ولا ارتقت إلا حين أبقت راية الجهاد مرفوعة. وما أصابنا من نكسات ونكبات إلا حين ترك الجهادَ أهلُه، ونكسوا رايته، أمام أعداء الله والدين الذين يبغون في الأرض الفساد.

وليس الخطر الأعظم من أولئك الأعداء الظاهرين الذين يجاهرون بعدواتهم لله ولدينه، ولكنه العدواة الشرسة هي في داخل نفوس الفئة التي استمرأت المذلة، واستكانت إلى التبعية هنا وهناك، وفقدت من ثم أعظم مقومات النفوس الأبية، التي ترى في أعداء دينها أعداء لها، وفي خصوم ربها خصوماً لها. ولكنها نسيت الله فأنساها الله أنفسها، وابتلانا الله بها بنكبات ونكسات، وامتحننا بخطوب وخطوب، علنا نعود إلى طريق الله، ونعمل بمنهج الله. وبتنا نصيح ونجأر بالشكوى على الله، متناسين الداء في النفوس، وفيه يقول رسول الله ص بعد عودة المسلمين من إحدى الغزوات: لقد انتهيتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس.

---

(٨) سورة الحج: آية ٣٩.

(٩) ابن تيمية: العبودية ١٠٤.

وإن جهاد النفس الأكبر هو الطريق المعبد إلى ساحة القتال وأول سبله حب الله تعالى حتى لا يكون فوقه حب ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [١٠].

وجهاد النفس هو الخوف من الله تعالى، وخشيته في السر والعلن، حتى إن المؤمن ليبكي من خشية الله ﴿فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ [١١]. وأعظم الخشية خشية السر ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ [١٢]. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسها النار: عين سكبت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

وجهاد النفس هو التوكل على الله ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [١٣] وهو تقوى الله التي تعصم المؤمن وتجعل من نفسه ميزانا يقيس فيه عمله وقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [١٤] وهو الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله لهم البشرى﴾ [١٥].

وحين يجاهد المسلم نفسه هذا الجهاد فإنه يفجر في أعماقه قوة لا تلين أمام الصعب، ولا تضعف أمام البشر، وبذلك يكون نصر الله إليه ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ [١٦].

وفي الجهاد العفو والصفح «فاعفوا واصفحوا». والصفح لا يكون إلا من مصدر القوة والمقدرة، كما أنه لا يكون استسلاماً، بل يكون عزاً قال ﷺ: «ما زاد عبد بعفو إلا عزاً».

لقد كانت حرب النبي ﷺ حرباً فيها القوة والبأس وفيها الرحمة والرفق، وفيها الصفح والصبر، وفيها كل ما يعز به دين الله في حرب أعداء الله، فهي حرب نبي كريم رحيم أرسل للبشرية كافة هادياً ومبشراً ونذيراً، وهي حرب تبيد الطغاة وتنسف الجبابرة، وتسوي بين الناس جميعاً.

ولا يخفى ما يحتاج إليه ذلك من قوة ودفاع وعتاد وعدد، إنه العدد المرهون بإيمان أصحابه، لا بالحساب الذي يجاوز عشرات الألوف كما كان لأعداء الاسلام. وهو العدد الذي يكون لأصحابه طريق واحد إلى الهدف الواحد. ومن خلال تلك القوة الايمانية الهائلة

---

(١٠) سورة آل عمران: آية ٣١.
(١١) سورة التوبة: آية ١٣.
(١٢) سورة الملك: آية ١٢.
(١٣) سورة الطلاق: آية ٣.
(١٤) سورة الطلاق: آية ٢.
(١٥) سورة الزمر: آية ١٧ ـ الجهاد: د ـ محمد نعيم ياسين ـ مكتبة الأقصى، عمان ـ الأردن.
(١٦) سورة الحج: آية ٤٠.

للرسول - ﷺ - وأصحابه كان اندفاعهم إلى القتال، يجابهون أعداء الدين الظاهرين منهم والمتسترين، حين لا يكون لهم من وسيلة غيره، فالإسلام يدعو في المقام الأول إلى السلام، ولكن حين يصبح السلام غير قادر على حماية العقيدة أو صيانة الحياة أو الدفاع عن الوطن، فالحرب شر وضرورة موقوتة.

ولقد دعا الاسلام إلى السلام، فأبى خصومه إلا الحرب وصبر المسلمون على أذاهم، فلم يزدهم الصبر إلا طغيانا وعدوانا، فلم يكن للمسلمين بد عن الحرب ليحموا أنفسهم وعقيدتهم استجابة للاسلام الذي يأمرهم بإعداد العدة والقوة والاستعداد للدفاع.

واذا كانت الحرب في طبائع البشر، فإن الاسلام قد ضيق نطاقها، وراعى فيها حرمات الانسانية أوفى رعايـة. فالمسلمون لم يحاربوا إلا ليدفعوا العدوان عليهم، ولم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مسالمة أعدائهم. وهم لم يحاربوا إلا المحاربين، وتركوا المسالمين وغير المحاربين آمنين في ديارهم.

كما لم يتجاوز المسلمون في حروبهم حدود الدفاع والإرهاب إلى الانتقام الحاقد والتنكيل المبيد.

وجنح المسلمون إلى السلام حينما استجاب أعداء الاسلام له، ونهى عن العدوان حتى على الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل فقال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (١٧). فالإسلام يحذر من العدوان لأنه بغيض إلى الله تعالى فقال سبحانه: ﴿ولا يجر منكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (١٨).

ونهى القرآن الكريم عن قتال من أعلن مسالمته، وإن أثمرت حربه منافع مادية. قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً، تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ (١٩).

وقد جرى المسلمون على السماحة في حروبهم وفتوحهم؛ فكانوا يبعثون شروطاً للصلح إلى البلد الذي يريدون فتحه، كما فعل عمرو بن العاص مع أهل غزة حينما حاصرها، وكما فعل مع أهل مصر إذ عرض عليهم حرية دينية وعدالة شاملة.

والحرب في الاسلام لا يصح أن تتعدى إلى المدنيين الذين لا يحاربون كالشيوخ والنساء والأطفال والعجزة والعباد المنقطعين للعبادة.

---

(١٧) سورة البقرة: آية ١٩.

(١٨) سورة المائدة: آية ٢.

(١٩) سورة النساء: آية ٩٤.

كما لا يجوز أن يجوّع المسلمون أعداءهم أو يقتلوا سفراءهم، أو يعتدوا على المتأمنين في ديارهم من رعايا الدولة المعادية. فإذا جنح العدو إلى السلام كان له المسالمة من المسلمين، وإذا رغب في الهدنة كان له ذلك، على شرط ألا يكون في هذا إهدار لحق من حقوق الدين أو تعطيل لذيوع الدعوة. فقال سبحانه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ [٢٠]. وقال سبحانه: ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ [٢١].

ولم يكن الغرض من الجهاد إجبار أحد على الإسلام؛ فقد ضرب المسلمون أروع الأمثال في كفالة الحرية الدينية للناس؛ ولهذا رحب بهم سكان المستعمرات الرومانية وغيرها لينقذوهم من عسف الحكام، ومن الاضطهاد الديني، قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [٢٢].

أما نظام الاسلام في معاملة المغلوبين بعد أن تضع الحرب أوزارها فهو نظام لم يعرف له العالم مثيلا من قبل ولا من بعد سموا ورحمة ورفقاً؟ فهو لا يبيح التمثيل بالقتلى ولا تخريب العمران.

كما أن المسلمين بعد انتصارهم يخيرون المغلوبين بين البقاء على دينهم أو دفع الجزية.

وشرع الإسلام أعدل النظم وأرحمها في معاملة الأسرى والأرقاء وفي معاملة الشعب المغلوب. وقد شهد بذلك كثير من غير المسلمين فقال الكونت هنري دي كاستري (إن المسلمين امتازوا بالمسالمة، وحرية الأفكار في المعاملات ومحاسنة المخالفين، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة، ولم يتركوا أثراً للعسف في طريقهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال) [٢٣].

وقال جوستاف لوبون: (لم تكن القوة عاملا في نشر القرآن، لأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم. وإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى. وقد عاملوا سورية ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم).

لقد نفذ رسول الله ﷺ قوانين الحرب والسلام جميعها كما جاء بها القرآن الكريم خير

---

(٢٠) سورة الأنفال: آية ٦١.

(٢١) سورة النساء: آية ٩٠.

(٢٢) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٢٣) محمد خاتم النبيين.

تنفيذ، وكان لأصحابه الأسوة الحسنة في كل ما صدر عنه؛ فقد رباهم الرسول ﷺ بالقرآن الكريم تربية عميقة هادئة جريئة حازمة وحاسمة، وهي تربيّة منهجية تصل بهم إلى ما يتوخاه الإسلام من خير أمة أخرجت للناس. وآتت تلك التربية الإسلامية أثرها في القلوب والنفوس، وعبَّر عنها عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة وهو يشجع أصحابه بعدما رأوا من ضخامة جيش الرومان «يا قوم ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا؛ فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة». فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس[٢٤].

ويمضي الجهاد في أمة الإسلام نعمة فرض وسنة باقية ما بقي على الأرض حياة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال». وقال ﷺ: «الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل».

خلق الرسول ﷺ في الحرب:

قال الله تعالى في رسوله ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[٢٥].

كانت الفضيلة تتجلى في حرب النبي ﷺ عندما أخذ يرسل الجيوش إلى الجهات النائية، فيأمر جيشه بالتأني قبل التقدم إلى القتال، ويدعو المؤمنين إلى عدم تمني القتال، فهو امتحان القلوب، وهدم الأجساد، يقول ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا ليقتموهم فاصبروا»[٢٦].

وكان ﷺ يرسم لبعوثه آداب المواجهة، فيقول لها: «تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم؛ فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم»[٢٧] لقد كان الرسول ﷺ يضع أمام جيشه كل الوسائل التي تحقن بها الدماء، وكان يجعل القتال آخر هذه الوسائل، أي بعد ان تستنفد الوسائل جميعها.

والوصية الأولى من رسول الله ﷺ إلى قادة جنده هي تقوى الله في أنفسهم وبمن معهم من المسلمين «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى أحد ثلاث خصال فأيتها أجابوك إليها

---

(٢٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٤: ٢٤٣.

(٢٥) سورة الأحزاب: آية ٤٦ ـ ٤٧.

(٢٦) البخاري ٤: ٦٢ ـ الفتوحات المكية لابن عربي ٢: ٣٣١ مسألة ٥١٦.

(٢٧) حياة الصحابة ١: ١٣٠.

فاقبل منهم وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فاعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي كان يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم؛ فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم على حكمهم واقضوا فيهم بعد ما شئتم »(٢٨).

ويحض الرسول ﷺ على الرفق واللين في ملاقاة الكفار والأعداء، كما يحض على حقن الدماء في كل مواجهة، وينهى عن التكبر؛ فقد طلب عمرو بن العاص من الرسول ﷺ أن يرسله إلى قومه لعل الله أن يمنّ به عليهم بالإسلام فقال له الرسول ﷺ: « عليك بالرفق والقول السديد، ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً ».

ومضى عمرو بن العاص بوصية الرسول ﷺ مبعوثاً بما يوجبه عليه إسلامه الرحيم، فجاء قومه وقال: يا بني رفاعة.. إني رسول الله إليكم، أدعوكم إلى الاسلام وآمركم بحقن الدماء، وصلة الأرحام وعبادة الله وحده، ورفض الأصنام وبحج البيت وصيام شهر رمضان، شهر من اثني عشر شهراً، فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار »(٢٩).

ولين الرسول ﷺ هو مما يؤلف القلوب، ويرقق النفوس، ويربيها وينمي الخير فيها؛ فقد كتب لقوم عمرو بن العاص بعد إسلامهم ما يحقق لهم الخير فقال: « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله العزيز على لسان رسوله بحق صادق وكتاب ناطق، مع عروة بن مرة لجهينة بن زيد: إن لكم بطون الأرض وسهولها وتلاع الأودية وظهورها، على أن ترعوا نباتها وتشربوا ماءها، على أن تؤدوا الخمس، وتصلوا الخمس.. والله شهيد على ما بيننا، ومن حضر من المسلمين »(٣٠).

وينتشر صحابة رسول الله ﷺ بذلك اللين والرفق الذي تلقوه في مدرسة رسول الله ﷺ، وهي تعاليم الدين الحق الذي أرسل به، وهذا أبو بكر الصديق يوصي خالد بن الوليد رضه حين بعثه لقتال المرتدين من العرب، وطلب اليه أن يدعوهم بدعاية الاسلام.. ويحرص على

---

(٢٨) محمد يوسف الكاندهلوي: حياة الصحابة ١ : ١٣١.
(٢٩) السابق ١ : ١٩٨.
(٣٠) البداية والنهاية ٢ : ٣٥١.

هداهم. فمن أجابه من الناس كلهم أحمرهم واسودهم قبل منه، لأنه إنما يقاتل من كفر بالله على الايمان بالله، فإذا أجاب المدعو إلى الاسلام وصدق إيمانه لم يكن عليه سبيل، وكان الله هو حسيبه، ومن لم يجبه إلى ما دعاه إليه من الإسلام فعليه أن يقتله[٣١].

حرب الرسول ﷺ:

لقد كان تهيؤ المسلمين لأي قتال شعاره الرحمة والرأفة، كما أن المسلمين في قتالهم يصدرون عن هذه الرحمة ذاتها؛ لأن الحرب ليست حرب دنيا، وإنما هي حرب تهيء أصحابها لحياة باقية خالدة.

لقد رسم رسول الله ﷺ منهاج الحرب عملاً وفعلاً وسلوكاً، اقتدى به صحابته وتابعوه وأمته المسلمة في كل زمان ومكان، على الرغم مما يجدون من شراسة عدوهم وحقدهم وتعذيبهم المجاهدين من أبناء هذه الأمة، وذلك يوحي ببقاء الدين الاسلامي وخلوده الذي شاءه الله سبحانه له في لوحه المحفوظ ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٣٢]. وإن هذه الأمة لتقتدي بهاديها ومبشرها رسول الرحمة والهدى وهو القائل: «أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة»[٣٣].

وكانت وصايا الرسول ﷺ وصحابته من بعده تصدر عن هذا الأصل الذي يدعو إلى الفضائل جميعها التي تجعل من حياة الإنسان أغلى ما في الحياة. لقد كان ﷺ يشدد على الحفاظ على أرواح غير المقاتلين من نساء وأطفال وشيوخ، كما كان يوصي بعدم إتلاف الزرع أو الشجر في طريق الجيش، حتى وإن كانت هذه لعدونا. وقد كان ﷺ يغضب الغضب كله حين يخالف احد قواده هذا المنهج الخلقي. فالانسانية كلها هي من أرسل إليها بشيرا ونذيراً وهادياً، ودينه الحق هو الدين الذي أرسل إلى البشرية كافة، مما ينبىء بذلك اليوم الذي تجتمع فيه البشرية جمعاء على دين السماء الحق، دين الاسلام.

لقد أنكر الرسول ﷺ على خالد بن الوليد فعلته في بني جذيمة حين قتلهم واخذ أموالهم اشتباها، ولم يكن ذلك ليجوز له. وقد وداهم الرسول ﷺ وضمن أموالهم وقال في هذا: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[٣٤].

ونهى الرسول ﷺ عن قتل النساء والصبيان؛ فقد وجد ﷺ في بعض مغازيه امرأة مقتولة،

---

(٣١) حياة الصحابة ٢: ٢١٤.

(٣٢) سورة الحجر: آية ٩.

(٣٣) خاتم النبيين ٢: ٥٨.

(٣٤) مغازي ٥٨.

فأنكر ذلك. عن ابن عمر رضه قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان (٣٥).

وكان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا.. ما لم يقاتل كالنساء وإلا قتلوا، ولا تقتلوا شيخاً فانيا ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة»، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وهذا يوضح قوله ﷺ في وصاياه إلى قواد السرايا: «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا» (٣٦).

ولم يحد الرسول ﷺ عن هذا المنهج القتالي؛ فقد أوصى عبد الرحمن بن عوف في سريته إلى دومة الجندل فقال: «اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، ولا تغل (لا تخن في المغنم) ولا تغدر، ولا تقتل وليدا.. فهذا عهد الله وسنة نبيكم ﷺ فيكم» (٣٧).

ونهج الصحابة هذا النهج النبوي القتالي الرحيم، وعلى رأس هؤلاء أبو بكر الصديق رضه، وقد نهج نهج رسول الله ﷺ بحزم وحسم لم يشبه تهاون قط، فقد أعلنها صريحة منذ أول عهده حين قاتل المرتدين الذين أبوا دفع الزكاة له، وقال في ذلك: إنه لن يترك لهم شيئاً كان يأخذه رسول الله ﷺ منهم حتى وإن كان عقالا، وسيحاربهم عليه. وكان ذلك إعلانا صريحاً حازماً قوياً في استمرار خط الاسلام، وفي إعلاء كلمته وإن كره الكارهون.

لقد كانت وصيـة أبي بكر رضه إلى الأمراء الذين وجههم مع الجند إلى بلاد الشام صادرة عن نبع رسول الهدى ﷺ فقال: «أوصيكـم بتقوى الله. اغزوا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله؛ فإن الله ناصر دينه، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تجبنوا، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصـوا ما تؤمرون. فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء الله، فادعوهم إلى ثلاث. فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. ثم ادعوهم إلى الاسلام. فإن هم أجابو فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. فإن هم فعلوا فأخبروهم ان لهم مثل ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. وإن هم دخلوا في الاسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي

---

(٣٥) السيرة الحلبية ٣: ١٩٧.

(٣٦) السيرة الحلبية ٣: ١٥١.

(٣٧) السابق ٣: ١٨١.

فرض على المؤمنين. وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا أن يدخلوا في الاسلام فادعوهم إلى الجزية. فإن هم قبلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم. وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم، فقاتلوهم إن شاء الله. ولا تعرقُنّ نخلا ولا تحرقنّها، ولا تعقروا البهيمة ولا شجرة ثمر، ولا تهدموا بيعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، وستجدون آخرين اتخذوا للشيطان في أوساط رؤوسهم أمخاصاً، فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله » (٣٨).

لقد كان عشق الموت عند أمة الاسلام هي سبب انتصارهم فيما مضى، وقد ألقوا تحت أقدامهم زخرف الحياة الدنيا، وتوجهوا بقوة إيمانهم وعقيدتهم من نصر إلى نصر من خلال منهج خلقي إسلامي دربهم عليه رسولهم ﷺ. وكان من خيرة تلاميذ المدرسة النبوية عمر بن الخطاب رضه الذي أعز الله به الاسلام بدعوة الرسول ﷺ إذ قال: اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين، فكان ابن الخطاب خير العمرين قوياً شديداً حازماً صارماً لا يقبل في الحق ليناً ولا هوادة، وهو الذي كان إذا مشى في طريق تنكب الشيطان ذلك الطريق خوفاً من عمر كما قال رسول الله ﷺ.

لقد وقف عمر رضه يوصي سعد بن مالك الزهري حين انتدبه لجهاد أهل العراق فقال: (يا سعد بن وهيب، لا يغريك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه؛ فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن. وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته؛ فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء. الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر. هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين) (٣٩).

وكان عمر رضه اذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش أمر عليهم سلمة بن قيس الأشجعي رضه فقال له عمر يوصيه: « سر باسم الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فاذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: أدعوهم إلى الإسلام. فإن اسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب. وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم،

---

(٣٨) حياة الصحابة ١ : ٢١٤.

(٣٩) البداية والنهاية ٧ : ٣٦.

وعليهم مثل الذي عليكم. فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج. فإن أقروا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم وفرغوهم لخراجهم، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم. فإن أبوا فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم. فإن تحصنوا منكم في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلوهم على حكم الله. فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم. وإن سألوكم ان ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله (فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله)، وأعطوهم ذمم أنفسكم. فإن قاتلوكم فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً »[٤٠].

أين يقف العالم كله من رحمة دين الله؛ وما المصير الذي يمضي إليه البشر ممن نسوا الله فأنساهم الله أنفسهم، بما يخترعون من آلات الدمار ووسائل الفتك والقتل والإبادة في سبيل الشيطان؟

أين هذا كله من الدين الذي يصدر عن الرحمة والمحبة والعدل والمساواة والحق بين بني البشر جميعا؟ إنه دين الله الذي ارتضاه للمخلوقات جميعاً، وهو الذي تهيأت له البشرية جمعاء منذ آدم إلى أن أرسل به محمد ﷺ رحمة للعالمين. يقوى به المرء ويعزّ، أمام طواغيت البشر، وبه تبقى أمته خير أمة اخرجت للناس، وهي تبذل في سبيله الغالي والنفيس، وتضحي لأجله بالأرواح، وهي تحقق ذاتها وهويتها من خلال نعمة الجهاد الذي به عز الاسلام والمسلمين، وبه المنعة والكرامة والعزة إلى يوم الدين. وبه تبقى راية الاسلام عالية فوق أمة مرهوبة الجانب ومحسوب لها في العالمين ألف حساب، لأنها تملك أعظم العتاد وأقوى العدة، عدة لا إله إلا الله بالاضافة الى عدة السلاح.

وبهذا يهون الصعب، وترخص الروح، وبهذا يندفع المسلم إلى المعركة ليقاتل ويقتل في سبيل الله، وقتاله قتال دفاع ودفع للظلم، وليس قتال اعتداء ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾[٤١].

فحرب الاسلام هي حرب الخلق القوي الذي لا يضع السيف إلا حيث يكمن الداء. وهذا الخلق هو الفضيلة التي يصدر عنها جهاد المسلمين، وكان رسول الله ﷺ المعلم الأول لهذه المبادىء القتالية التي لا حيدة عنها.

فاذا كان العدو متحللا من قيود القتال الخلقية فإن جيش الفضيلة مقيد بالفضيلة. واذا كان العدو يهتك الأعراض إن استمكن أو يقتل النساء والولدان والشيوخ الذين لا حيلة لهم، فإن جيش الاسلام لا يجاريهم لأنه مقيد بالفضيلة.

---

(٤٠) السابق ٧: ٢٢٩.

(٤١) سورة البقرة: آية ١٩٠.

واذا كان العدو يمثل بالقتلى ويشوه أجسامهم بعد القتل، فإن جيش الفضيلة لا يفعل إلا ما يمليه عليه القائد المعلم حيث يقول (إياكم والمثلة).

فلقد قتل المشركون حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وحبيبه ومثلوا بجسمه الطاهر، ومع هذا لم يفكر الرسول ﷺ أن ينتقم بما انتقم منه من المشركين. وأمر بأن يطرح قتلى المشركين في بدر في القليب؛ فإن إنسانية الاسلام تفيض حتى تشمل الموت وأهله. فلما ألقاهم رسول الله ﷺ وقف عليهم وقال: (يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً)[٤٢].

وإذا كان الأعداء يجيعون الأسرى أو يقتلونهم عطشاً، فإن جيش الفضيلة المسلم يعد إطعام الأسير من أقرب القربان فقال سبحانه: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً﴾[٤٣].

والحفاظ على الكرامة الإنسانية جزء من هذه الفضيلة الإلهية (ولقد كرمنا بني آدم). فكما أن للانسان كرامته حياً فكذلك له كرامته وهو ميت.

ونهى رسول الله ﷺ عن الإجهاز على الجريح؛ لأن الغرض من القتال هو إضعاف مقاومة العدو، وليس الانتقام والحقد والتشفي، وهذا يؤكد معنى شمولية الإسلام الذي شملت رحمته الخلق جميعاً دون استثناء.

وحرب الرسول ﷺ والمسلمين لا تصدر عن التقوى والفضيلة والرحمة فحسب، وإنما تصدر عن العدالة والأمانة؛ لأن العدالة في حد ذاتها تدخل ضمن الأمانات المقرونة بالله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[٤٤].

والعدل المعروف هنا هو العدل في أموال الأعداء، وهذه لم يبح الرسول ﷺ لأحد خيانتها، حتى وإن كانت أموالا في أيام الحرب.

روى موسى بن عقبة عن عروة بن الزبير أنه جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد حملوا السلاح سألهم ماذا تريدون؛ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ فأقبل بغنمه حتى عمد إلى رسول الله ﷺ، فقال له: إلى من تدعو؟ قال: ادعوك إلى الاسلام. أن تشهد أن لا إله الا الله وأني رسول الله وألا تعبد إلا الله. فقال العبد: فماذا يكون لي إن شهدت بذلك وآمنت بالله. قال

---

(٤٢) سيرة ابن هشام ١ : ٦٣٩.

(٤٣) سورة الانسان: آية ٨.

(٤٤) سورة النساء: آية ٥٨.

رسول الله ﷺ: الجنة إن مت على ذلك. قال الرجل المؤمن: يا رسول الله! إن هذه الغنم عندي أمانة. إذ كان يرعاها. وهنا أمره النبي ﷺ أن يؤدي أمانته، ولم يقل إنها غنيمة للمسلمين. ولم يضمها إلى أموال الله. لأن الأمانة تراعى لذاتها، لا فرق فيها بين عدو محارب وولي مناصر. وقال له الرسول الأمين: أخرجها من عسكرنا، وارمها بالحصى؛ فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ففعل. فرجعت الغنم إلى سيدها، فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم (٤٥).

وأما فيما يعرف عن الرسول ﷺ من قدوة القيادة فإنه نعم القائد الرحيم والأب الكريم الذي يشمل بحبه وعطفه ورحمته جنوده، يحنو عليهم كما تحنو الأم على ولدها، لأنهم خرجوا إلى القتال مقدمين أرواحهم لله ولرسوله، تاركين خلفهم الأهـل والولد والمال، مؤملين بجنة عرضها السموات والأرض.

لقد أشرف الرسول ﷺ على دفن ذي البجادين فيما يروي ابن هشام عن عبدالله بن مسعود حيث يقول (قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر. قال فاتبعتها أنظر إليها، فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبدالله ذو البجادين ألمزنيّ قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول: أدنيا إليّ أخاكما، فلما هيأه لشقه قال: اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه. ويقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة (٤٦).

كُتب القتال وهو كره:

كتب القتال على الرسول ﷺ ومن معه وهو كره لهم، وكان ذلك حين اشتد إيذاء الكفار للمسلمين، وتضاعف ظلمهم له، فكان الأمر الالهي الصريح ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (٤٧) ولقد شرع الجهاد للرسول ﷺ إباحة له أولا ثم ايجاباً له ثانيا، لما هاجر إلى المدينة وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله، فغزا بنفسه ص مدة مقامه بدار الهجرة وهي عشر سنين بضعاً وعشرين غزوة أولها غزوة بدر وآخرها غزوة تبوك، وكان القتال منها في تسع غزوات (٤٨).

---

(٤٥) خاتم النبيين ٣: ٥١ ـ ٥٢.
(٤٦) السيرة النبوية ٢: ٥٢٧ ـ السيرة الحلبية ٣: ١٤١.
(٤٧) سورة الحج: آية ٣٩.
(٤٨) فتاوى ابن تيمية ٨: ٤٢٩.

وكانت غزوات الرسول ﷺ وسراياه إرهاباً للمشركين وإشعاراً لهم في المقام الأول بأن الاسلام قد أمده الله تعالى بالقوة القادرة على تحقيق دعوة الله الى الأرض. وحين كان الرسول ﷺ يتأكد من عزم المشركين على الهجوم حتى يأخذ في الاستعداد للقتال دفاعاً. وكان ﷺ يعمل دائماً على أن يخرج للقاء العدو خارج المدينة، لأنه ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا.

والرسول ﷺ كان يجهد ألا يلتقي الجيشان إذا كان هناك سبب لذلك، لما فيه من حفظ لأرواح المسلمين وحقن لدمائهم. فما كان الفريقان يلتقيان إلا ليفترقا في سلام إذا تطلب الموقف ذلك وإلا فلا سبيل إلا الحرب والقتال.

فالرسول ﷺ لم يرسل محارباً وإنما داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً حيثما وجد إلى الدعوة سبيلا، فهو لا بد أن يقرب بالمودة، وهو مطالب بإدناء القاصي وإيناس النافر مهما تكن الأحوال.

ولكن الرسول ﷺ لم يكن ليتهاون في أي أمر من أمور الإسلام والمسلمين؛ فقد كان يتصدى لغدر الغادرين وخيانة الخائنين ونفاق المنافقين في دعوته.

لقد كان من اسباب غزوة مؤتة، قتل والي الشام من قبل الرومان من أسلم من عرب الشام، فكان لا بد لمحمد ﷺ من حماية أتباعه.

كما أن سببها المباشر والقوي هو أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى الشام ثم إلى ملك الروم، فعرض لـه شرحبيل بـن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل من رسل رسول الله ﷺ غيره. فاشتد ذلك على الرسول ﷺ حين بلغه الخبر. فكان لا بد له من مجابهة هذا الغدر بقوة؛ لأن السكوت على الغدر مذلة لأهل الإيمان ولأمة الاسلام التي اختارها الله لهداية البشر أجمعين.

والتقى الفريقان: الفريق المؤمن المدافع عن أهل الإيمان المغدرو بهم، والمنافح عن كرامة الاسلام. وفريق الرومان الذي وجه همه لقتل القائد تلو القائد، لما في قتله من معان في نفوس الجند.

واستشهد زيد بن حارثة، وتلاه جعفر بن أبي طالب، ثم تلاهما عبدالله بن رواحة، وتسلم الراية خالد بن الوليد الذي نصر المسلمين على الروم، إذ كاد الروم ينتصرون عليهم. وقال رسول الله ﷺ في ذلك حين كشف الله له وهو على المنبر المعترك في الشام (ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه)[٤٩].

---

(٤٩) البداية والنهاية ٤ : ٢٤٨.

بهذه الغزوة أرسيت دعامة من دعامات الخلق الإسلامي-في أيام الحروب قبل أيام السلام، وهو محاربة الغدر وأهله، مهما كان جيش الغدر عظيما، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. وتبقى كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فلقد كان شهداء المسلمين اثني عشر رجلا من بين ثلاثة آلاف. وأما قتلى المشركين فكانوا كثيرين بلا حصر من بين مائة ألف. وعز من قائل: ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾[٥٠].

لقد كانت شدة رسول الله ﷺ على الغدر والغادرين لا هوادة فيها، وذلك حين يوجه هذا الغدر إلى دعوته. او إلى أحد من المسلمين، ولكنه كان يتسامح ويعفو حين يوجه الغدر إليه؛ فالله سبحانه وتعالى عاصم له أبداً.

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني مرة من فدك على رأسها بشير بن سعد في ثلاثين راكباً، فقاتلوه وقتلوا كل من معه، واستمر بشير يقاتل وحده قتالا شديداً، ثم كـرَّ راجعاً إلى المدينة.

وبعث رسول الله ﷺ إلى بني مرة غالب بن عبدالله ليقتص لمن قتل من المؤمنين. وكان مع غالب عدد من الصحابة، فيهم أسامة بن زيد رضي الله عنه وغيره، واقتصوا لمن قتلوا من المسلمين، وحدث أن قتل أسامة بن زيد رجلا قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلم رسول الله ﷺ بذلك فقال: يا أسامة! من لك بلا إله إلا الله؟ فقال: يا رسول الله! إنما قالها تعوذاً بها من القتل. قال: فمن لك يا أسامة بلا إله إلا الله! فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها حتى أن ما مضى من إسلامي لم يكن، واني قد أسلمت يومئذ ولم أقتله. وقال: إني أعطي الله عهداً ألا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبداً[٥١].

وحزن الرسول ﷺ لمقتل مسلم آخر قال: لا إله إلا الله. فقد قتل محلم بن جثامة الذي ارسله رسول الله ﷺ في سرية إلى الحدود إلى أصنم، قتل عامر بن الأضبط النخعي تعصباً وجاهليـة بعد أن ألقى السلام، ولم يجيء مقاتلا ولا مريدا القتال فقال ﷺ: (اللهم لا يغفر لمحلم). وودى الرسول ﷺ المقتول من بيت مال المسلمين. وفيه نزل قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً، تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم

---

(٥٠) سورة الأنفال آية ٦٥.

(٥١) خاتم النبيين ٣ : ٨٤.

فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (٥٢).

أما ما يكون من غدر المشركين والمنافقين برسول الله ﷺ، فذلك كان الرسول ﷺ يقف عليه في حينه وحيا، ولم يكن ليقابل غدرهم بغدر ولا مكرهم بمكر، لأن الله يبطل مكرهم ويمحق كيدهم ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (٥٣).

لقد كان رسول الله ﷺ منصرفاً من تبوك حين اجتمع رأي من كان معه من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا على أن يغدروا برسول الله ﷺ في العقبة التي بين تبوك والمدينة، فقالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك. فلما وصل الجيش العقبة نادى منادي رسول الله ﷺ ان رسول الله ﷺ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع. فسلك الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله ﷺ العقبة.

فلما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة. وأمر ﷺ عمار بن ياسر رضه أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن السمان رضه أن يسوق من خلفه. فبينا رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع ﷺ القوم قد غشوه، فنفرت ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن، فجعل يضرب به وجوه رواحلهم. وقال: إليكم، إليكم يا أعداء الله، فإذا هو بقوم ملثمين... فولوا مدبرين فعلموا ان رسول الله ﷺ اطلع على مكرهم به فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي واختلطوا بالناس.

فلما أصبح رسول الله ﷺ جاء إليه أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من سلوك العقبة؟ فقال: أتدري ما أراد المنافقون وذكر له القصة. فقال: يا رسول الله! قد نزل الناس واجتمعوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا، فإن أحببت بيّن بأسمائهم. والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برؤوسهم. فقال الرسول ﷺ: إني أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى أقبل عليهم يقتلهم. فقال: يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب. فقال رسول الله ﷺ: أليس يظهرون الشهادة. ثم جمعهم رسول الله ﷺ وأخبرهم بما قالوه وما أجمعوا عليه. فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي ذكر فأنزل الله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة

---

(٥٢) سورة النساء: آية ٩٤.

(٥٣) سورة الأنفال آية ٣٠.

الكفر﴾ [٥٤]. وأنزل سبحانه: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ [٥٥].

ذلك هو سلوك النبي القائد مع أعداء الله وأعدائه، ولقد كان من هؤلاء ذو البطش الشديد الذي ما كان ليخفي عداوته المستمرة للاسلام والمسلمين، والرسول ﷺ يرفق لـه في القول ليقرب القلوب ويؤلفها، وكان يرفض دائما فكرة قتلهم حتى لا يقال فيه إنه قتل أصحابه.

فقد اراد عمر بن الخطاب ان يقتل عبدالله بن أبي ولكن الرسول ﷺ يمنعه في قوة غير آبه لاعتراضه وهو يقول له مرشداً: لا أقتلهم حتى لا يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه، وذلك يدل على بعد الرؤية ونفاذ البصيرة، حيث برم أهل كل منافق به، واستأذنوا النبي ﷺ في قتله، بل إن ابن عبدالله بن أبي قد طلب من النبي ﷺ أن يأذن له بقتل أبيه. فلم يأذن. وقال: وأين عمر؟ لو قتلتهم يوم طلب عمر أن أقتلهم لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم!.

وبلغت الشجاعة المعنوية برسول الله ﷺ مبلغا كبيراً، فقد نال بحلمه المشركين والمنافقين وأهل الكتاب بما لم يضر الدين او ينال من الدعوة.

فقد كان لرسول الله ﷺ مواقف مع عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وهم أشد ضرراً على الدين من المشركين، لأن عداوة أولئك باطنة. وقد كان رهط ابن أبي يدسون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ ويحرضونهم عليه، وكانوا يعدون اليهود بالثبات معهم ضد الرسول ﷺ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً، وإن قوتلتم لننصرنكم، والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ [٥٦].

ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من مرض ألمّ به، ومر الرسول على ابن أبي أُبيّ وحوله رجال قومه، فتذمم الرسول ﷺ من أن يجاوزه حتى ينزل. فنزل وسلم عليه ثم جلس قليلا، فتلا القرأن ودعا إلى الله عز وجل، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر وهو زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال: يا هذا: إنه لا أحسن من حديثك هذا. إن كان حقاً فاجلس في بيتك. فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغتّه به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه. فقال عبدالله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين:

---

(٥٤) سورة التوبة: آية ٧٤.

(٥٥) سورة التوبة: آية ٧٤.

(٥٦) سورة الحشر: آية ١١.

بلى فاغشنا به وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا له.

وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي. فقال: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً لكأنك سمعت شيئاً تكرهه؟ قال: أجل. ثم أخبره بما قال ابن أبي. فقال سعد: يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً [٥٧].

ويحلم الرسول ﷺ ويصفح؛ لأن ما يجدي هو دفع السيئة بالحسنة، فذلك منهاج دينه القويم الذي أنزل من لدن حكيم خبير، وما كان ذلك الحلم نتيجة ضعف منه ص، ولكنه حلم المالك لزمام الأمور، وصفح القادر المنتصر بإذن الله.

وتبلغ بالرسول المعلم الشجاعة النفسية ذروتها في صلح الحديبية، حين نزل على ما أراده المشركون، فكتب معهم العهد الذي رأى فيه المسلمون إجحافاً بحق المسلمين وتنازلا من رسول الله ﷺ لهم عن كثير من حقوقهم، ولكن الرسول ﷺ حسم الموقف بما أملاه المشركون، لأنه كان يرى بعين نبوته وإنسانيته ووحي ربه ما لا يمكن لسواه أن يرى. فإن من دخلت حلاوة الإيمان قلبه لا يمكن أن يرتد إلى الكفر مهما أصابه من عذاب.

لقد تضمن كتاب المعاهدة أن من يخرج من المشركين مسلماً بغير رضا وليه ردوه. ومن يخرج من عندمحمد مرتداً إلى مكة لا يردوه. وثار المسلمون وغضبوا عندما جاء أحد المسلمين من قريش مكبلا بالحديد فردوه.

لقد أرسلت قريش سهيل بن عمر أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا. فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه. فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: ألست برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال:

---

(٥٧) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٨٨.

بلى. قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني. فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً [٥٨].

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن ابي طالب رضه، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال الرسول ﷺ: اكتب باسمك اللهم. فكتبها. ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو. فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك. فقال رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إملال ولا إغلال، وأنه من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخلَ فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه [٥٩].

وكتب العهد بين الرسول ﷺ وبين قريش، وبه تبين للمسلمين بعد نظر الرسول ص وحكمته، فقد نقضت قريش العهد، لأنه لم يرتد أحد من المسلمين بينما جاء كثير من المشركين إلى الرسول ﷺ مسلمين. وإن من الصعب على من دخلت قلبه حلاوة الإيمان أن يرتد عن دينه الحق، وكان ذلك إيذانا بالفتح الكبير الذي أريه الرسول ﷺ، وما سيكون عليه من هدم للأصنام وتحطيم لأوثان الشرك والضلالة.

ومن تكن فيه مثل هذه الشجاعة المعنوية فإن من اليسير أن يكون صاحبها على مثلها من الشجاعة الجسدية التي تميز صاحبها في أوقات الحروب والملمات، فقد عرف الرسول ﷺ بالشجاعتين النفسية وما ينجم عنها والجسدية. قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعا وقد سبقهم الى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة رضه عري في عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا لم تراعوا إنه لبحر. فما سبق بعد ذلك اليوم» [٦٠].

---

(٥٨) سيرة ابن هشام ٣: ٣١٦ - ٣١٧.

(٥٩) سيرة ابن هشام ٣: ٣١٧ - ٣١٨.

(٦٠) البخاري ٤: ٦٣ - ٨٠.

لقد كان الرسول ﷺ قدوة ومثلا للمسلمين من بعده شجاعة وإقداماً في الحرب والسلام، ورحمة ورفقاً بالمتحاربين من كلا الفريقين، وهو ﷺ يفعل ذلك صدوراً عن دين الرحمة والانسانية، وانطلاقاً من دعوته التي تعلم الفضيلة في الحرب والسلام وهو القائل ﷺ: «حاربوا في سبيل الفضيلة وبالفضيلة كما رأيتموني أحارب». فواجب الانسانية أن تحترم والسيوف مشتجرة والحرب مستعرة.

القيادة والتنظيم:

لقد كان الرسول ﷺ قائداً حكيماً ومنظماً قديراً، وضع للانسانية كلها مبادىء الفضيلة وأسس العدالة التي تسيِّر الحياة في حربها وسلامها. وعلم البشرية كافة كيف يكون القائد المحارب.

والرسول ﷺ واحد من جنده، لا يفترق عنهم، يلتصق بهم، ويوجههم ويشاركهم ثمرات الحرب حلوها ومرها. يقول علي رضه: (كنا إذا اشتد الخطب وحمي الوطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ؛ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقرب إلى العدو).

ولم يكن الرسول ﷺ يستقر في العريش الذي بني له يوم بدر. وقد كانت هذه أول لقاء بين جيش الايمان وجيش الكفر، وعندها سيكون الرسول ﷺ هو هدف المشركين جميعاً. فقد روى على بن أبي طالب فقال: يا أيها الناس: من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين. فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر. إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً. فسأله المسلمون: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين. فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله، لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه فهذا أشجع الناس[٦١].

المسلمون بعضهم من بعض، وإن رسول الله ﷺ هو القدوة لهم، ومن بعده صحابته وأصحابه شجاعة وإقداماً وتضحية للروح وبذلا للمهج. يتساوى الجميع في هذا، لأن الأرواح تتساوى جميعها في ساحة الشرف.

ولقد انكشف المسلمون في غزوة أحد، وكان يوم بلاء وتمحيص، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ، فرمي بالحجارة حتى وقع لشقه، فأصيبت رباعيته وشج في وجهه وكلمت شفته. فجعل الدم يسيل على وجهه، وأخذ يمسحه وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه

---

(٦١) البداية والنهاية ٣: ٢٧٢.

نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ (٦٢).

ويتفانى المسلمون في القتال والدفاع عن حياض الإسلام حبا في الله وفي رسول الله، وقد كان القائد الرحيم رحيماً بجنده واثقاً بهم ومعظماً أمرهم، وبذلك تربى في نفوسهم العزة والثقة الهائلة التي لا تزعزعها الخطوب، فباعوا نفوسهم رخيصة، لأنهم حزب الله، ولأنهم أولياؤه سبحانه وتعالى، ولطالما دعا الرسول ﷺ ربه وابتهل إليه ان ينصر هذه العصابة (اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض. اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك). ويرفع الرسول ﷺ يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه. وجعل أبو بكر رضه يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال: يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك (٦٣).

وإن التلاحم القوي بين القائد وجنده لهو بعض أدوات النصر، فإن ذلك لا يشعرهم بأنهم مجرد آلات تلقى في أتون المعركة، وليسوا أدوات حرب تدمر مع ما يدمر في المعركة من عتاد.

وكان الرسول القائد يشاور جنده ويعمل برأيهم، وليس ذلك إلا ليربي في نفوسهم مبدأ الشورى وخلقه، فإن النجاح في المشاورة التي أقرها الاسلام وقال فيها سبحانه ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾. وهذا كله مما يدعم قوتهم النفسية التي أمدها الاسلام بطاقات وطاقات خلاقة عاملة.

لقد خرج رسول الله ﷺ يوم بدر إلى أدنى ماء بدر، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يالرسول الله! أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكم الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه. أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ (لقد أشرت بالرأي) (٦٤).

وحين تتعدد آراء المسلمين حول أمر ما مما فيه صلاحهم ورفعة دينهم فإن الرسول ﷺ ينزل عند حكم الكثرة منهم، حتى وإن كان في ذلك مخالفة لرأيه.

---

(٦٢) سورة آل عمران: آية ١٢٨.

(٦٣) البداية والنهاية ٣: ٢٧٢.

(٦٤) البداية والنهاية ٣: ٢٦٧.

لقد شاور الرسول ﷺ أصحابه يوم أحد: فهل يبقون في المدينة أو يخرجون منها للقاء المشركين (فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها). ووافقه الرأي عبدالله بن أبي بن سلول، وكان من المنافقين، والله وحده يعلم نيته حين عرض رأيه ذلك على الرسول ﷺ.

غير أن رجالا من المسلمين ممن فاتهم شرف المشاركة في بدر قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا. فقال عبدالله بن أبي بن سلول. يا رسول الله! أقم بالمدينة لا تخرج إليهم. فوالله ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا اصاب منا، ولا دخلها علينا إلا اصبنا منه. فدعهم يا رسول الله؛ فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرّجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لأمته.. ثم خرج عليهم، وقد ندم الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله قالوا: يا رسول الله. استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمة أن يضعها حتى يقاتل. فخرج رسول الله في ألف من أصحابه[٦٥].

والقائد الرحيم الرسول ص قدوة المقتدين المقاتلين بفضيلة وشرف ورحمة، ولقد زكى الله سبحانه هذه القيادة المحمدية فقال سبحانه: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله. إن الله يحب المتوكلين﴾[٦٦].

وقد بدت رحمة النبي ص بجنده في أحد، وعقب الجروح التي أصابت الجيش الإسلامي، فما وجّه لوماً لأحد، وما جال بخاطره أن يحاكم المقاتلين لأخطاء وقعت، بل كل همه في الميدان أن يسترد الموقف لأصحابه، وأن يقفوا ولا يخروا صرعى أمام أعدائه، وارتقى بهم إلى الهضبة وأعطى الراية من يحملها بحقها، وناضل وقاوم حتى أيأس المشركين من أن يستأصلوا المؤمنين، بل خافوا منهم وأنهوا القتال، وإن لم يكونوا مدحورين خشية أن يندحروا، إذ رأوا جند رسول الله قد اشتد بأسهم في القتال مع هذه الجراح التي جرحوها.

وعفا عنهم الرسول ﷺ ليستبقي نخوتهم وكرامة نفوسهم وبأسهم لما يأتي، وليس ذلك

---

(٦٥) ابن هشام ٣ : ٦٤.

(٦٦) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

فحسب، وإنما استغفر لهم رسول الله وكرمهم بعد استشهادهم بدفنهم حيث استشهدوا، وليكونوا عزاء وسلوى لذويهم، ومضى على سنته في تكريم أولئك الشهداء خلفاؤه الراشدون من بعده، ثم أمته المسلمة؛ فلا يكاد يمر موسم حج إلا ويتسارع الحجاج لزيارة قبورهم والاستغفار لهم.

وأصبحت هذه سنته ص في دفن الشهداء حيث يستشهدون، لتكون في قبورهم عبرتان: عبرة الاستشهاد والجهاد، وعبرة رؤية المكان الذي جاهدوا فيه واستشهدوا. فقال ص لبعض المسلمين ممن حملوا قتلاهم إلى المدينة بعد أحد فدفنوهم بها. (ادفنوهم حيث صرعوا).

كما أنه ﷺ أجاز دفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد. فقال لما أشرف على القتلى يوم أحد (أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه: اللون لون الدم والريح ريح مسك. انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر).

ولقد أمر رسول الله ﷺ بدفن المتصافين في الدنيا كما فعل حين أمر بدفن عمرو بن الجموح وعبدالله بن عمرو بن حرام في قبر واحد؛ فإنهما كانا متصافيين في الدنيا[٦٧].

الأسرى:

كان شعار رسول الله ﷺ دائماً الرحمة، في السلم والحرب وفيما ينتج عن هذه الحرب، والأسرى بعض ما ينتج عن الحرب، وهؤلاء قد أوصى الرسول ﷺ بهم خيراً فقال: «استوصوا بالأسرى خيراً». مع ما يكون من بعض هؤلاء الأسرى من غفلة وقوة وتقتيل بالمسلمين. ولكن رسول البشرية الهادي الرحيم ما كان ليقابل انتقامهم بانتقام، ولكنه كان يرسم لأمة الاسلام فيهم حسن المعاملة والرحمة والعدل.

وهذا بلا شك يثير في الأذهان واقع أسرى أيامنا هذه ممن يقعون في أيدي أعدائنا، وما يصيبهم من هذا العدو من تعذيب ووحشية وقسوة وتقتيل، وما يطلقونه عليهم من ألفاظ وأسماء أدناها (مجرمو الحرب) مما يهين إنسانيتهم، ويسحق كرامتهم. كما يقابل ذلك ما تعامل به أمة الاسلام أسراها من معاملة كريمة طيبة تحفظ عليهم إنسانيتهم. وليس يبعد عنا الأسرى الثمانية الذين أسرتهم منظمة فتح في لبنان، وهيأت لهم من طيب الإقامة وكرم المشاكل والمشرب وحسن المعاملة ما أشاد به الأسرى الصهاينة أنفسهم بعد الإفراج عنهم، مما حدا بحكومة العدو إلى التعمية عليهم، والتغطية على تصريحاتهم، حتى لا يكونوا مثار بلبلة

---

(٦٧) ابن هشام ٣: ٩٨.

بين الشباب الذين ضللتهم حكومتهم، وبنت حولهم أسوارا من التضليل والزيف.

لقد كان الأسرى في الاسلام فئة يستوصي بها الرسول خيراً، ويمنع إيذاءها، وبهذا يكون أولئك ابتلاء للمسلمين في جهادهم الأصغر، وهم يتسلحون بالفضيلة حتى في قتالهم وقتلهم، ثم في جهادهم الأكبر، وهم يجاهدون في نفوسهم وصدورهم نار الانتقام وشهوة التشفي إزاء أسراهم.

وأثبت المسلمون بذلك عظمة اقتدائهم برسول الله ﷺ، وجعلوا أسراهم في غزوة بدر بمثابة الضيوف. فقد نزلوا في بيوت الأنصار وآثروهم بالطعام على أنفسهم وأولادهم.

وبلغ من تكريم الأسير ما أنزله الله سبحانه وتعالى فيه حيث جعله من مراتب أعمال الخير التي يتقرب بها المسلم من ربه فقال سبحانه: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً﴾ (٦٨). وقال رسول الله ﷺ: (فكوا العاني، وأطعموا الجائع وعودوا المريض) (٦٩).

وللأسر منهج ومبادىء وضعها الإسلام، حتى لا ينال الأسرى ظلم. والأصل في الأسر أن يدعى صاحبه للإسلام، فإن أبى ومضى في قتال المسلمين حق عليهم أسره. فقد أتى النبي ﷺ بأسارى. فقال رسول الله ﷺ: هل دعوتموهم إلى الإسلام؟ فقالوا: لا. فقال لهم: هل دعوكم إلى الإسلام فقالوا: لا. قال: خلوا سبيلهم حتى يبلغوا مأمنهم. ثم قرأ الرسول ﷺ: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ (٧٠).

وهذا المنهج الواضح يقضي بالدعوة إلى الإسلام، فإذا اقتحم أحد هذا المنهج، وجاء بنصر حربي ظفر فيه بأسرى قبل أن يدعوهم إلى الاسلام، فعمله باطل لا يقره الاسلام، ولا يرضى به رسول الله ﷺ الذي رسم للناس طريق الدعوة إلى الله.

وقد فصل القرآن الكريم في شأن الأسرى فقال سبحانه: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (٧١).

فيم إذاً كان اختلاف الصحابة في الأسرى، والقرآن الكريم قد خير بين المن والفداء حسبما تقتضيه المصلحة الإسلامية العامة؟

إن هناك أمراً يتعلق بالأسر أصلا من خلال الآية الكريمة، ذلك أن الأسر يجب ألا يتم إلا بعد أن يثخن المشركون في الجراح، وتضعف قواهم، وتتبددطاقاتهم حتى لا يعودوا

---

(٦٨) سورة الانسان: آية ٨.

(٦٩) البخاري ٤: ٨٤.

(٧٠) سورة الفتح: آية ٨.

(٧١) سورة محمد: آية ٤.

قادرين على إثارة الفساد وإعلان الحرب على المسلمين من جديد؛ فإن العدو الأسير إذا بقي سلماً قوياً دون جراح فذلك أدعى إلى إبقاء نار الانتقام متأججة في صدره، ولا يطفئها غير معاودة القتال. فكان حكم القرآن الكريم في إضعاف العدو، وإثخان الجراح فيه قبل أسره حتى يطفىء ناره، ويميت قوته، فلا يعود قادراً على القتال.

وبعد هذا يكون الحكم الفاصل في هؤلاء، فهو إما المن وإما الفداء، وهو الحكم الجاري في أمة محمد أبداً، وهي ليس عن ضعف تفادي الأسرى، وليس عن خنوع تفتدي أسراها؛ فإن روح الإسلام وسمو تعاليمه قد بانت تلقائية حين تستعر الحروب، وينجم عنها ما ينجم. وإن كان ذلك يختلف تماما مع شريعة عدونا الصهيوني في تعامله مع أسرانا، بما يوقعه فيهم من تقتيل وتعذيب وتحريق.

لقد أسر من المشركين في بدر سبعون، ومعظمهم من رؤوس قريش وكبرائها. ولم يشأ الرسول ﷺ أن يفتي في أسر لم ينزل فيه وحي. فعمد إلى الشورى، وهي روح الاسلام، وبها قوة أهله؛ فاستشار الناس فيهم فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقال عمر: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ. ثم عاد النبي فقال للناس مثل ذلك. فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله! نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء.

وفي هؤلاء الأسرى يقول الإمام أحمد بن حنبل: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ (ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله: قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك وكذبوك. قربهم فاضرب أعناقهم. وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم به ثم احرق عليهم ناراً. فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم). وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم). أنتم عالة فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق.

ولقد أخذ رسول الله ﷺ بمبدأ الفداء الذي أشار به أبو بكر، كما أخذ بمبدأ القتل الذي رخصه لنفسه بعض من لم يكن يرجى منهم إسلام او نفع. كما أنه ﷺ لم يمنّ على بني هاشم بالفداء وتشدد فيه مع ما كان في قلبه من رقة ورحمة ورأفة بهم.

عن ابن عمر رضه قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر. أسره رجل

من الأنصار. قال وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس. وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه) قال عمر: أفآتيهم؟ قال: نعم!. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا. والله لا نرسله. فقال لهم عمر: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب. وما ذاك الا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك) (٧٢).

وليس خوف رسول الله ﷺ الشديد على عمه العباس وسواه من بني هاشم إلا لأنهم أخرجوا من مكة مكرهين على قتال المسلمين، فيقول ابن عباس: إن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها. لا حاجة لهم بقتالنا. فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا النجتري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله. ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله؛ فإنه إنما أخرج مستكرها) (٧٣).

ومع هذا الحرص الشديد على عدم قتل المشركين وفيهم العباس فقد تشدد الرسول ﷺ في أخذ الفداء منه، مع ادعاء العباس إسلامه من قبل. وفادى العباس نفسه بمائة أوقية من ذهب. وكانت المائة عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر، كما أمره بذلك رسول الله ﷺ حين ادعى أنه كان قد أسلم. فقال له الرسول ﷺ: أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك وسنجزيك. فادعى أنه لا مال عنده قال: (فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها: إن أصبت في سفري فهذا لبنيّ الفضل وعبدالله وقثم! فقال والله إني لأعلم أنك رسول الله. إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل (٧٤).

وقد مَنّ رسول الله ﷺ على من لا يستطيع الفداء، إذا كان يرجى منه الخير للاسلام؛ وكان ممن مَنّ عليهم ورد عليهم فداءهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ، ولقد كان كريماً باراً بزوجه مبقياً عليها حين حاولت قريش حمله على تطليقها. فقال: (والله لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش). فشكر له رسول الله ﷺ ذلك وأثنى عليه بذلك خيراً. وكانت زينب قد أرسلت إلى أبيها فداء زوجها قلادة كانت قد أهدتها لها أمها خديجة بنت خويلد يوم زواجها. فلما رأى الرسول ﷺ القلادة رق لها رقة

---

(٧٢) البداية والنهاية ٣ : ٢٩٨.

(٧٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٦٢٩.

(٧٤) البداية والنهاية ٣ : ٣٠٠.

شديدة وقال للصحابة: إن رأيتم ان تطلقوا لها اسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا. قالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها القلادة. وشرط عليه رسول الله ﷺ أن يخلي سبيل زينب أي تهاجر إلى المدينة، فوفى له زوجها بذلك، ولكن أبا العاص قد أسلم فيما بعد ولحق بزوجه إلى المدينة. ونزل التحريم عند الحديبية فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن. فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار. لا هن حل لهم، ولا هم يحلون لهن. وآتوهم ما أنفقوا. ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن. ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا. ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ (٧٥).

وكان الرسول ﷺ يبدأ بالخير دائماً إلى أعداء الاسلام، ولكن حين لا يجدي مع أولئك خير أو معروف فإن العدل أن يضرب على أيدي هؤلاء حتى لا يكون لهم وسيلة من وسائل ايذاء المسلمين والدين.

لقد منّ الرسول ﷺ على الشاعر أبي عمزة عمرو الجمحي، وكان هذا يؤذي بشعره الرسول ﷺ والمسلمين. فقال: يا رسول الله، إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها. فامنن عليّ. فمنّ عليه رسول الله وأعتقه وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً. ولما وصل إلى مكة قال: سحرت محمدا. ولما كان يوم أحد خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره، فأسر. وطلب من النبي أن يمنّ عليه فقال له النبي ﷺ: (لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمداً مرتين) (٧٦).

لقد جعل الرسول ﷺ فئة الأسرى سبباً من أسباب الخير الذي يستثمره لصالح المسلمين، وحرص ﷺ على الاستفادة ممن يتقنون القراءة والكتابة، وليس معهم مال يفتدون به أنفسهم، فكان فداء الأسير المشرك أن يعلم المسلمين القراءة والكتابة، وكان الرسول ﷺ يدفع للأسير عشرة غلمان من المسلمين يعلمهم، فإذا تعلموا كان ذلك فداءه (٧٧).

وترك الاسلام لكل فرد فيه كرامته وعزته، بل إن الاسلام لم يترك وسيلة من وسائل الحفاظ على كرامة الانسانية والبشرية إلا سلكها، ولم يشأ لبشر أن تذل انسانيته، وتمتهن كرامته، إلا حين يصبح هذا عدوا للدين وأهله.

وبقي رسول الله ﷺ القدوة الرحيمة في أحلك ظروف دعوته، وضرب للإنسانية المثل في

---

(٧٥) سورة الممتحنة: آية ١٠.

(٧٦) السيرة الحلبية ٢: ١٣٦.

(٧٧) السابق ٢: ١٩٣.

الصفح والتسامح حين ملك زمام الأمور، وحين فتح الله سبحانه وتعالى عليه مكة، إلا من كان يرى فيه الرسول الشر والضرر على الاسلام.

وعهد الرسول ﷺ إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ولكنه عهد في نفر سماهم أن يقتلوا ولو تعلقوا بأستار الكعبة) (٧٨).

ودخل رسول الله ﷺ الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيرا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محـق لاتبعتـه. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً. لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى. فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: قد علمت الذي قلتم. ثم ذكر ذلك لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما طلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك (٧٩).

ولقد بلغ الخوف ببعض المشركين إلى حد العزم على إغراق أنفسهم في البحر. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ حين حدثه عمير بن وهب عن صفوان بن أمية حين خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وطلب عمير من الرسول ﷺ أن يؤمن صفوان فقال الرسول ﷺ: هو آمن. قال يا رسول الله! فأعطني آية يعرف بها أمانك. فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة. ففرح بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب في البحر. فقال: يا صفوان، فداك أبي وأمي. الله الله في نفسك أن تهلكها. فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به. قال: ويحك أغرب عني فلا تكلمني. قال: أي صفوان. فداك أبي وأمي. أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس، وخير الناس. ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذاك وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ. فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني قال: صدق. قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر (٨٠).

ولم تكن هذه الصورة من الصفح والأمان غير واحدة من عشرات الصور المحمدية مع من آذوا محمدا ﷺ وصحبه، وهو ﷺ يعلم علم اليقيم أن اولئك الذين عصوا وتمردوا سيكون لهم في الاسلام شأن حين يهديهم الله سبحانه وتعالى بهديه، وكان ﷺ يدعو ربه أن يهديهم بهدايته؛

---

(٧٨) سيرة ابن هشام ٤: ٤٠٩.

(٧٩) السابق ٤: ٤١٣.

(٨٠) سيرة ابن هشام ٣: ٤١٨.

فقد قال رسول الله ﷺ حين قرب من مكة في غزوة الفتح: إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب بهم في الاسلام، عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام وسهيل بن عمرو.

وأعطى الرسول ﷺ الأمان لقريش كلها، وأرضى بالأمان غرور أبي سفيان حتى يستل من صدره السخيمة والبغضاء على الإسلام والمسلمين. لقد طلب ابو سفيان من رسول الله ص أن يدعو الناس بالأمان. فقال: يا رسول الله ادع الناس بالأمان. أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. من كف يده، وأغلق داره فهو آمن. قال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن [٨١].

وليس هذا الأمان المحمدي إلا من مصدر قوة الاسلام والمسلمين، وهي قوة فاعلة أراد الرسول ﷺ أن يعلنها للملأ؛ فقد برزت كتائب المسلمين أمام أبي سفيان بخاصة، حتى لا يبقى في صدره شيء من عصيان أو شرك، فعقد الرسول من لواء لأبي رويحة الذي آخى الرسول بينه وبين بلال وأمره ان ينادي: من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن. وأمر الرسول ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان وبديلا وحكيم بن حزام بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها. قال العباس: فمرت القبائل كلها. وكلما مرت قبيلة كبرت ثلاثا عند محاذاته. قال: يا عباس من هذه؛ فأقول: سليم. فيقول ما لي ولسليم. ثم تمر القبيلة فيقول يا عباس: من هؤلاء؛ فأقول: مزينة. فيقول ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل كلها. ما تمر قبيلة إلا سألني عنها. فإذا قلت له بنو فلان قال ما لي ولبني فلان. فقال: أول من مر خالد بن الوليد في بني سليم. فقال ابو سفيان: يا عباس! من هؤلاء؟ قال: هذا خالد ابن الوليد. قال الغلام، قال: نعم. قال: ومن معه. قال: بنو سليم قال: مالي ولبني سليم. ثم مر على أثره الزبير بن العوام رضه في خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب. فقال أبو سفيان: من هؤلاء؟ قال الزبير: قال: ابن اخيك؟ قال: نعم ثم مرت بنو غفار ثم أسلم ثم بنو كعب ثم مزينة ثم جهينة ثم كنانة ثم أشجع. ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس: هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد. قال العباس: أدخل الله الإسلام في قلوبهم، فهذا فضل الله. حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء للبسهم الحديد، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، وفيها ألفا دارع. وعمر بن الخطاب رضه يقول: رويداً حتى يلحق أولكم آخركم. قال: سبحان الله يا عباس. من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في

---

(٨١) السيرة الحلبية ٣: ٨٠.

الأنصار. فقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. فقال ابو سفيان والله يا ابا الفضل لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيما. فقلت: يا أبا سفيان! إنها النبوة. فقال: نعم إذن. ثم قلت له: النجاء إلى قومك. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن [٨٢].

إلى قريش أمان، وإلى كل فرد يغلق عليه بابه أمان، وإلى كل من ألقى سلاحه أمان (ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن) [٨٣].

والحرمة لمكة التي عظمها الله سبحانه وتعالى، لا يسفك فيها دم؛ فقد أورد البخاري عن سعيد بن شرحبيل.. عن أبي شرع العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة أئذن لي أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغد يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به. حمدالله وأثنى عليه، ثم قال: (إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس. لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك بها دماً، ولا يعضبها شجراً، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب) [٨٤].

إنه دين الله الاسلام، أرسل به محمد ﷺ إلى الناس كافة، وأمره ربه تبليغه، وأوجب على أمته حمايته والدفاع عنه بكل قوتهم، بل لقد جعل الاسلام الجهاد دون العقيدة وفي سبيلها فرضاً لازماً، يعز به الدين، ويعز به أهله، وإن انتصار هذا الدين واعلاء شأنه، لا يكون إلا بالقتال والاستشهاد كما استشهد المسلمون الأوائل الذين تخرجوا في مدرسة رسول الهدى ﷺ.

لقد رسم رسول الله ﷺ لأمته سبيل الحفاظ على الدين، وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، من خلال جهاده هو نفسه عليه أفضل الصلاة والسلام، جهاداً يتسم بالعدل والرحمة والانسانية إلا فيما يغضب الله ويضر بالاسلام والمسلمين، وما كان ﷺ ليتهاون في شأن إرادة دينه ومصلحة أمته، حتى تبقى أمته خير أمة، درعها الجهاد، وسياجها الاستشهاد، وجوهرها البذل والفداء والتضحية بالروح والحياة قبل المال.

وإن عز الاسلام لا يكون إلا بالذود عن حماه، ورد الاعتداء عن أهله، ودفع الظلم عن

---

(٨٢) السيرة الحلبية ٣: ٨١.

(٨٣) السابق ٣: ٨٤.

(٨٤) البخاري ٥: ١٩٠.

المستضعفين من النساء والشيوخ والأطفال، والقتال في سبيله حتى ينال به المقاتل إحدى الحسنيين.

والقتال في سبيل كف بأس أعداء الحق، وطغيان اعداء الاسلام والمسلمين المتربصين بهم الدوائر، وكسر حدة الباطل، وإضعاف شوكة أهله هو جهاد مأمور به في الاسلام، ومرغب فيه ومأجور عليه أعظم الأجر.

والقتال في سبيل تأمين الدعوة إلى الله وازالة معالم الباطل التي يقيمها أعداء الإسلام جهاد مأمور به في الاسلام ومفروض على المسلمين في نطاق العدل ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

والقتال في سبيل القضاء على الفتنة في الدين حتى يأمن الناس على عقائدهم الصحيحة ويأمنوا على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأداء عباداتهم في ظل الحق الالهي جهاد مفروض على الذين بيدهم مقاليد الحق والدعوة إلى الله حتى يكون الدين كله لله.

وإن القتال في سبيل الله لم يشرع ابتغاء عرض الحياة الدنيا، وإنما شرع لدفع الظلم والقضاء على الشرك، وإلا كان مسخطاً لله، موجباً لعذابه، ولا يكون القتال جهاداً في سبيل الله ما لم يكن لإعلاء كلمة الحق، ورفع راية التوحيد. ولا عز للاسلام، ولا نصر لأمة الاسلام إلا بالجهاد و« إن الجنة تحت ظلال السيوف».

وإنه الأمانة الإلهية إلى أمة الاسلام، أمانة باقية في ذمم المؤمنين إلى يوم الدين و﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (٨٥).

---

(٨٥) سورة التوبة: آية ١١١.

الرسول - ﷺ - ويهود

ما وُجدَ منذ خُلق الخلقُ قوم هم أخبث طوية، أو أصلب رقابا، أو أعظم مكراً، أو أشد غدراً من اليهود. وهذا ما وصفوا به في توراتهم وفي الانجيل وفي القرآن الكريم.

وهم منذ وجدوا أعداء المبادىء والمثل، وقد كان عداؤهم ولا يزال يمتد ويتسع حتى يشمل البشرية كلها، بل إن غدرهم قد أصاب الأنبياء والرسل بما فيهم رسولهم موسى وأخوه هرون، وتعدوا على خالقهم وتمردوا عليه وعصوه، فحاق بهم سخط الله، وباءوا بغضب منه سبحانه، وكان منهم القردة والخنازير في سوء طويتهم، وفي خبث طبائعهم.

وهم أعداء الاسلام والأديان كلها، لأنها تتفق جميعاً على الحق والخير والعدل والسلام بعد الايمان بالله وتوحيده، وهذه في مجموعها مما يكره اليهود، حيث لا تنسجم مع طبائعهم الملتوية، فباتوا يدفعون الحق بالباطل، ويحاربون الخير بالشر، ويهدمون العدل بالظلم، ويشعلون الحروب ليحترق السلام على الأرض.

هكذا كانوا منذ ساقهم موسى من مصر بل إنه لم يتغير فيهم شيء عبر الأحقاب والدهور، وكيف يتغير ما يسري في العروق مع الدم؟ مهما أرسل إليهم من أنبياء ومن رسل تجاوزوا الآلاف.

ووقفوا من رسول الله محمد ﷺ كما وقفوا من موسى، ولكن بعد أن أضافوا إلى ذلك ما خلفته مئات السنين - التي تفصل بين موسى ومحمد - في نفوسهم من حقد وكراهية على خاتم الانبياء الذي جاء ليؤكد ما جاء به سابقوه، ويكمل بناء التوحيد للبشرية كافة، وليعلن نهاية المسك أو مسك الختام. فتفننوا في الوان الايذاء، واخترعوا من سبل المكر والخداع مما ورثوه عن الشيطان. وأخذوا يحاربون الرسول ﷺ بما لم يحارب به رسول، وكادوا له كيداً، كان الله سبحانه يرده إلى نحورهم، وهم لا يرعوون، ولا يردعون، ولكنهم تمادوا في حربه وإيذائه، وهو يعفو ويصفح، وبالعفو والصفح أرسل ﷺ، ولكن دون ما تهاون في أمر هذا الدين. ومع كل هذا الصفح كان الرسول ﷺ يعلم أن الغدر هو دأبهم لأنه مركوز في جبلتهم الخبيثة، فلا يتركونه، ولا يتحولون عنه. وما عفو الرسول ﷺ عنهم إلا مظهر من مظاهر

سماحة الاسلام الذي أرسل إلى البشرية نوراً وهدى ورحمة.

ولقد وقع في يقين اليهود آنئذ أن محمداً ﷺ لن يفرط في حق من حقوق الله، فهو لن يكون منهم على مهادنة أو مسالمة إذا هم مضوا في غيهم وغدرهم وكيدهم، فوقف منهم الرسول ﷺ موقفاً حازماً لم يستطيعوا معه أن ينفذوا إلى الاسلام، فضرب على أيديهم بقوة الاسلام، وخرب الله بيوتهم بأيديهم، وتأكد فيهم حكم التوراة والانجيل والقرآن، فشتت الله شملهم بعد إذ كانوا متجمعين في خيبر، وإن حكم الله فيهم بالتشتت ماض وباق، حين يتم اجتماعهم. ولعل في تجمعهم الآن فوق ثرى وطننا فلسطين ايذاناً بالتشتت وإعلاناً عن التيه القديم المتجدد بتجدد الدهور، على أيدي رجال من أمة رسول الله ﷺ وهم رجال ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ [1].

وما عهد أولئك الرجال المؤمنين غير الاستشهاد في سبيل الله والحق ورفع راية لا اله الا الله فوق الأرض التي بارك الله حولها، وحفظها وحماها من دنس الشرك والمشركين، وما تدنيس الأرض من عبدة الشيطان في الحاضر غير الابتلاء والاختبار الذي يمحص الله به الذين آمنوا. وإن الله سبحانه (يدافع عن الذين آمنوا).

وليس بعيدا عن يقين المؤمن أن يكون اليهود بعض هذه الابتلاءات التي ابتلي بها عباد الله المؤمنون، ومن خلالهم يتأكد إيمان المؤمن الذي يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، وان في ابراهيم عليه السلام، وفي ابنيه اسماعيل واسحق ونسلاهما من بعدهما لما يبين الأمر، ويزيده وضوحاً، ونحن نرى في هذين النسلين، الخير والشر، وفيهما الحق والباطل، وهما يسيران في الحياة في خطين متوازيين، ولن يكون بينهما في النهاية غير ما بدآ به، فالحق بيّن والباطل بيّن ويبقى الشر هو عدو الخير، ويبقى الباطل عدوا للحق. ولكنهما متلازمان.

لقد اتخذ اليهود الجزيرة العربية ملاذا لهم وملجأ إثر طرد تيطوس الروماني لهم من فلسطين، وأحالوها إلى أوكار يحيكون فيها دسائسهم وينفثون فيها سمومهم بين أهلها العرب، ولكنهم في الوقت ذاته بشروا بنبي يخرج فوق تلك الأرض ونشروا ذلك بين عرب الجزيرة، الذين باتت قلوبهم تستشرف ذلك الحدث العظيم، حتى إذا كان النور المهدي، اذا باليهود يفجرون حقد مئات السنين ضد هذا النبي، ويبثون سموم الفرقة والشك بين العرب، وبخاصة حين استتب له الأمر.

وكان العداء اليهودي للرسول ﷺ، عظيماً وهو العداء الذي لم تنطفىء جذوته أو تخمد ناره، متنقلا في أعقابهم جيلا بعد جيل، حتى إن الحاخام المتعصب مثير كاهانا صرح فقال:

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٣.

إن عداءنا ليس لأحمد العربي فحسب وإنما لاسماعيل بن هاجر الذي كان منه أحمد.

عداوة يتوارثها الخلف عن السلف فيهم، وكان أن تفجرت فيهم نيران الحقد والكره والانتقام حين انتصر الحق به، وبدأ هذا الانتصار بأعظم تأليف للقلوب شهدته الانسانية في تاريخها، ذلك هو المؤاخاة بين المهاجرين والانصار، حتى جعل منهم اخوة متحابين في أسرة واحدة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم. و﴿لو أنفقت ما في الأرض جيعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [٢].

وكان أول أمر الرسول ﷺ مع يهود بني قينقاع في المدينة، وقد كشفوا عن لؤم طباعهم حين ظنوا أن في إمكانهم الاستهانة به ﷺ والاستخفاف بما لديه من قوة المؤمنين، ولكن الرسول ﷺ جبههم في هذا اللقاء بما في نفوسهم حيث جمعهم في سوقهم فقال: يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل لقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل. تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم. فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرجة. أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. فأنزل فيهم قوله سبحانه: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا. فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ [٣].

إن يهود بني قينقاع هم أول من نقضوا العهد وحاربوا الرسول ﷺ، كما أنهم حاولوا الاعتداء على شرف نساء المسلمين مما أثار حمية المسلمين وأشعل غضبهم على اليهود.

فقد ذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ هناك منهم، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها. فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله. فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه. فقام إليه عبدالله بن أبي سلول حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمد أحسن في مواليّ، وكانوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أحسن في مواليّ، فأعرض عنه. فأدخل يداه في جيب درع رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا. ثم قال ويحك أرسلني. قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في

---

(٢) سورة الأنفال: آية ٦٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٢، ١٣.

مواليّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع. فقد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة. إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: هم لك.

ولعل في صبر الرسول ﷺ على اليهود وكظمه الغيظ ما شجعهم على التمادي في ايذاء المسلمين، ولكنه في الوقت ذاته نبّه المسلمين إلى هذا الخطر الذي يتهددهم إذا هم لم يتصدوا له بالحرب والمقاطعة.

وذهب عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان من بني عوف وله من حلف اليهود مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم. وقال: يا رسول الله: أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. فنزل في هذا الموقف قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم. حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين. يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[٤].

إنَّ تشدد الرسول ﷺ على اليهود، كان تشدد المتيقن من عدم صلاحهم وإصلاحهم، فإن من ينقض عهد الجوار فلا خير يرجى منه وإن اعتداءهم على نساء المسلمين مما لا يرضى به مسلم، فكيف برسول الله ﷺ وهو حامي المسلمين وراعيهم؟ وهو ﷺ يعلم يقينا ان اليهود لا جوار لهم ولا وفاء ولا عهد، وكان على الرسول ﷺ أن يجليهم عن المدينة إجلاء رحيماً رغم ما فعلوه وأفسدوه، فبعد حصار شديد طويل أجلاهم ولم يقتلهم، وكان حقا له لو أنه قتلهم، ولكنه رسول الرحمة الذي لا يقابل السيئة بمثلها، وإنما يدفع السيئة بالحسنة حتى يستل الضغائن من القلوب، ولكن اليهود ليسوا ممن تستل الحسنة والمعروف سخائم قلوبهم، والخير لا يزيدهم الا حقداً، والمعروف لا يزيدهم إلا اعوجاجا.

وبنو النضير يهود آخرون كانوا في المدينة، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهود وموادعة على ألا يظاهروا عليه احدا، وهو العهد ذاته الذي عقده مع جميع يهود المدينة،

---

(٤) سورة المائدة: آية ٥١ ـ ٥٦.

وعاهدوه على أن يتعاونوا في أداء الديات ليبقي على جوارهم، ويحفظ الأمن عليهم.

فقد خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر. وكان بين هؤلاء وبين اليهود عقد وحلف. فلما طلب الرسول ﷺ منهم ذلك أظهروا له الرضا والموافقة. فقالوا: نعم يا أبا القاسم. نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (ورسول الله ﷺ إلى جنب دار من بيوتهم قاعد). فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم. فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال. ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضه. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود رأت من الغدر به. وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم [5].

إن الرد الطبيعي على أولئك هو القوة والسلاح، ولم تمنعهم حصونهم التي تحصنوا فيها، وحاصرهم الرسول ﷺ ست ليال في السنة الرابعة للهجرة، وخوفهم وأفزعهم بقطع نخيلهم وتحريقه، ولكن الله سبحانه قذف في قلوبهم الرعب، فاستسلموا لرسول الله ﷺ، وسألوه أن يجليهم، ويكف عن دمائهم، على ان لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام [6].

ووصف الله سبحانه في كتابه العزيز حال هؤلاء اليهود فقال تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر. ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله. فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب. ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ [7].

---

(٥) سيرة ابن هشام ٣: ١٩٠.

(٦) السابق ٣: ١٩٠. الخراج وصناعة الكتابة: لقدامة بن جعفر ٢٥٧ ـ سلسلة كتب التراث ١١٠ وزارة الثقافة والاعلام ـ العراق.

(٧) سورة الحشر: آية ٢ ـ ٥.

فبنو النضير هم أول اليهود الذين أجلوا عن أرض العرب في الجزيرة العربية، وكانت غنائهم أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل وحصون، فهي التي سنت ما يتخذ من حكم الاستيلاء على الأراضي، أتوزع على المحاربين او تكون محبوسة على مصالح المسلمين، فيكون لهم غلاتها، وتبقى تحت أيدي أصحابها على ألا تكون أيديهم أيدي ملاك رقبة بل ملاك منفعة على خراج يؤدونه.

ولقد اختلفت آراء الصحابة في ذلك أمام رسول الله ﷺ حتى نزلت الآيات الكريمات، فحسمت الأمر. فقال سبحانه: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب. للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ (٨).

وأعطى الرسول ﷺ ثمرات أرض بني النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مؤونتهم عن الأنصار، ولم يعط من الأنصار إلا أبا دجانة وسهل بن حنيف لحاجتها. ووزعت الأموال والثمرات على ذوي الحاجة وذوي القربى واليتامى والمساكين، وفعل الرسول ﷺ ذلك مع التابعين من المهاجرين والأنصار ثم من جاءوا بعدهم.

ومن يهود بني النضير هؤلاء كعب بن الأشرف شاعرهم، وقد كان يؤجج النيران ضد المسلمين، واتخذ موقف العداء والمجاهرة به ضد الرسول ﷺ، ومضى في الهجاء غير مراع حرمة ولا ذمة ولا عهدا ولا كرامة، وقد تحلل من كل قيد خلقي وتمادى في ذلك وأخذ يشبب بنساء المسلمين من غير حرج، بل لم يترك بابا من أبواب حرب الرسول ﷺ إلا سلكه.

لقد كان كعب حربا على الرسول والمسلمين، وحين علم بمقتل المشركين في بدر، أعلن غضبه على المؤمنين وقال: (لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها). وكان هذا إعلانا للعدواة المكنونة في نفسه. فماذا إذاً يجدي معه غير التصدي له، وإطفاء نار حقده، وإماتة بغضه.

---

(٨) سورة الحشر: آية ٦ - ١٠.

ليس إذاً غير الحرب ضد هذا الشاعر اليهودي الهجاء الذي كانت أشعاره تؤجج نار المشركين، وقد ذهب إلى مكة واستعدى قريشاً وأخذ يحرض أهل الذين قتلوا في بدر من المشركين على حرب الرسول ﷺ. وربط حباله بحبالهم، ومزج نفسه بنفوسهم حتى قال له أبو سفيان من فرط ما امتزجت نفوسهم به: أناشدك، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه، وأينا أهدى في رأيك؟ وأقرب إلى الحق؟ إننا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. فقال له كعب اليهودي الكتابي: أنتم أهدى سبيلا. فقال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت. ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [٩].

لقد صب كعب بن الأشرف في شعره حقد مئات السنين التي يضمرها اليهود لأمة العرب والاسلام، فلجأ إلى كل سبيل فيه مضرة الاسلام والرسول ﷺ. وكان أداة شر باعثة مدمرة في جسم أمة الاسلام. وقال في قتلى بدر من المشركين يحرض اهلهم على الثأر والانتقام من المسلمين:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرعُ
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزعُ
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذي أثر الحديث بطعنه ... أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع
نبئت أن بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمي على الحسب الكريم الأروع [١٠]

عند هذا لم يكن أمام رسول الله ﷺ من خيار غير قتل ابن الأشرف وتخليص الأمة الاسلامية من شروره، ليكون على مدى الدهور والأزمان عبرة لبني جنسه الذين يحركهم الشر، وليكون في هذا إنذار إلى ما يؤول إليه حال أولئك المفسدين. ولقد كان القتل آخر

---

(٩) سورة النساء: آية ٥١ ـ ٥٤.

(١٠) سيرة ابن هشام ٣: ٥٢.

سبيل أكره الرسول عليه بما فعل عدو الله والرسول والمسلمين. لقد قال الرسول ﷺ: من لي بابن الأشرف؟

من لرسول الله ﷺ بهذا الكعب اليهودي؟ ومن للكعوب اليهودية غير المسلمين الذين خلقهم من الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ لقد وقف محمد بن مسلمة وقال لرسول الله ﷺ: أنا لك به يا رسول الله. أنا أقتله. قال: فافعل إن قدرت على ذلك.

ومكث محمد بن مسلمة ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاه فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول الله! قلت لك قولا لا أدري هل أفي لك به أم لا؟ فقال: إنما عليك الجهد. فقال: يا رسول الله. إنه لا بد لنا من أن نقول قال: قولوا ما بدا لكم. أنتم في حل من ذلك. فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل. وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة.

ثم قدم هؤلاء إلى عدو الله كعب بن الأشرف قبل أن يأتيه سلكان بن سلامه (أبو نائلة)، فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشدوا شعراً. وكان أبو نائلة يقول الشعر. ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف! إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فأكتم عني. قال: افعل. قال: كان قدوم الرجل علينا بلاء من البلاء. عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف. أما والله لقد كنت اخبرك يا ابن سلامة ان الامر سيصير إلى ما أقول. فقال له سلكان: إني قد اردت ان تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك. فقال: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت ان تفضحنا. إن معي اصحابا لي على مثل رأيي. وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن في ذلك. ونرهنك من الحلقة (الدروع) ما فيه وفاء. وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها. قال: وإن في الحلقة لوفاء قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ.

مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله. اللهم أعنهم. ثم رجع رسول الله إلى بيته وهو في ليلة مقمرة، وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناصيتها وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة. قال: إنه أبو نائلة. لو وجدني ناعساً لما أيقظني. فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر، قال لها كعب: لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب. فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه. ثم قال: هل لك يا ابن الأشرف

أن نتماشى إلى شعب بظاهر المدينة، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم. فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة.

ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط. ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها. فأخذ بفود رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً.

ثم قال محمد بن مسلمة: فذكرت فعولا في سيفي حين رأيت أسيافنا لا تغني شيئاً، فأخذته، وقد صرخ عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا وقد أوقدت عليه نار. قال: فوضعته في ثنته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله.

وقد أصيب الحارس بن أوس بن معاذ، فجرح في رأسه أو في رجله. قال (ابن مسلمة) فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة، ثم على بعاث حتى أسندنا في حرة العريض. وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم. فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا. فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل، وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه، فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا، فرجع ورجعنا. وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه [11].

إن قوماً ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة يجبنون ويرعدون عند أول صيحة لأنهم ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم﴾ [12]. وذلك ما كان من حال اليهود بعد ان قتل كعب بن الأشرف أحد رؤوسهم، وقد جدد مقتله في نفوسهم الحقد اليهودي، فأخذوا يكيدون للرسول ﷺ، ويؤلبون المشركين عليه، ويحزبون الأحزاب ضده.

وذلك هو شأنهم دائما، لا يقوون على المواجهة، ولا يجرؤون على المجابهة، ولا يقاتلون إلا من وراء الصفوف، ولا يحاربون إلا من وراء الجدر، تماما كما يحاربون الأمة العربية والاسلامية اليوم، فحروبهم كلها لم تكن إلا من خلال الطائرات والدبابات، وهم يقيدون فيها المقاتلين بسلاسل حتى لا يفروا من كل صيحة يحسبونها هي العدو فاحذرهم قاتلهم الله.

وكان أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه بقتال الأحزاب كافة، وإنه سبحانه لناصره عليهم: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين﴾ [13]. وكان على رأس قريش أبو سفيان، وهو يرعد ويتوعد ويتهدد، وكان الله سبحانه من وراء رسول الله

---

(١١) ابن هشام ٣: ٥٥ ـ ٥٧.

(١٢) سورة المنافقون: آية ٤.

(١٣) سورة التوبة: آية ٣٦.

ﷺ وأصحابه، وقد استشارهم فيما هم فاعلوه. وكان أن أشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة، تراجع عنده المشركون، وحال بينهم وبين دخول المدينة.

ونقف هنا قليلا مع لؤم طبائع اليهود وخستهم وغدرهم الذي لا ينفكون عنه، لقد باتت المدينة المنورة محصنة من جميع جهاتها أمام الأحزاب، بما فيها الجهة الجنوبية الشرقية التي أقام فيها بنو قريظة، وكان بينهم وبين المسلمين عهد على ألا يغدروا أو يخونوا أو يظاهروا على المسلمين أحداً.

ولكن اليهود نكثوا ذلك كله واكثر منه، وتحرك فيهم الدهاء اليهودي والمكر؛ فحين عجزت الأحزاب عن دخول المدينة المحصنة سارع حيي بن أخطب اليهودي الذي ألب الأحزاب، وحزبها على الرسول ﷺ إلى بني قريظة، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده. فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له فناداه حيي: ويحك يا كعب! افتح لي. قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه. ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً. قال: ويحك! افتح لي أكلمك.

قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن اغلقت دوني إلا عن جشيشتك أن آكل معك منها. فاحفظ الرجل. ففتح له فقال: ويحك يا كعب. جئتك بعز الدهر وببحرطام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد. وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء. ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه. فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك (١٤).

ونقض كعب اليهودي العهد وغدر، والغدر هو الأصل في هذه الطباع، ولكن الوفاء هو عارض عليهم لا يلبث سريعا حتى يمضي، ويكشف عما تحته من مخاتله وحقد يهوديتين، وبرىء كعب مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، وانضمت بنو قريظة إلى أحزاب الشيطان.

---

(١٤) سيرة ابن هشام ٣: ٢٢١.

بلغ الخبر رسول الله ﷺ، وأراد أن يستوثق منه، فأرسل لهذا الأمر سعد بن معاذ (سيد الأوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) ومعهما عبدالله بن رواحة. فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا يا لحنا أعرفه. ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه. وكان رجلا فيه حدة. فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم. فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه، ثم لحنوا له الخبر حتى لا يفت في أعضاد المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين.

واجتمعت الأحزاب كلها على المدينة من جميع الأرجاء، وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، وظهر نفاق المنافقين حتى قال بعضهم ساخراً: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأخذنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وقال آخرون: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا؛ فإنها خارج من المدينة.

لقد كان ذلك اقسى الامتحانات الالهية للمسلمين وأصعب الابتلاءات، وفيها محصت القلوب، وانكشفت النفوس أمام ميزان الايمان والتقوى، فكان من المسلمين المؤمنون حقا، وكان منهم ضعاف الإيمان، وكان منهم المنافقون المخذلون.

وفي غمرة ذلك الهول العظيم لجأ القائد العظيم والرسول الكريم إلى الوسيلة التي ينقذ بها المسلمين، وسعى إلى سياسة التخذيل بين قريش وبين من آزرها من الأعراب، واطمع غطفان ومن معها من نجد بثلث ثمار المدينة، ورضوا بذلك طمعاً منهم. وكتبت غطفان كتاب الصلح من جانبها فحسب. واستشار رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وابن عبادة، وعرض عليهما كتاب المصالحة فقالا: يا رسول الله! أمراً تحبه فتصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون ان يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا الله وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله

لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال النبي ﷺ: أنت وذاك [١٥].

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا. فأقام النبي ﷺ وأصحابه [١٦].

وهذا الموقف ينبىء عما عزم عليه المسلمون من مقابلة الأحزاب ومقاتلتها بالقوة والحزم والشدة، وبما دخل قلوب الاحزاب من طمع اوهن قواهم، وبلبل آراءهم وأوقع الصدام بينهم. وساعد على هذا الخلاف بين الأحزاب التخذيل الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي من غطفان؛ فقد أتى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله. إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريظة، وكان لهم نديما في الجاهلية. فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم؟ قالوا: صدقت. لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم. فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً؛ وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني. فقالوا: نفعل. قال: تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد. وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ

---

(١٥) القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم: كتاب الخراج ٢٢٥ / المطبعة السلفية ـ القاهرة.

(١٦) السيرة الحلبية ٤ : ١٠٤.

ولا أراكم تتهموني؟ قالوا: صدقت. ما أنت عندنا بمتهم. قال فاكتموا عني. قالوا: نفعل. فما أمرك. ثم قال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله ص أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام. قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً. وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً، فأصابه ما لم يخف عليكم. ولسنا مع ذلك بالذين نقابل معكم محمداً حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال ان تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحداً من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا، إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم(١٧).

وهزم الأحزاب، وتبدد شملهم، وانفرط عقدهم، وقد حسم الله سبحانه الموقف لصالح الرسول ﷺ وللمسلمين، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار. ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

وأصبح الرسول ﷺ وانصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة، والمسلمون، ووضعوا السلاح(١٨). وكفى الله سبحانه وتعالى المؤمنين القتال، وهزم الأحزاب بجنود من لدنه وقال

---

(١٧) سيرة ابن هشام: ٣: ٢٣٢.

(١٨) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٢.

فيهم سبحانه ﴿يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم. إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكـم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا. هنالـك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً. ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وكان عهد الله مسؤولا. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتـل، وإذا لا تمتعون إلا قليلا. قل من ذا الذي يعصمكم مـن اللـه إن أراد بكـم سـوءاً أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً. قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلا. أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت. فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا. يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم. ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا. لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾ (١٩).

لقد كشفت غزوة الخندق أو الاحزاب نوايا يهود بني قريظة، وتكشفت أحقاد صدورهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وظنوا أنهم بنقضهم العهد قد كسبوا المعركة عليه كما أوهمهم المشركون. وهاجموا بيت الرسول ﷺ وبيوت المسلمين، فأظهروا بذلك أنهم أشد من الاحزاب عداوة وحقدا وضرراً على المسلمين، حين دلوا المشركين على عورات بيوت

---

(١٩) سورة الأحزاب: آية ٩ ـ ٢٧.

المسلمين. وكان دعاء الرسول ﷺ «اللهم استر عوراتنا وآمن عوراتنا». واستجاب الله تعالى لرسوله الكريم ورد الله كيد أعدائهم من اليهود والاحزاب إلى نحورهم. وكفى الله المؤمنين القتال.

فماذا كان موقف بني قريظة بعد انتصار الرسول ﷺ على الاحزاب؟

لقد ملأت الهزيمة قلوبهم رعباً وفزعاً، وتمثل أمامهم ما حل بيهود بني قينقاع وبني النضير، وبدا لهم المصير الذي يتربص بهم، وكان على رسول الله ﷺ أن يحاسبهم على ما فعلوا، ولن يكون العفو والصفح أحد أطراف الحساب، بل لن يكون الإجلاء كذلك أحد الحلول، فإن عذرهم كان أعظم من أن يصفح عنه الرسول ﷺ في غمرة المعركة التي تحزبت فيها قوى الشرك ضده.

لم يكن للرسول ص من خيار غير قتال بني قريظة، ونتيجة القتال معروفة، بل إن الحكم فيهم بات معروفاً لقد جاء جبريلُ رسولَ الله ﷺ فقال له: أو قد وضعت السلاحَ يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال جبريل، فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس، من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة. واستعمل الرسول ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، ثم قدم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس فسار علي بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ. فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق. فقال: يا رسول الله. لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: لم؟. أظنك سمعت منهم لي أذى، قال: نعم يا رسول الله. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا.

ولما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة، نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم.

وتلاحق به الناس، فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ: لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة، فشغلهم ما لم يكن منه بد في حربهم، وأبوا أن يصلوا إلا في بني قريظة، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم رسول الله ﷺ.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون وأني عارض عليكم خلالا ثلاثا. فخذوا أيها شئتم قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل. وأنه للذي تجدونه في كتابكم. أفتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؟ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه، رجالا مصلتين السيوف. لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد؛ فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه. وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يخف عليك من المسخ. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

وترك الرسول ﷺ الحكم في بني قريظة للمسلمين، ولقد كان ذلك وحيا من الله سبحانه اختار فيه الرسول سعد بن معاذ حكما بينه وبين بني قريظة، الذين كانوا موالي الأوس. حتى لا يكون في هذا الحكم أدنى مظنَّة بظلم اولئك الأخابث.

لقد قال الرسول ﷺ للأوس: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ. وكان الرسول ﷺ قد جعل سعد ابن معاذ في خيمة رفيدة في مسجده، حيث كانت تداوي الجرحى.

فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمر، أحسن في مواليك. فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله والمسلمين قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد ابن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؛ قالوا: نعم! وعلى من ها

---

(٢٠) سيرة ابن هشام ٣: ٢٤٠.

هنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له. فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فإني أحكم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سموات) (٢١).

لقد كان العدل والرحمة والخير للانسانية ما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة، فإن في قتلهم حياة للمجموع، وإن في إبادتهم تحصينا للأمة المسلمة من شرور اليهود وآثامهم، وأنى لمجتمع أن يمضي في طريق الخير، ومثل أولئك الغلف القلوب يسدون طريقه.

وَاستُنزلَ بنو قريظة، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث من بني النجار، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالا، ومنهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ست مئة أو سبع مئة. وقد قالوا لكعب بن أسد، وهو يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ: يا كعب! ما تراه يصنع بنا. قال: أفي كل موطن لا تقتلون؛ ألا ترون الداعي لا ينزع، وإنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل. فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ (٢٢).

إن هذا الحكم في بني قريظة كان كفاء ما فعلوا من جرائم حكمها القتل والسبي. ولا يتصور متصور أن هذا الحكم كان جديدا عند أولئك القوم، وهم وسواهم يعرفون ما قاموا به من تقتيل وتذبيح وتحريق للأبرياء فوق أرض فلسطين التي غزوها بالحديد والنار بأيدي أنبيائهم وملوكهم وقضائهم، ناسبين ذلك كله إلى الرب الذي كان من صنع أيديهم وخيالاتهم المريضة، هو رب الحرب وسفك الدماء لكل البشر غير اليهود.

وكأن هذا الرب لم يصنع إلا لإحياء اليهود وخدمتهم بكل ما فيهم من رذائل وخبث وشر وحقد وجشع وانتقام من بني البشر.

لقد أُتي بحيي بن أخطب عدو الله وعليه حلة فقاحية (٢٣) قد شقها من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها. مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس. فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله. كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

---

(٢١) السيرة لابن هشام ٣: ٢٤٠.

(٢٢) سيرة ابن هشام: ٣: ٢٤٠.

(٢٣) وردية اللون.

أما أموال بني قريظة، فقد قسمها رسول الله ﷺ وفقاً لكتاب الله حيث قال سبحانه: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ (٢٤).

فقد قسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخمس، وكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سهمان ولفارسه سهم. وللراجل سهم. وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرساً. وكان أول فيء وقفت فيه السهمان. وأخرج منها الخمس، فعلى سنتها وعلى ما مضى من رسول الله ص فيها وقعت المقاسم ومضت السنة في المغازي.

ثم بعث الرسول ص سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلا وسلاحاً يقوي به جيش المسلمين (٢٥).

وبإنفاذ الحكم في بني قريظة تطهرت المدينة من أرجاس اليهود وغدرهم، فقد كانوا آخر اليهود الذين أقاموا في المدينة.

ولكن بقي لهؤلاء حصن آخر منيع، لجأ إليه اليهود الذين أجلوا عن المدينة من بني قينقاع والنضير وقريظة، ذلك هو حصن خيبر في شمال المدينة.

والرسول ﷺ كان يعلم حق العلم الخطورة التي كانت لخيبر، وهي تجمع إليها بني قينقاع والنضير الذين ألبوا الأحزاب، وأثاروا العرب على المسلمين، وحملوا بني قريظة على خلف العهد، ونقض الميثاق بينها وبين الرسول ﷺ.

وباتت خيبر مركزاً لتجمعات اليهود التي تتحين الفرص لتنقض على رسول الله ﷺ، وهي تظن أنها ستتمكن منه، فينهار بذلك صرح الإسلام. فكان على الرسول ﷺ أن يجعل خيبر وجهته بعد إتمام صلح الحديبية، حيث يأمن فيه قريشاً والجنوب، ولا يبقى بعدها غير الشمال الذي فيه خيبر ويهودها، ومنها تكشف جبهة المسلمين.

وليس بعيداً أن تصبح خيبر حليفاً لهرقل وكسرى اللذين يتربصان بالاسلام والمسلمين، كما يتربصها اليهود، لينفذوا منها إلى الرسول ﷺ. ولم يكن شيء من هذا ليخفى على الرسول ﷺ وهو السياسي الفذ، والرسول المعلم والعليم بما جبل عليه يهود من خلال ما يعرفه عنهم في الجزيرة وأكده القرآن الكريم. وهؤلاء لا يهدأ لهم بال، ولا يقر لهم قرار حتى يتحالفوا مع

---

(٢٤) سورة الأنفال: آية ٤١.

(٢٥) ابن هشام ٣: ٢٤٥.

أعداء المسلمين، ويغدروا وينكثوا، وهم فيما قاله عنهم سبحانه وتعالى: ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ (٢٦).

وانتهى رسول الله ﷺ من صلح الحديبية، وأقام بعدها في المدينة سنة سبع للهجرة من ذي الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر.

وعمل الرسول ﷺ منذ خروجه على الفصل بين خيبر وغطفان وهي التي انضمت إلى بني النضير الذين ألبوا الأحزاب في السابق وتهيأوا لغزو المدينة.. وحين أشرف الرسول ﷺ على خيبر وقف وقال لأصحابه: قفوا، ثم أخذ يدعو والمسلمون يرددون معه: (اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. اقدموا باسم الله).

وحين خرج الرسول ﷺ من المدينة إلى خيبر سلك إلى يحصْر فبنى له فيها مسجداً، ثم على الصهباء. ثم أقبل ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع. فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر. وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

وحين وصل ﷺ إلى خيبر استقبلهم عمالها غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم. فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس معه. فأدبروا هرابا فقال رسول الله ﷺ: الله اكبر. خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. فإن رسول لله ﷺ كان لا يغير على قوم بليل، ولا يغير عليهم إلا بعد الصبح. وكان إذا طرق قوماً، فإن سمع أذانا امسك، واذا طرق قوماً ليلا لم يغر عليهم حتى يصبح. وكان إذا بعث سرية قال لهم: (إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم أذانا فلا تقتلوا أحداً) (٢٧).

والرسول ﷺ هو قائد غزوة خيبر، وقد كانت هذه عبارة عن مجموعة حصون، كل حصن من حصونها كان يضم حصوناً كثيرة، وكأن كل حصن كان بداخله حصن آخر. وابتدأ الرسول ﷺ من حصونهم الكثيرة بحصن النطاة، ونزل قريباً منها، فجاء إلى الرسول ﷺ الحبابُ بن المنذر رضه. فقال: يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم،وإن كان الرأي تكلمنا، فقال الرسول ﷺ هو الرأي. فقال: يا رسول الله! إن أهل النطاة لي بهم معرفة. ليس قوم أبعد مدى سهم منهم، ولا أعدل رمية منهم. وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم. ولا نأمن من بياتهم، يدخلون في مجتمع

---

(٢٦) سورة آل عمران: آية ٧٧.

(٢٧) كتاب الخراج لأبي يوسف: ٢٠٨. المطبعة السلفية ـ القاهرة.

النخل. تحول يا رسول الله. فقال الرسول ﷺ: أشرت بالرأي، إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا.

ودعا رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة رضه فقال: انظر لنا منزلاً بعيدا. وطاف ابن مسلمة وقال: يا رسول الله! وجدت لك منزلا. فقال رسول الله ﷺ: على بركة الله، وتحول لما أمسى، وامر الناس بالتحول. وكان مكاناً يحول بين أهل خيبر وبين غطفان، وابتنى رسول الله ﷺ هناك مسجداً صلى به طوال مقامه بخيبر.

وألحَّ الرسول ﷺ على حصن ناعم، وهو من حصون النطاة بالرمي، ويهود تقاتل، والرسول ﷺ على فرس يقال له الظرب، وعليه درعان ومغفر وبغيه، وفي يده قناة وترس. وقد دفع ﷺ لواءه لرجل من المهاجرين، فرجع ولم يصنع شيئاً، فدفعه إلى آخر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً.

وفي ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة رضه، برحى ألقيت عليه من ذلك الحصن، وجاء اخوه محمد بن مسلمة رضه إلى رسول الله ﷺ. فقال: إن اليهود قتلوا أخي محمود بن مسلمة، فقال ﷺ: لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم. فإذا ليقتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت. ثم الزموا الأرض جلوساً، فاذا غشوكم فانهضوا وكبروا.

ومكث الرسول ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصون النطاة، يذهب كل يوم محمد بن مسلمة رضه للقتال، ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفان. فإذا أمسى رجع ﷺ إلى ذلك المحل ومن جرح من المسلمين ليداوي جرحه.

وكان ﷺ يناوب بين أصحابه في حراسة الليل. فلما كانت الليلة السادسة من السبع، استعمل ﷺ عمر رضه، فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وفرقهم. فاتى برجل من يهود خيبر في جوف الليل، فأمر به عمر أن يضرب عنقه. فقال: اذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه. فأمسك عنه، وانتهى به إلى باب رسول الله ﷺ فوجده يصلي، فسمع الرسول ﷺ كلام عمر، فسلم وأدخله عليه، فدخل باليهودي فقال له الرسول ﷺ: ما وراءك؟ فقال: تؤمنني يا أبا القاسم؟ فقال: نعم، قال: خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة. قال: فأين يذهبون؟ قال: إلى الشق، يجعلون فيه ذراريهم، ويتهيأون للقتال. وفي هذاالحصن الذي هو الحصن الصعب من حصون النطاة في بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، فاذا دخلت الحصن غدا وأنت تدخله قال رسول الله ﷺ إن شاء الله. قال اليهودي: إن شاء الله أوقفتك عليه؛ فانه لا يعرفه غيري، وأخرى. قيل ما هي؟ قال: يستخرج المنجنيق وينصب على الشق، ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك. وكذلك تفعل بحصون الكتيبة.

ثم قال: يا أبا القاسم! احقن دمي. قال: أنت آمن. قال: ولي زوجة فهبها لي. قال: هي لك. ثم دعاه ﷺ إلى الإسلام. فقال: أنظرني أياما ثم قال ﷺ لمحمد بن مسلمة: لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله، لا يولي الدبر، يفتح الله عز وجل على يده، فيمكنه الله من قاتل أخيك.

وعند ذلك لم يكن من الصحابة رضى الله عنهم أحد له منزلة عند النبي ﷺ إلا يرجو أن يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: أين علي ابن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتي به فتفل رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله. فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم (٢٨).

فكان علي رضه من فتح حصن ناعم، وهو أول حصون النطاة، وهو منزل ياسر أخي مرحب اليهودي.

وفي غزوة خيبر أصاب المسلمين مجاعة شديدة أنهكتهم وأجهدتهم. فأرسلت أسلم إلى رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة، وأمرته أن يقول للرسول ﷺ: إن أسلم يقرئونك السلام، ويقولون أجهدنا الجوع. فلامهم رجل وقال: من بين العرب تصنعون هذا؟ فقال زيد بن حارثة أخو أسماء: والله إني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ﷺ مفتاح الخير. فجاء أسماء إلى الرسول ﷺ، وبلغه ما قالت أسلم، فدعا لهم فقال: اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليس بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه. اللهم افتح أكثر الحصون حطاماً وودكا. ودفع اللواء للحباب بن المنذر رضه وندب الناس. وكان من سلم من يهود حصن ناعم قد انتقل إلى حصن الصعب بن معاذ من حصون النطاة.

وكان في حصن الصعب خمسمئة مقاتل، فخرج منه رجل يقال له: يوشع مبارزاً، فخرج له الحباب بن المنذر رضه فقتله، وخرج آخر مبارزاً يقال له الديال، فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري رضه فضربه على هامته فقتله، وقال له: خذ وأنا الغلام الغفاري. فقال الناس: حبط جهاده، فقال ﷺ لما بلغه ذلك يؤجر ويحمد.

وحملت اليهود حملة منكرة، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف قد نزل عن فرسه، فثبت الحباب بن المنذر رضه فحرض الرسول ﷺ المسلمين على الجهاد،

---

(٢٨) صحيح البخاري ٥ : ١٧١.

فأقبلوا ، وزحف بهم الحباب فانهزمت وأغلقت الحصون عليهم.

ثم إن المسلمين اقتحموا الحصن، يقتلون ويأسرون فوجدوا في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئاً كثيراً. ونادى منادي رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحملوا به إلى بلادكم[٢٩]. وذلك يشير إلى الرخصة في أكل المسلمين من الطعام الذين يغنمون، وعلف دوابهم. ولا خمس فيما يأكلون ويعلفون. فمن تعدى إلى غير الأكل وإعلاف الدواب فإنما هو غلول[٣٠].

وبسقوط حصن الصعب فرمن سلم من اليهود إلى حصن قلة، وهو حصن بقلة جبل، وهو آخر حصون النطاة الثلاثة، وهي ناعم والصعب وقلة. وأقام المسلمون على حصار هذا الحصن ثلاثة أيام. لم ينفع اليهود فيه قتالهم المستميت، وفتح المسلمون الحصن، وبه تم فتح حصون النطاة جميعها، وكان اليهود يفرون أمام المسلمين من حصن إلى آخر فيها، وهم يحسبون أن حصونهم مانعتهم من الله، ولكن الله سبحانه أخزاهم وهزمهم هزائم منكرة، ولا غالب على أمر الله سبحانه.

ثم سار المسلمون إلى حصار حصون الشق، وكان أول حصن من حصونها حصن أبيّ. فقاتل أهله قتالا شديداً، وخرج رجل منهم يقال له غزوال يدعو إلى البراز، فبرز له الحباب ابن المنذر رضه، وحمل عليه فقطع يده اليمنى، ونصف الذراع، فبادر راجعا منهزما إلى الحصن، فتبعه الحباب فقطعف عرقوبه فوقع، فذفف عليه. فخرج آخر مبارز فخرج له رجل من المسلمين فقتل اليهودي ذلك الرجل، وقام وكان أبو دجانة رضه فضرب اليهودي فقطع رجله ثم ذفف عليه.

وعند ذلك أحجمت يهود عن البراز، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوه يتقدمهم أبو دجانة رضه، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنما وطعاماً. وهرب من كان فيه، ولحقوا بحصن يقال له حصن البريء، وهو الحصن الثاني من حصني الشق، فتمنعوا به أشد التمنع وكان أهله أشد رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة، حتى أصاب النبل بنانه ص، فأخذ كفاً من الحصى فرمى حصنهم فرجف بهم ثم ساخ في الأرض، وأخذ المسلمون من فيه أخذاً ذريعاً.

وهكذا سقطت حصون النطاة والشق، فانهزم من سلم من يهود إلى حصون الكتيبة الثلاث: القموص، والوطيح والسلالم.

---

(٢٩) السيرة الحلبية ٣ : ٤١.

(٣٠) الخراج ٢١٣.

وكان القموص أعظم حصون خيبر وهو حصن بني أبي الحُقيق، وكان منيعاً حاضره المسلمون عشرين ليلة، ثم فتحه الله على يد علي رضه، ومنه سبيت صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق [٣١].

وانتهى المسلمون إلى حصار الوطيح وحصن شلالم، ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً. فلم يخرج أحد منهما. فهم الرسول ﷺ أن يجعل عليهم المنجنيق ولم يرم به. فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، وأن لا يصحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، وتركوا ما لهم من مال وأرض من الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة والبز إلا ثوباً واحداً. فصالحهم الرسول ﷺ على ذلك، وعلى أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم إن يكتموه شيئاً من متاعهم يسألهم عنه [٣٢].

غير أن اليهود الذين عاهدوا الله ورسوله على ألا يكتموا الرسول ﷺ شيئاً من مالهم لم يفوا بهذا العهد، فقد أنكروا أموالا سألهم عنها الرسول ﷺ، وغيبوا الجلد الذي كان فيه حليّ بني النضير وعقود الدر والجوهر الذي جلوا به. وكان سلام بن أبي الحقيق رافعاً له ليراه الناس، وهو يقول بأعلى صوته: هذا ما أعددنا لرفع الأرض وخفضها. فقال رسول الله ص لسعية بن عمرو عم حيي بن أخطب وقيل لكنانة بن أبي الحقيق: أين مسك (جلد) حيي بن أخطب (عظيم بني النضير)؟ فقال: أذهبته الحروب والنفقات [٣٣]! فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فأتى رسول الله ﷺ رجلٌ من يهود فقال له: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك؟ أأقتلك؟ قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام. فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده. ثم دفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة [٣٤].

وتم لرسول الله ص فتح جميع الحصون عنوة إلا الوطيح والسلالم، فإنهما فتحا صلحاً على حقن دماء المقاتلة، وترك الذرية لهم بشرط أن لا يكتموه شيئاً من أموالهم، ومن كتم شيئاً فقد نقض العهد.

---

(٣١) سيرة ابن هشام ٣: ٣٣١ والسيرة الحلبية ٣: ٤١.
(٣٢) السيرة الحلبية ٣: ٤١.
(٣٣) البداية والنهاية ٤: ١٩٩ والسيرة الحلبية ٣: ٤١.
(٣٤) سيرة ابن هشام ٣: ٣٣٧.

ولكن اليهود نكثوا ونقضوا، فسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، وأراد إجلاءهم منها فقالوا: يا محمد. دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها. ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ.

وكان عبدالله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرجها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرجته، وأرادوا أن يرشوه. فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ. ولأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض [٣٥].

ولما قتل عبدالله بن رواحة في مؤتة، ولي رسول الله ﷺ بعده جبار بن صخر رضه، وكان من أهل الحيرة في خرس الزروع والثمار.

لقد كانت خيبر فيئاً بين المسلمين، بعد أن افتتحت عنوة بعد القتال. وقد خمسها رسول الله ﷺ وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال، فدعاهم الرسول ﷺ فقال، إن شئت دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها، وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وآمركم ما أمركم الله، فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها.

فلما توفى الله نبيه ﷺ أقرها أبو بكر رضه بعد رسول الله ﷺ بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله ﷺ حتى توفي.

ثم أقرها عمر رضه صدرا من إمارته. ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان. ففحص عمر ذلك حتى بلغه التثبت، فأرسل إلى يهود، فقال إن الله عز وجل قد أذن في جلائكم. لقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان. فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم.

ومما دفع عمر بن الخطاب رضه إلى إجلاء اليهود نهائياً عن خيبر ما أصاب عبدالله بن عمر رضه وسواه من المسلمين من غدر اليهود، إذ إن شرط إقامة من بقي منهم في خيبر عدم الغدر بالمسلمين وعدم نكث عهودهم. وكان أن طردهم منها عمر إلى غير رجعة.

---

(٣٥) البداية والنهاية ٤: ١٩٩.

عن عبدالله بن عمر رضه قال: خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها. فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا. قال: فعدي علي تحت الليل، وأنا نائم على فراشي، ففدعت يداي من مرفقي. فلما أصبحت استصرخ عليّ صاحباي، فأتياني فسألاني: من صنع هذا بك؟ فقلت: لا أدري. قال: فأصلحا من يديّ ثم قدما بي على عمر رضه فقال: هذا عمل يهود. ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس! إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنّ نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبدالله بن عمر ففدعوا يديه، كما قد بلغكم مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا نشك أنهم أصحابه. ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به؛ فإني مخرج يهود فأخرجهم[٣٦].

لقد عادت خيبر خالصة إلى المسلمين، ولم يقم لليهود بعد طرد عمر لهم قائمة في خيبر فإن أولئك قوم لا علاج لهم غير الحزم والبطش والقوة التي لا تلين. فلعل الله أن يقيض لهذه الأمة الاسلامية والعربية من يجعل دينه وديدنه وشغل ليله ونهاره مطاردة كل يهودي وقتله فوق أرضنا الاسلامية والعربية، فيخلص البشرية من شرورهم وآثامهم، ولا كفيل لنا بذلك غير الايمان المطلق الذي تزلزل له الجبال، وليس الإيمان الا القوة والعزيمة والثبات في وجه أعداء الله والدين والحق، دون تردد أو مزايدة أو مناقصة على الحقوق الشرعية الأزلية التي جعلها الله لعباده المؤمنين.

وبلغ خبر تمكن الرسول ﷺ من الحصون جميعها يهود فدك، فأصابهم الذعر والرعب لما حل بالهيود، وأدركوا أن حينهم قد حان، فآثروا السلامة والسلام، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فجاءت رسلهم رسول الله ﷺ فقبل ذلك منهم. فكانت فدك نصفها خالصة للرسول ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

وكان الرسول ﷺ ينفق من فدك ويعود منها على صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم. ولما مات الرسول ﷺ وولي أبو بكر رضه الخلافة سألته فاطمة رضه أن يجعل فدك أو نصفها لها فأبي، وروى لها أن ﷺ قال: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.

وفي عهد عمر بن الخطاب اشترى النصف الثاني من فدك بمال بيت المال، ثم أجلاهم عنها، كما أجلى يهود خيبر.

ولما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز قيل له: إن مروان اقتطعها له، فقال: أرأيتم أمراً منعه رسول الله ﷺ فاطمة ليس لي بحق، واني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله ﷺ صدقة على المسلمين.

---

(٣٦) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٥٧.

أما يهود وادي القرى فقد سار إليهم رسول الله ﷺ بعد خروجه من خيبر في جمادي الآخرة سنة سبع للهجرة. وقد قاوم أولئك اليهود الرسول ﷺ واستقبلوه بالرمي، حين نزل الرسول ﷺ والمسلمون، وهم يصيحون في آطامهم، وأصابوا مدعما غلام الرسول ﷺ الذي كان يرحل له بهم فقتلوه.

وهيأ الرسول ﷺ أصحابه للقتال وصفهم. ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب بن المنذر، وأخرى إلى سهل بن حنيف، ومثلها إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الاسلام، وأخبرهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله.

فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلا، وكلما قتل منهم رجلا دعا من بقي منهم إلى الإسلام... وقاتلهم حتى أمسى وغدا عليهم. فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم وفتحها عنوة، وغنمهم الله أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، فقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخيل في أيدي اليهود وعاملهم عليها.

لم يبق من اليهود غير يهود تيماء، فإنهم لما بلغهم ما وطىء به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم وأموالهم. ثم قفل رسول الله ﷺ راجعا إلى المدينة بعد أن فرغ من خيبر ووادي القرى.

وانتهت قصة يهود الجزيرة العربية بعد طردهم إلى الأبد منها، ولكن عداوة اليهود للأمة الاسلامية والعربية لم تنته، فهي عداوة قديمة متأصلة، لم تبدأ ببعث محمد ﷺ رسولا، وإنما بدأت منذ أيام هاجر واسماعيل، الابن البكر لابراهيم عليه السلام، ومن اسماعيل كان محمد ﷺ الذي انتقلت إليه النبوة من نسل اسحق.

وقد تمثلت هذه العدواة وتجسدت في مواقف غدر كثيرة، حاكها اليهود ضد الرسول ﷺ، ومضى الحقد اليهودي بالرسول ﷺ كل سبيل، وهم يرون فيه خيبة آمالهم في أن تختتم النبوات والرسالات في نسل اسحق، مع تبشير التوراة بمحمد ﷺ، ولم يستطع اليهود، طمس هذه البشارة مع كل ما صرفوه وزيفوه وطمسوه في توراة موسى، ولكنهم كانوا على مر الدهور والعصور يحترقون في نار هذا الحسد والحقد والكره على رسول الله ﷺ.

ذكر الواقدي أن عيينة بن حصن رأى في منامه قبل أن يسلم رؤيا رسول الله ﷺ محاصراً خيبر، فطمع من رؤياه أن يقاتل رسول الله فيظفر به، فلما قدم على رسول الله في خيبر وجده قد افتتحها. فقال: يا محمد! أعطني ما غنمت من حلفائي (أهل خيبر) فقال له رسول

الله ﷺ (كذبت رؤياك) وأخبره بما رأى فرجع عيينة فلقيه الحارث بن عوف، فقال: ألم أقل إنك توضع في غير شيء، والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب. وإن يهود كانوا يخبروننا بهذا. أشهد أني سمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا لنحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، إنه لمرسل، ويهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذبحان، واحد بيثرب والآخر بخيبر.

قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض؟ قال: نعم. والتوراة التي أنزلت على موسى. وما أحب أن تعلم يهود بقولي هذا [٣٧].

ولم يؤثر ذلك الحقد اليهودي واللؤم في سماحة رسول الله ﷺ وكريم معاملته معهم، وقد رأى بعين حكمته، ونبوته أن يتقرب من المؤمنين منهم كل التقرب، ليكون في ذلك قدوة لأمته من بعده، في حسن معاملة المؤمنين من أهل الكتاب، وليس الكافرين منهم.

لقد بنى الرسول ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، حتى يمنع بها فتنة كادت تحدث بين المسلمين. كانت صفية حين وقعت أسيرة في يد المسلمين زوجة لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ومن قبله سلام بن مشكم الذي طلقها. وكانت في سهم دحية الكلبي الصحابي الجليل، فنفس عليه غيره أن تكون له بنت زعيم اليهود، وكادت تحدث فتنة، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فعرض على دحية جارية غيرها ثم اصطفاها لنفسه، فأسلمت وحسن أسلامها ثم أعتقها وتزوجها.

ثم إن في هذا الزواج تخفيفاً للضغائن المستترة في نفوس اليهود، وهم أعدى أعداء الاسلام والرسول ﷺ، كما أن هذا الزواج يحفظ على صفية كرامة الانسان بعد عزة، وكان يمكن للرسول ﷺ أن يجعلها ملك يمينه، ولكنه حفظ عليها إنسانيتها وكرامتها، وقد كانت ابنة زعيم وزوجة زعيم قتلهما الرسول ﷺ لغدرهما وخيانتهما للمسلمين.

ولم يترك الرسول ﷺ في قلب صفية عليه شيئاً من ضغينة لما حل بها، فقد رفق بها وطيب قلبها عن قتل أبيها وزوجها، مع ما كان عليه هذان من ضرر على المسلمين. فقد كان أبوها حيي بن أخطب يؤلب القبائل على رسول الله، ويحزب الأحزاب ضده، ويثير الضغائن، وأما كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقد نقض ما عاهد عليه رسول الله ﷺ في عدم إخفاء أي مال عنه، حين فتح خيبر، ولكن كنانة أخفى كنز حيي عن الرسول ﷺ، واكتشف الرسول الكنز، فقتل به ابني أبي الحقيق لغدرهما ونقضهما العهد.

---

(٣٧) البداية والنهاية ٤: ٢١٢.

ووصلت رحمة الرسول ﷺ بصفية مداها حتى إنها لتقول (فما قمت من مقعدي ومن الناس أحد أحب إلي منه ﷺ) [٣٨].

ولكن المسلمين كانوا في خوف على رسول الله ﷺ حين بنى على صفية، خشية أن تغدر به، وبات أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ. فلما رأى مكانه قال: مالك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك. فقال الرسول ﷺ: اللهم احفظ أبا أيوب، كما بات يحفظني) [٣٩].

والغدر اليهودي النسوي لا يقل شراسة عن غدر الرجال منهم، فالنفوس واحدة، والطبائع المنحرفة هي ذاتها، والقلوب الغلف هي التي وصف بها اليهود جميعاً في توراتهم دون استثناء إلى غير ذلك مما يدفعهم في كتب السماء والأرض. وليس من المسلمين من يجهل ما دبرته للرسول ﷺ من غدر زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم أحد زعمائهم، فقد دخلت زينب هذه على الرسول ﷺ وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم، ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر، فأهدت إليه شاة مسمومة، وكانت قد سألت بعض أصحابه: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ. فقيل لها الذراع. فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور. فقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ.

فأما بشر فساغها، وأما رسول الله فلفظها ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: بلغت من قومي ما لم يخف عليك. فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر.

وتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل [٤٠].

وعفا الرسول ﷺ عن زينب عفو اقتدار ومرحمة من رسول مبشر وهاد ومنذر، وإن كان ذلك لم يردع اليهود عن احكام مؤامراتهم هذه. ولم يتركوا فرصة تمر دون الإيقاع به. ولكن الله سبحانه وتعالى كان حافظاً رسوله ﷺ في كل مرة يغدر فيها اعداؤه اليهود، وكان سبحانه حاميه من كيدهم ومؤامراتهم حتى يتم الله به نوره ولو كره الكافرون.

---

(٣٨) السيرة الحلبية ٣ : ٤٤.

(٣٩) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٤.

(٤٠) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٣٨.

ولقد شهدت على هذه العداوة اليهودية للرسول ﷺ واحدة منهم تلك هي صفية بنت حيي ابن أخطب إذ تقول: (عندما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا ساقطين يمشيان الهوينى قال: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله أتعرفه وأتثبته. قال نعم. قال: ما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت [٤١].

تلك إذا هي العداوة اليهودية منذ اسماعيل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد امتلأت قلوبهم بعدواة رسول الله ﷺ، وسرى فيهم الحقد مسرى الدم في العروق.

قال عبدالله بن سلام وهو الحبر اليهودي العالم: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف [٤٢] له. فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة. فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه. وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة. فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت. فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله. والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت. فقلت لها: أي عمه، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به. فقالت: أي ابن أخي! أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم. فقالت: فذاك إذاً. ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

قال ابن سلام: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله! إن يهود قوم بهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني.

قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه، فكلموه وساءلوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا.

قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود! اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، والله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأومن به وأصدقه وأعرفه.

---

(٤١) السابق ٢ : ٥١٨.

(٤٢) ننظر في أمره ونسأل عنه.

فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي، وقالوا: ما آمـن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين اباثهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله سبحانه فيهم: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب، أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ (٤٣)، فقلت لرسول الله ص: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت. أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها (٤٤).

ولم يفتر اليهود عن معاداة الرسول ﷺ وعن الكيد له، والتشكيك في رسالته، وإلقاء الريب في قلوب المسلمين، ولكن الله سبحانه وتعالى أمره ان يجادلهم بالحسنى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (٤٥). لأن المجادلة سبيل من سبل نشر الدعوة وارساء دعائمها.

ولكن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، وهو ناصر حزب المؤمنين فقد تمت كلمة ربك الحسنى، وانتصر رسول الله ﷺ على أعداء الدين والاسلام والانسانية، ويبقى هذا الانتصار المحمدي معلماً من معالم انتصار هذه الأمة على اليهود أعداء الله والحق، وليبقى انتصاراً تقترب منه أمة الإسلام وتناله إذا هي أخلصت النية لله، والتزمت طريق الله، وجعلت فوق كل راية راية لا اله الا الله والله اكبر.

عندئذ ينتصر المسلمون ويستردون حقهم في أكرم أرض وأطيب ثرى، فلسطين التي بارك الله سبحانه حولها.

والتاريخ ماض في دورته، فتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنته تحويلا. و﴿لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ (٤٦). وليس الذين آمنوا غير أمة محمد ﷺ التي اختارها ربها واصطفاها ﴿إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (٤٧)، وهي ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾. وما ذاك الاختيار، والاصطفاء إلا بما أنعم الله عليها من نعمة الإيمان، والبذل في سبيله، بالجهاد والاستشهاد - ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ (٤٨).

صدق الله العظيم

---

(٤٣) سورة آل عمران: آية ١١٣.
(٤٤) سيرة ابن هشام ٢: ٥١٦ - ٥٥٧.
(٤٥) سورة النحل: آية ١٢٥.
(٤٦) سورة المائدة: آية ٨٢.
(٤٧) سورة البقرة: آية ١٣٢.
(٤٨) سورة محمد: آية ٣١.

الخاتمة

باسم الله ابدأ وباسم الله أختم فقال سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾[1].

لقد عرض هذا الكتاب أمانة السماء إلى الأرض، وهي دين الله أو رسالاته السماوية، ووضعت هذه الأمانة في ميزان الأقوام الذين أرسلت إليهم هذه الرسالات.

وقوم إسرائيل هم أول الأقوام التي أرسل الله إليها رسالة مكتوبة محررة بيد رسول هو موسى عليه السلام.

وأوضحتْ الدراسةُ المقارنة بين التوراة والقرآن كيف تسلم قوم إسرائيل هذه الرسالة! وهل بلغوا الأمانة كما أراد الله لها آن تبلغ.

فهل كان قوم اسرائيل عند مستوى هذه الأمانة السماوية من حيث الدفاع عنها، والمحافظة عليها والعمل بها؟

إن كل مرحلة من مراحل قوم اسرائيل التوراتية تؤكد أنهم لم يكونوا الأمناء على رسالة السماء؛ فقد خانوها وضيعوها، وكفروا بها، وتمردوا على موسى وعلى رب موسى، فأشركوا بالله وعبدوا ما عبدوا، وكان العجل بعض ما عبدوا.

والقرآن الكريم يؤكد ذلك كله تأكيدا كانت نتيجته أن غضب الله عليهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ولعنهم الله والأنبياء والناس أجمعون.

وعن قوم اسرائيل انتفت صفة الاختيار التي وضع الله لها شرط الإيمان، الذي لا يحمى إلا بالبذل والتضحية في سبيله.

ومضى الاختيار والاصطفاء ليستقر في نهاية الأمر في أمة محمد ﷺ التي أنعم الله عليها بنعمة الجهاد. وهي نتيجة معلومة ومقدرة في علم الله عن مدى تحمل أمة الإسلام وصبرها في سبيل دينها، وقدرتها غير المحدودة على العطاء والبذل بما يدهش العقول، وليس عطاؤها غير الروح والحياة، مقتدية في ذلك بذبيحها الأول اسماعيل بن ابراهيم، وبذبيحها الثاني وهو

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

عبدالله بن عبد المطلب، ومحمد ﷺ هو ابن الذبحيين، وهو رسول البشرية المبشر والهادي الذي أرسل إلى الناس كافة.

لقد كانت أمانة السماء بين قوم اسرائيل وبين أمة محمد ﷺ. بين قوم يأخذون ويأخذون، ولا قدرة لهم على العطاء. وبين أمة محمد التي تعطي وتعطي ولا تطلب غير ثواب الله وجزائه في جنة عرضها السموات والأرض.

ويخفق قوم اسرائيل في حمل الأمانة، بينما تنتصر أمة محمد ﷺ، وانتصارها بالجهاد الذي يبقى معلماً من معالم هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس، وان جهادها جهاد من يشري نفسه ابتغاء مرضـاة الله، وإنه لجهاد الدين الخالد والأمة الباقية و﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ (٢).

والحمد لله في الأولى وفي الآخرة

---

(٢) سورة التوبة: آية ٣٣.

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - الكتاب المقدس (التوراة).

٣ - «البداية والنهاية» الحافظ ابن كثير (- ٧٧٤ هـ)، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٢ م.

٤ - «التنبيه والإشراق» علي بن الحسين المسعودي (- ٣٤٥ هـ)، تصحيح / عبدالله اسماعيل الصاوي، مكتبة المثنى، بغداد، مصورة عن النسخة المصرية، ١٩٣٨ م.

٥ - «الجهاد ميادينه وأساليبه» د. محمد نعيم ياسين، مكتبة الأقصى، عمان، الاردن، ١٩٧٨ م.

٦ - «حياة الصحابة». محمد يوسف الكاند هلوي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٣ م.

٧ - «سقوط الامبراطورية الاسرائيلية» د. جورجي كنعان، بيروت، ١٩٨٠ م.

٨ - «السيرة الحلبية». علي بن برهان الدين الحلبي (- ١٠٤٤ هـ)، المكتبة الاسلامية، بيروت.

٩ - «السيرة النبوية». عبد الملك بن هشام (- ٢١٣ هـ)، تحقيق / مصطفى السقا وزملائه، طبع / مصطفى الباني الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥ م.

١٠ - «صحيح البخاري». محمد بن اسماعيل البخاري (- ٢٦١ هـ)، دار مطابع الشعب، القاهرة، (؟)

١١ - «في ظلال القرآن». سيّد قطب، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١ م، ط ٧.

١٢ - «عروبة فلسطين في التاريخ». محمد أديب العامري، المكتب العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٧٢ م.

١٣ - «الفتوحات المكية». محي الدين بن عربي (- ٦٣٨ هـ)، تحقيق / د. عثمان يحيي، ود. ابراهيم مذكور، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٧٧ م.

١٤ - «الفلسفة القرآنية». عباس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٥ - «قصص الانبياء» (المسمى عرائس المجالس). الثعلبي احمد بن محمد (- ٤٢٧ هـ)، دار الكتب العامة، بيروت، ١٩٨١ م.

١٦ - « قصص الأنبياء » عبد الوهاب النجار . دار إحياء التراث، بيروت، ط ٣ .

١٧ - « قصص القرآن » محمد جاد المولى، المكتبة الأموية، بيروت، ١٩٧٨ م .

١٨ - « قصص القرآن » عبد الكريم الخطيب ، مطبعة السنّة المحمدية ، القاهرة، ١٩٦٤ م .

١٩ - « كبرى اليقينيات الكونية » . محمد سعيد البوطي .

٢٠ - « كتاب الخراج ». القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم (- ١٨٢ هـ)، المطبعة السلفية القاهرة.

٢١ - « مجالس التذكير » عبد الحميد بن باديس ، دار البعث ، الجزائر ، ١٩٨٢ م .

٢٢ - « مجموع فتاوى بن تيمية (- ٧٢٨ هـ) ». جمع عبد الرحمن بن محمد ، طبع السعودية ، ١٣٩٨ م .

٢٣ - « محمد خاتم النبيين » محمد ابو زهرة، دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٩٧٢م .

٢٤ - « معجزة القرآن الكريم » . محمد متولي شعراوي ، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢ م .

٢٥ - « مفصل العرب واليهود في التاريخ». د. أحمد سوسة، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨١ م .

٢٦ - « الموسوعة الثقافية في سماحة الإسلام ». محمد الصادق عرجون، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٢ م .

٢٧ - « الوحي المحمدي » . محمد رشيد رضا ، دار المكتب الاسلامي ، القاهرة، ط ٨ .

الفهـرس